Folklore

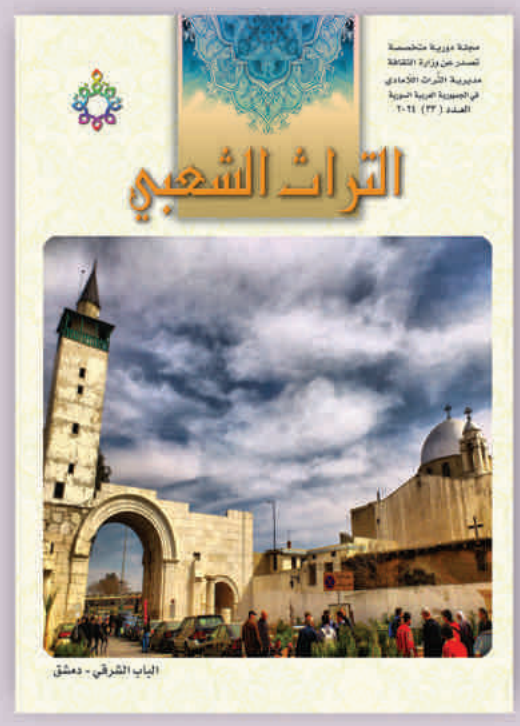

Aquartly issued by: Ministry of Culture in S.A.R
Issue No.(33) 2024

General supervision

Dr. Loubana Mouchaweh
Minister Of Culture

Chief Editor :

Thaer Zen ElDen

Managing Editor:

Roula Akili

Editorial Board:

- **Mohammed Kasem**
- **Hassan Abdel Hak**
- **Layal Abo Alezz**
- **Eyad Taba'a**
- **Mozaina Tawami**

Language Checker:

Mohammed Kasem

Printing Supervision:

Anas Al-Hasan

Technical Output:

Abdel Aziz Mohammed
azizmhmd32@gmail.com

For correspondence:
Chief Editor

Price: 2500 S.P. or what equate

التراث الشعبي

فصلية تصدر عن وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
العدد (٣٣) - ٢٠٢٤م

الإشـــراف العـــام

الدكتورة لبانـة مشـوّح
وزيـرة الثقافة

رئيس التحرير

ثائـر زيـن الديـن

مدير التحرير

م. رولا عقيلـي

هيئة التحرير

- محمّـد قاسـم
- ليـال أبـو العـز
- مُزينـة توامـي
- حسان عبد الحق
- إيـاد طبـاع

المراســلون

- كمـال الشـوفاني ... مراسل المنطقة الجنوبية
- نـدا حبيـب عـلي ... مراسلة المنطقة الساحلية
- أحمـد الحسـين ... مراسل المنطقة الشرقية

التدقيق اللُغويّ

محمّـد قاسـم

الإشـراف الطّباعيّ

أنـس الحسـن

الإخـراج الفنّـيّ

عبـد العزيـز محمـد

المراسلة : باسم السيد رئيس التحرير

الطباعة وفرز الألوان: مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب
السعر : 2500 ل.س أو ما يعادلها

عنوان المجلة: alturathalshabe@gmail.com

الفهرس

- **كلمة الوزارة :**

التراث اللامادي تجذُّر وتجدُّد

وزيرة الثقافة الدكتورة لبانة مشوِّح ٤

- **الافتتاحية :** لبيت تخفقُ الأرواحُ فيهِ (رئيس التحرير) ٦

- المعارف الطبية في تراث الجزيرة السورية

أحمـــد الحســين ٩

- دلائل التوقيت عند بدو سورية والعراق والجزيرة العربية

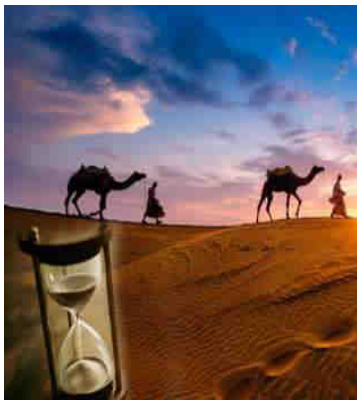

د. علي عفيفي علي غازي ١٩

- سوق السروجية من أقدم أسواق دمشق

أحمـــد بوبـــس ٢٤

- أماكن النزهات بدمشق

نبيـــل تللـــو ٢٧

- الشارع المستقيم في العصور

محمـــود علقـــم ٤١

- تعابير الشَّرَاب

د. مُحَمَّـد قاسـم ٤٦

- شتاءات ريفيّةٌ قاسية

د. فكتوريا فائز سعود ٥٠

- الأمثال الشعبية في دير الزور ومعانيها

تانيا حريب ٥٨

- «البيرق» في تراث جبل العرب الشَّعبيّ

د.عبَّاس مرهج فرج ٦١

- وثائق شراكة الخيل وبيعها في جبل العرب

(١-٢)

كمال الشوفاني ٦٩

- قراءة في كتاب:

(صور من الحياة الاجتماعيّة عند البدو)

وجيه حسن ٨٥

- حكاية شعبيّة عراقيّة:

لولا جرادة ما وقع عصفور

د. ثائر زين الدين ٩٠

- آخـر الكـلام ...

على الوعد يا كَمُّون

د. مُحَمَّـد قاسـم ٩٦

التراث اللامادي
تجذُّر وتجدّد

وزيرة الثقافة

الدكتورة لبانة مشوّح

تطوّر مفهوم التراث الثقافي في العقود الأخيرة تطورًا ملحوظًا، إذ لم يعد يقتصر على المواقع والأوابد والقطع الأثرية والفنية، وهو ما اصطلح على تسميته بالتراث المادي، بل تعدّاها إلى أدوات التعبير الحي والتقاليد والحكايات، والممارسات الاجتماعية، والطقوس والاحتفالات على مختلف أنواعها، والمعارف المرتبطة بالطبيعة والكون، والمهارات المنتجة للحرف التقليدية...

وفي سياق الاهتمام الدولي بصون التراث الثقافي ذي الصلة بالممارسات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات التي تصنّفها الجماعات والمجتمعات كجزء لا يتجزأ من تراثها الثقافي، شرعت اليونسكو منذ عام ٢٠٠٠ بحصر مختلف المصطلحات المتداولة من الدول الأعضاء والمنظمات الدولية والمنظمات الوطنية الحكومية والمنظمات غير الحكومية وسواها من الجهات المعنية، للدلالة على هذا النوع من التراث الثقافي.

ومن المصطلحات التي رُصدت ووُضِعت تعاريف كلّ منها تحت مجهر الدراسة والتحليل والمقارنة مصطلحات من مثل «التراث الثقافي اللامادي» و«التراث الشعبي» و«التراث التقليدي» و«التراث الشفوي» و«الفولكلور» و«الثقافة الشعبية» و«المعارف التقليدية»، وغيرها. وبناء على إجابات تلقتها اليونسكو على استبانة من /٣٦/ سؤالاً وزّعته على الدول الأعضاء، وعلى اجتماعات وندوات عقدتها ودراسات وبحوث موّلتها، استقرّ الرأي على توحيد المصطلح عند الجميع واعتماد «التراث اللامادي» ليشمل التراث الحي من ممارسات ومعارف يرثها الأفراد والجماعات، ويجهدون فيما بينهم لإحيائها وإعادة إبداعها ونقلها إلى الأجيال القادمة.

يشكل التراث اللامادي عنصرًا مهمًا في تعزيز التنوّع الثقافي وتكريس الهوية في مواجهة العولمة المتنامية. وهو أيضاً عنصر تماسك وانسجام وأداة حوار وتثاقف، يعزّز الثقة بالتميز واحترام الذات.

والتراث اللامادي تراث تقليدي، لكنه أيضاً معاصر حي متجدد. وهو شامل لا حصري، بمعنى أنّ بعض عناصره قد لا يكون مقتصراً على جماعة في منطقة دون أخرى، أو في بلد دون آخر. وهو لا يُحدّ ببقعة جغرافية، بل قد تظهر ممارساته في قرية هنا وتجمّع مدنيّ هناك.... لكنّه في كل الأحوال جزء من موروث ثقافي متجذّر حيّ، يصونه حَمَلَتُهُ فيمارسونه، ويتناقلونه من جيل إلى جيل، ويطوّرونه ويجدّدونه، يبقون عليه حيًّا ليغدو جزءًا من هُويتهم الثقافية المتجذرة المتجددة.

لبيت تخفقُ الأرواحُ فيهِ...

رئيس التحرير

د. ثائر زين الدين

كنتُ أقرأُ عن صناعة بيوت الشّعر، وأعجبُ أنَّ هذا العمل الصعب كان مُلقىً على عاتق المرأة البدويّة، من البداية حتى النهاية، ثمَّ تذكَّرتُ أن هذا الأمر ليس مزيَّة عربيّة، ففي قصّة «جميلة» لجنكيز أيتماتوف يُحدِّثُنا بطلها الفتى «سيّد» أن أمَّه «الأم الكبرى في الأسرة»، هي التي ورثت عن الجدّات مهارات حياكة الخيمة الكبيرة التي تُنصبُ في الفناء وتلوينها وتزيينها، وهذا شأن النساء جميعاً في قرية «شُكر» القرغيزيّة، وعند قبائل البدو جميعاً في قرغيزستان وكازاخستان...

كنتُ أقرأُ عن هذه الحرفة التي تسمّى عندنا في البادية السوريّة وربما في دول الجوار أيضاً «السدو»، وقد شاعت عبارة تقول: «السدو فن البدو»، وأستذكرُ شيئاً من الشعر العربي الذي ذُكرَ فيه بيتُ الشّعر، فكان من أنبل ما استحضرت ذاكرتي بيتان قديمان أحدهما لعنترة بن شداد، والآخر لعروة بن الورد، وهما يُقدمان رجلين قل مثيلهما في العفَّة وكرم النفس وعزَّتها، والحفاظ على حق الجيرة، قبل أن يكون الإسلامُ قد نشرَ مبادئه في هذا الباب.

وأما بيتُ عنترة فيقولُ فيه:

وأَغُضُّ طرفي ما بدَتْ لي جارَتي حَتّىيُـواري جـارتي مأْواهـا

في حين يقولُ عروة بن الورد:

وإنْ جارَتي ألـوَتْ ريـاحٌ ببيتِها تغافَـلْتُ حَتّى يَستُرَ البيتَ جانبُهْ

والبيتان يقدِّمان المعنى نفسه تقريباً، لكن الطريف في الأمر أن تلك البيوت لم تتطوّر كثيراً منذ ذلك الزمن حتى يومنا هذا؛ فالمادة نفسُها التي هي صوف الغنم أو شعر الماعز أو وبر الجمل، وهي من نتاج البيئة نفسها ومن منتجات الماشية التي يُربيها ساكن البادية أو الصحراء، وتقنيات الصنعة نفسها على الأرجح مع بعض التحديث في الأدوات اليوم، والعامل المُنتِجُ هو المرأة البدويّة التي ترى أن هذا العمل هو مهمّة طبيعيّة من مهامها لتلبية حاجة الأسرة سواء في نسجِ البيت الذي

تسكنه أم في صناعة العدول والمَزاود والخروج وما إلى ذلك، وقد شهدت هذه الحرفة اتساعاً وتطوّراً في مراحل كثيرة من تاريخها، واحترفَ رجالٌ لهم دكاكينهم ومحلّاتهم هذه الصنعة، فخفَّ العبءُ عن المرأة البدويّة إذا كان زوجها ذا يسار.

تُعدُّ البادية الموقع الطبيعي للسدو، ويحتاج هذا الفن إلى مجموعة من الأدوات غير المعقَّدة كالنول اليدوي، وهو «أداة يدويّة تصنع من أغصان الأشجار وخيوط القطن، وتربط بأربعة أوتاد على شكل مستطيل، وتتم هذه العمليّة عادةً في فصل الصيف باعتباره فصل الاستقرار عند البدو. وبعد إتمام عملية غزل الصوف أو الوبر أو الشعر وصباغة الخيوط تمدُّ المرأة السدو أمام منزلها لتبدأ العمل».

و«المطرق»: وهو عصا دقيقة تُستخدم في تنظيف الشعر أو الوبر وتنقيته.

و«الكرداش»: وهما قطعتان خشبيتان لكل منهما مقبض، وفي سطح كل منهما أسنان يُمرَّرُ الشعر وسواه بينهما لتنظيفه.

و«التغزالة»: وهي عصا يُلفُّ عليها الصوف غير المغزول.

و«المغزل»: وهو أداة معروفة يستخدم لبرم الصوف الملفوف وتحويله إلى خيوط تُجمع في كُرات.

و«الدجة»: وهي ما يُلف من الخيوط المغزولة والمبرومة على شكل كرة.

و«المنشزة أو النيرة»: وهي قطعة خشبيّة مستطيلة ذات طرفين حادين، تستعمل لرصف الخيوط بعد تشكيلها.

وهناك القرن والمدرة والمدرارة وغيرها من الأدوات الخشبية والحديديّة الضروريّة لإنجاز بيت الشعر الذي يتفاوت حجمه واتساعه، فقد تصنع المرأة للبيت الواحد من ٤ إلى ٧ «أشقاق أو فلجان». البيت الكبير يدعى «بيت فازه» يصل إلى ٧ أشقاق، ويضم من ٣ إلى ٥ بواهر (غرف). أما البيت الصغير فيضم من ٤ إلى ٥ أشقاق صغيرة، ويختلف طول الشق وعرضه : من ٧٠ سم إلى ١٢٠ سم.

ويزهو النسيجُ الناتجُ بالزخارف والألوان التي تعكس حسّاً جماليّاً فطريّاً، وثمّة أشكال من عمق التراث تعتمد على التناسب والتماثل والتكرار، وهناك خطوط أفقيّة متوازية وسوى ذلك.

يتعرَّضُ هذا الفن التراثي الشعبي (السدو) إلى تهديدات حقيقيّة؛ هي نفسها التي يتعرّض لها نمط الحياة البدويّة، فمعظم البدو الرُحَّل ينتقلون اليوم إلى حياة الحضر والاستقرار، ثم تأتي شدّة المنافسة التي تفرضها البضائع المصنوعة آليّاً؛ الأرخص ثمناً والأقل جُهداً وتعباً، كما أن ما عاشته البلاد في السنوات القليلة الماضية جعلت الاهتمام بهذا العنصر التراثي يقلّ؛ فالمعارض التراثيّة التي يُمكن أن تُعرِّف بهذا العنصر وتُروِّج له أصبحت أقل من أن تُذكر.

ومع ذلك سنبقى نشتاقُ إلى بيت الشعر، وصفاء البادية ونقاء أهلها، وجمال نسائها غير المجلوب بتطرية - وفق تعبير المتنبي-، ولعلّنا نردِّدُ مع ميسون بنت بحدل الكلبيّة التي فضّلت حياتَها في بادية أهلها وبيوتهم المصنوعة من الشعر والصوف والوبر على بهاء قصرها العظيم:

لبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيه ... أحبُّ إليّ من قصرٍ مُنيف
ولُبْسُ عباءة وتقرَّ عيني ... أحبُّ إليّ من لبس الشُّفوف
وأصواتُ الرياحِ بكلّ فجّ ... أحبُّ إليّ من نقرِ الدُّفوف
وكلبٌ ينبح الطُّرَّاق دوني ... أحبُّ إليّ من قطّ أليف
وبَكْرٌ يتبع الأظعان سَقْبًا ... أحبُّ إليّ من بَغْلٍ زَفُوف
وخِرْقٌ من بني عمي نحيف ... أحبُّ إليّ من علجٍ عليف
خشونة عيشتي في البدو أشهى ... إلى نفسي من العيشِ الطريف
فما أبغي سوى وطني بديلاً ... وما أبهاه من وطنٍ شريف!

المعارف الطبية في تراث الجزيرة السورية

أحمد الحسين

تتناول هذه الدراسة جوانب من مفهوم الثقافة الطبية بين سكان الجزيرة السورية في القرنين التاسع عشر والعشرين، وما يتصل بذلك من معارف شعبية وخبرات ومهارات علاجية شكّلت موروثاً شعبياً تجلّت فيه خبرات الأجداد والأسلاف، وتفاعلت معه التجارب الفردية والمشاهدات والمعاينات الجماعية.

وحين ننظر في طبيعة تلك الثقافة، نكتشف أنها لم تقم على أسس علمية، بل كانت حصيلة معارف متراكمة، ومنظومة شفوية متداولة، سواء من حيث أسماء الأمراض أم وصف أعراضها والإحاطة بأسبابها، وتنوّع أساليب وطرق علاجها، بحيث يمكن القول : إنّ هذه الثقافة بانتقالها من جيل إلى جيل كوّنت نسقاً طبياً في الحياة الشعبية، يوازي منظومة الثقافة الطبية المعاصرة .

لقد استخدم أهل الجزيرة مصطلح الوجع دلالة على المرض بشكل عام، فقالوا : هو «وجعان»، كما استخدموا مرادفات أخرى موازية، فأطلقوا على المريض اسم « مَعْلول »، وذلك من العلة، أي المرض، و «معثوث» أي مصاب ، و«به داي» أي مرض، وهو من كلمة الداء التي قلبت همزتها ياء في العامية الدارجة، وقالوا : هو «مَعيوب أو مُصاب» لمن به اضطراب نفسي أو ذهني، وغير ذلك من الألفاظ والمرادفات والمصطلحات الأخرى .

ولما كان معظم التصوّرات والمفاهيم والمصطلحات وطرق العلاج التي كانت شائعة قد عبّرت عن مفهوم الثقافة الشعبية وماهيتها قد اندثرت واختفت إلى حد كبير من الذهنية الشعبية وممارساتها الطبية، كان هدف هذه الدراسة هو توثيق تلك المعرفة، وتدوينها والإحاطة بمعارفها قدر المستطاع، وهو ما سنقف عنده من خلال الجوانب الآتية:

- أمراض خمجية :

وهي أمراض يسببها عامل فيروسي أو جرثومي، وتصيب الإنسان والحيوان ، وتنتقل بالعدوى عن طريق الهواء أو الماء أو المساكنة والملامسة والطعام ، وتندرج في سياق هذه الزمرة أمراض وعلل كثيرة من أشهرها في الذاكرة الشعبية ما يأتي:

١ - العَوَاية : وهي المصطلح الشعبي الذي يطلق على مرض السعال الديكي ، وذلك نسبة إلى طبيعة سعال المصاب التي تشبه نباح الكلب من حيث الشدّة والبحّة ، وهي من الأمراض الشتوية المعدية التي تصيب الجهاز التنفسي للأطفال ، وكانت تعدّ من الجوائح العامة في ظل غياب الرعاية الصحية، وطرق العلاج الشعبي غير العلمية آنذاك، فكانت تؤدّي إلى وفاة كثيرٍ من الأطفال الصغار اختناقاً ممن هم دون سن الثالثة .

ومن طرق علاج العوّاية آنذاك أنَّ أهل المصاب كانوا يخرجون به إلى البرية في نزهات صباحية ومسائية، ويفضلون السير به قرب مجاري الأنهار والبرك المائية لتوفر الهواء النقي المشبع بالأوكسجين، اعتقاداً منهم أنَّ هذه النزهات مما يفيد في توسيع

القصبات الرئوية وارتياح الطفل المصاب. ومن طرق علاجهم الأخرى أنّهم كانوا يسقون المصاب لبن الأتان دون سبب واضح، وقد يكون ذلك لغنى حليبها وتوفر بعض العناصر التي تعزز مناعة الطفل، ولهم طرق أخرى في علاج العوّاية تختلف من منطقة إلى أخرى ومن بيئة إلى بيئة ، فمن ذلك أنّهم في بيئة المدن كانوا يذهبون بالطفل المصاب إلى محل قصّاب، فيقوم هذا بإيحاء وتمثيل عملية ذبح ونحر من خلال شحذ السكاكين والسواطير بعضها ببعض عند حَنْجرة الطفل، ويعيد ذلك ويكرّره عدّة مرّات في عدّة أيام، ويعتقدون أنّ ذلك مما يشفي، دون وضوح الأسباب .

٢- الحَصْبَة : وتعدّ من الأمراض والأوبئة الفتاكة التي تنتشر على شكل جوائح، وتصيب الكبار والصغار في جميع الفصول ، وفي اللغة : «الحُصبة والحَصبة والحِصبة ، مرض معدٍ يخرج بثوراً في الجلد، ويسبّب حمى ، وبحّة في الصوت» [١] ، ويقال في عامية الجزيرة للمصاب «مُحَصَّب»، ويعرف المصاب بارتفاع درجة حرارة جسمه التي يسمونها السخونة ، وظهور طفح جلدي أحمر وبثور حمراء ناعمة تغطي جسم المصاب، ويكون تأثير الحصبة على الصغار أشد منه على الكبار ، إذ غالباً ما تؤدي إلى وفاة أعداد كبيرة منهم ، ولاسيما في السنوات الأولى من أعمارهم .

ومن طرق علاج الحصبة والوقاية منها في الموروثات الشعبية : عزل المرضى ، ومنع الآخرين من الدنو منهم ، كما كان من عادتهم الامتناع عن غسيل الثياب ذات الأصباغ الملوّنة اعتقاداً أنّ ذلك يزيد من استفحال المرض وشدة تأثيره وتهيّجه ، والمعروف في الاعتقادات الشعبية أنّ الحصبة مرضٌ يصيب الإنسان مرةً واحدة في حياته، ثم يكتسب جسمه المناعة الدائمة، وقد اختفت الحصبة أو كادت بفضل لقاحات التطعيم التي صارت تعطى للأطفال ، فلم تعد تذكر كثيراً أو تعرفها الأجيال المعاصرة إلا بشكل نادر وقليل، في حين ظلت تتداولها الألسن في الأغاني والأهازيج والموروثات الشعبية كقولهم [٢]:

وتدورْ عالنصبَهْ وتدورْ عالنصبَهْ
أمْ الجدايلْ شقرْ ومنكسه بعُصبه
يا ريت أبوها اعمى وأخوها بالحصبه
وأمها منْ كثرْ الوجعْ ما تجرعْ المَيّه

٣- الجُدَري : وهو مرض معروف قديماً، ويعد من الأمراض المُعدية ، التي تأخذ شكل وباء يقضي على العشرات والمئات من الكبار والصغار.

ومن أعراض الجدري ظهور طفح جلدي وبثور متقيحة في جسم المصاب، تاركة عند انفجارها ندبات تشوه الوجه وبعض الأعضاء، وقد تؤدي إلى الإصابة بالعمى وغير ذلك من التشوهات الجلدية .

ولعدم توفر العلاج الشافي للجدري آنذاك، كانوا يلجؤون إلى أسلوب الوقاية من المرض، وذلك بعزل المصاب عن غيره خشية انتقال العدوى منه إلى الآخرين، وقد يصل بهم الأمر إلى حد الرحيل والانتقال الجماعي، وترك المرضى في الديار ريثما يشفى منه من يشفى، ويموت من يموت .

كما كان من عاداتهم ترك المريض في ديار القبيلة عند الرحيل منها مع بعض الطعام والشراب وإحاطة المجدور بسياج من الحطب والأشواك يسمونه «الصيرة»، حماية له من الحيوانات المفترسة، وقد يترددون عليهم بين وقت وآخر .

وتروى في حياة البوادي حكايات متداولة عن مرضى الجدري الذين تركوا في ديار أهليهم، ومن ذلك حكاية الشاعر الأمير عبد الله الفاضل ، الذي عاش في بادية الجزيرة الفراتية ، إذ جاء على لسانه ما يصف ذلك فقال [٣]:

هلي شالوا وخلوني إبصيره
ضيعت الدليلي والبصيره
بعد لبس الحساوي بالبصيره
على عيني محاودني الغراب

٤- الكَلَب : وهو داء أشارت إليه العرب قديماً، تلفظ كافه بين الشين والجيم في عامية الجزيرة، وجاء ذكره في أشعار العرب وأخبارها، وينشأ عن إصابة الكلاب بالسُّعار، وهو ضربٌ من الجنون فيدفعها إلى مهاجمة البشر والحيوانات، فإنّ عضّ الكلب المَكلوب إنساناً أو دابة نَقَلَ إلى دمه فيروس الكلب، فيصبح المعضوض ناقلاً للداء إذا عض أو خدش إنساناً أو حيواناً آخر.

ويمرّ فيروس الكَلَب بمدّة حضانة تستغرق عدة أيام، فإن لم يعالج فيها المعضوض يكون الداء قد استفحل في جسمه، ومن علامات ذلك أنّه يطرح مع بوله نوعاً من العلق، يعتقد العامة أنّها جراء الكلب، وعندئذ تصبح نجاته أمراً ميؤوساً منه، وفي ذلك قال أحدهم [٤]:

مثلْ مَكلوبْ حين جراه ياعين
يقضي الليل بالحسراتْ ياعين
تملّي بديارْ الولفْ يا عين
وزيدي بالدمعْ يا مُولَه

ومن المعارف المتداولة حول مرض الكلب وما يعتري المصاب به في الثقافة الشعبية الدارجة أنّ المكلوب يفزع من الماء، ويمتنع من شربه حتى ليموت عطشاً، وكانت الدواب التي تصاب بالكَلَب تُقتل وتدفن، أمّا الإنسان المصاب فكان يقيد ويحبس ويعزل عن الآخرين، ويقدم له العلاج وفق المعارف الموروثة، ومن ذلك: أنّهم كانوا يمسحون مكان العضة بالملح والماء النقي، ومن الطرق التي عرفتها العرب قديماً أنهم كانوا يحمون وجه من أصابه الكلب من سقوط الذبان عليه، قالوا: «وهو أشد عليه من دبيب النبر على البعير» [٥].

وقد ذكرت مصادر التراث أنه كان من عادة العرب إذا أصيب إنسان بالكلب «أن يأتوا رجلاً شريفاً فيقطر له من دم إصبعه، فيسقون ذلك الكَلِب فيبرأ» [٦].

ومن طرق علاج المصاب بالكلب في الجزيرة إلى وقت قريب أنهم كما كانوا يذهبون به إلى فئة من السياد وأصحاب الطرق الدينية من ذوي السلالة، فيستخدم هؤلاء التعاويذ والرقى لشفاء المصاب، على أنّ الطريقة الموروثة لدى العرب منذ جاهليتهم وإلى عهود قريبة كانت العلاج بمسحوق الذرنوح، وهو دويبة حمراء منقطة بالسواد، تظهر في فصل الربيع فيجمعها بعض الخبراء في الطب ثم تجفف وتسحن وترفع وتعد من السموم [٧]، وقد جاء على لسان الفراهيدي: «أن دواء عضة الكَلب الكَلِب الذراريح والعدس والشراب العتيق، والذرنوح دويبة أعظم من الذباب شيئاً، مجزّع مبرقش بحمرة وسواد وصفرة، لها جناحان تطير بهما، والذرنوح سم قاتل، فإذا أرادوا أن يكسروا حدّ سمّه خلطوه بالعدس، فيصير دواء لمن عضه الكَلْب الكَلِب» [٨].

وقد أشارت أشعار العرب في الماضي وموروثاتهم الشفوية المعاصرة إلى وصف التداوي بالذرنوح، ومما قيل في ذلك [٩]:

على قلبي كثيرْ حساب والهمْ
وبيدي لسحنْ الذرنوح والهم
متى تلفون يا شيَّالة الهمْ
تشيلون الثقل وحْنا عَفَا

وبالطبع فإن هذه الطرق بالعلاج قد انتهت بعد توفر الأمصال والأدوية الحديثة، لكنها أصبحت جزءاً من موروثات الثقافة الطبية في الماضي.

- أمراض نفسية - عقلية :

وهي أمراض وأطوار تعتري الإنسان بسبب بعض التصوّرات والتخيلات والظواهر الغامضة، تعتري نفس الإنسان وعقله لأسباب مختلفة، فضلاً عن تأثير سياقات الحياة الثقافية والاجتماعية التي كانت سائدة في بيئة العامة وثقافة العشائر البدوية، وما يتصل بذلك من أنماط الخرافة والاعتقاد بوجود كائنات خرافية وأسطورية، كالسعالي والحنافيش

وفريج أقـرع وسحال أبو الطبق، وذلـك غير ما يُروى عن الجـن والشياطـين، وسواهـا من الكائنـات التي تغـذي حكايات المـوروث الشعبي عقـول الأطفال بها، فتثير الرعب والخوف في نفوسهم في القرن الماضي .

وكان أكثر ما يثير الخـوف والهلع في نفوس الكبار والصغار، ما يُـروى ويحكى عن طوائف الجن، ويذكر عـن أوصافهم وقدرتهم على التحوّل والتغيّر من شكل إلى شكل، وظهورهم تارة في هيئات حيوانية كالكلاب والقطط والأفاعي والأرانب، وغير ذلك أو في ظهورهم عياناً كما يزعـم بعض من رآهم أو التقاهم وما تثيره أشكالهـم مـن خـوف كأجناس الرهـوط ،وهم طوال القامـة جـداً كما يوصفـون، وأصناف أخـرى توصف بقصـر القامة ، إذ تقدّر بشبر أو أقل قليلاً ، لها عيون مشروحـة كعيـون القطط ولحـى طويلة، وهـؤلاء من الجـن الذيـن يسكنون الخرائـب والأماكـن المظلمة، وأنهم أحياناً يشاطـرون أهل البيت من البشر السكن في مـكان واحـد، ويتنازعـون ذلـك، فمـن المؤكد أن شيـوع بنيـة ثقافيـة على هـذا النمط مـن التخيلات والتصـورات، كان لـه أثـر كبير في انتشـار الأمراض النفسيـة والعقليـة، إذ ينشأ المرء علـى ذلك، وهو ما يجعلـه مهيَّأً لأي عارضـ من هذا النـوع يذهب بعقله وجَنانه .

والواقـع أن الأمراض النفسية والعقليـة تتداخل وتختلـط في إطارها العام، لكنهـا تتفاوت في درجاتها وشدة تأثيرها وخطورتها على حياة المصاب والآخرين مـن حوله، ومن أوسعها تـداولاً في الحياة الاجتماعية وشيوعاً في الثقافة الشعبية الأمراض الآتية:

١ـ الواهـس: وهـو اضطـراب نفسـي يعرض للإنسان، فيجعله شديد الخوف من شيء مجهول، ولا سيمـا عند حلول الليـل أو الخلوة والانفراد ، وللواهس أعراض متعـددة، فمـن ذلـك أن المريض يتكلم مع نفسـه، أو يشـرع في كلام وكأنه يحـاور كائنات أخرى غير مرئية، وقد يخلط في كلامه ، ويعاني من تَهَيُّؤَات، وتعرض له أحلام وكوابيس مخيفة تجعله يفز من نومه مذعـوراً مرتعداً ويعـاني من الارتعاش والاضطراب والصراخ والتوتر .

ولمـا كان الواهس يفسّر في منظور الثقافة الشعبية على أنه مسّ من الجن والأرواح الشريرة، كان علاجه يعتمـد على الرُّقـى والتعاويذ وعمل الحُجُـب، وهو ما كان يتـم على يد رجال الدين والشيوخ والأولياء الذين لهـم سطوة على تلك القـوى في الاعتقادات الدارجة ، إذ يمكث المريض أياماً وأسابيع في بيوت رجال الدين، أو يفـد عليهم في زيارات منتظمـة يتلقى فيها جلسات عـلاج نفسي وروحي من خلال قراءة التعاويذ والآيات القرآنيـة وكتابة الحجب والرقى التـي تعد له، وهو ما يسمّـى في المصطلـح الشعبي " التعـزيم " ، إذ يرافق ذلـك وضع يد المعالج على رأس المريض أو على صدره أو استخـدام السكاكين أو الإبـر لوخز جسده، والواقع أن تلك المعالجات كان لها تأثير إيجابي على المرضى، فيستعيـد الواحـد منهـم الطمأنينـة ، ويتخلص من الوساوس والاضطرابات التي تعترضه، ومن الوسائل التي كان يلجـأ إليها المعالجون تبخير المصاب بدخان الحرمـل أو اغتسالـه بمائه، إلى جانـب استخدامهم بعض الأدوات كالأباريق والسكاكين إذ يضعونها قرب فراش المصاب، فتخلق لـه الطمأنينة لاعتقادهم أنها تطرد الجن أو الجن تخاف منها .

٢ـ الخُرعَـة : وهـي مرض يـدل علـى الخوف الشديد الذي ينتاب المصاب، أو هي حالة من الرهاب المفاجئ يصيـب الإنسان لاعتقـاده برؤية كائن مفزع أو سمـاع صوت مفاجـئ، ومن ذلك مثـلاً رؤية بعض الـكلاب أو القطط في مكان مظلـم أو في ليل أو لنفور طائر، وغير ذلك من المرئيات و التهيُّؤَات التي تعترض الإنسان سواء أكان وحيداً أم منفرداً .

وعليـه فإن الخرعة يمكـن أن تفسّـر بأنها ضرب مـن ضروب الجنون، ففـي اللغة: الخُراعـة والخُرَاع: جُنـون الناقـة، والمَخروعة مـن النياق: التـي أصابها

الخُراع [١٠]، وهو ما يقال كذلك في الإنسان ، إذ يطلق على من يصاب بذلك اسم المخروع، و على المرأة صفة مخروعة، ومن المرادفات الموازية لهذا العارض النفسي مصطلح «الخَرْشَة» و«الدهشة» و«الرعبة»، وكلها تدل على الاضطراب النفسي والخوف من كائن مجهول.

وتعالج الخرعة في مجتمع الجزيرة على يد فئة المشايخ والسادة بالتعزيم والآيات القرآنية وكتابة الرقى والحجب للمريض، ومن طرائق علاجهم الأخرى شرب الماء الذي يعزم عليه المشايخ ويتلون عليه الآيات القرآنية من طاسة نحاسية تسمى «طاسة الخرعة» نقشت على حوافها الخارجية آيات قرآنية، وكان يقال إن هذه الطاسة يأتي بها الحجاج من مكة، ولم تكن تتوفر لدى عامة الناس، إذ قد تتوفر عند حاج ما، فيذهب إليه، أو تستعار منه، ويشرب منها المريض على بركة مكة .

٣- الجنون : ويراد به ذهاب العقل ، ويعد من أشد الأمراض النفسية والعقلية خطراً على المصاب والآخرين من حوله، ورؤية المجنون تثير الفزع والخوف بما يظهره من الميل إلى العنف وإيذاء الآخرين، ولهذا كان من عاداتهم حبس المجنون وتقييده كيلا يؤذي نفسه وسواه من الناس .

ويعزى الجنون في موروث الاعتقادات الشعبية إلى تلبس الجن للمصاب أو المسوس ذكراً كان أم أنثى، وفي اعتقادات العامة أن الإنسان يتعرض لاعتداء الجن إذا آذاها أو مرّ بمساكنها أو خرج منفرداً في برية أو سار بليل ، أو إذا عشق الجن إنساناً فيستحوذ على عقله ويسكن جسده ، لهذا كانوا يخشون الجن ويحذرون من المرور بمساكنه. ومن أقوالهم في طلب الأذى والانتقام للآخر «ريتك بالسخونة والقاع المسكونة» أي الأرض التي تسكنها الجن.

ويمر المجنون بأطوار من العنف والهيجان، وتعتريه تشنجات جسدية وعضلية، وقد يميل أحياناً إلى السكون الذي لا يشك في سلامة عقل صاحبه، وتعد طرائق علاج المجانين من اختصاص رجال الدين والمشايخ وأصحاب الكرامات الذين سبق أن أطلقنا عليهم اسم «السيّاد» والواحد منهم سيّد، وهؤلاء ينتمون إلى أسر وسلالات مشهورة بالعلاج الروحي والنفسي أو من مريدي وأتباع تلك الأسر.

وتمتد جلسات علاج المجانين أسابيع، وقد تطول إلى أشهر، وربما تخلى السيد أو المعالج عن مريض المجنون معرباً عن عجزه في السيطرة على الجني المتحكم في نفس المجنون، وينصحه بالذهاب إلى شيخ آخر.

وتبدأ طريقة علاج المجنون بعزله أولاً عن محيطه الاجتماعي تجنباً لما يثيره، ويتخلل ذلك جلسات يختلي بها الشيخ بالمجنون، يحاول أن يعرف منه اسم تابعه وبلده وجنسه ومن خلال المرويات المتداولة، فإن المجنون لا يبوح بهذا المعلومات، ولا يعترف بشيء من ذلك، فيستعين المعالج بوخز الإبر والخناجر التي يغرز بها جسد المجنون، ويحاصره بالأسئلة ليكشف له هوية اسم شيطانه وجنسه، ويشجعه على البوح بذلك، ويطمئنه أنه بحمايته ولا يناله أذى، ويكثر في ذلك من تلاوة العزائم والآيات القرآنية، وإقامة حلقات الذكر التي يضرب بها الدفوف فإن استجاب المصاب لما يسأل عنه، وكشف عن اسم تابعه، تكون المرحلة الأولى من العلاج تحققت، تليها المرحلة الثانية، وفيها يطلب من المصاب أن يطلق صاحبه المجنون، وفي هذه المرحلة كما تروي جلسات العلاج، أن المجنون يرفض ذلك، ويراوغ ويحتال، فتتواصل هذه الجلسات والخلوات وأسلوب الوخز والعلاج إلى أن يلفظ المجنون عبارة الطلاق لتابعه الجني، وبذلك يبرأ منه، ويتخلص من آثار سيطرته .

وتؤكد الروايات الدارجة والوقائع المعترف بها أن كثيراً ممن أصابهم مسّ الجن في عقود القرن الماضي وما قبل، قد شفوا بتأثير طرق العلاج هذه،

وبتأثير الطاقة الروحية التي كانت لدى بعض المشايخ وأصحاب الكرامات الذين عرفت منهم أسماء كثيرة لدى بعض القبائل، وما يقال في ذلك في حلقات الذكر اعترافاً بهذه الطرق وأصحابها[١١]:

آني نخيت الساده والمدو السجّاده
الجبر بيهم عاده من جاهم المجنون بْري

والواقع أن علاقة المريض لا تنتهي بالشيخ المعالج، بل تستمر سنوات في زيارات سنوية، إذ يقدم للشيخ ذبيحة، ويجدد هذا حجابه الذي يحمله دائماً، وإن تكن حالات الجنون في الوقت الراهن قد تراجعت لأسباب مختلفة، لم يزال الاعتقاد في منظور الثقافة الشعبية سائداً لأسباب الجنون والعوامل المؤدية، فضلاً عن أنَّ أسباب الاعتقاد في دور فئة السياد في علاج فئة المصابين وشفائهم سائدٌ إلى اليوم بالرغم من وجود العيادات الطبية والمصحات العقلية .

- أمراض عصبية :

وهي أمراض لا تلم الثقافة الطبية الشعبية بالأسباب الحقيقية والمباشرة لها ، وتعزوها إلى ظواهر غير طبيعية كتأثير الجن و القوى الروحية لبعض الأشخاص والكرامات، ومن أبرز تلك الأمراض وعاهاتها :

- أبو اللّوى : وهو التسمية الشائعة بين أهل بوادي الجزيرة وأريافها في دلالتها على مرض اللقوة، الذي ينشأ طبياً عن شلل العصب الوجهي، ويصيب الفم، ويؤدي إلى اعوجاجه وميلانه إلى أحد الجانبين، كما يصيب العين، فيؤدي إلى تهدّل أجفانها .

ويعزى هذا المرض في الاعتقادات الشعبية إلى أثر الجن ، لذلك يسمونه لطمة الجن ، أو لخة الجن، اعتقاداً منهم أنّ الجن تصفع المصاب وتلطمه على خدّه ، فيكون من تأثير ذلك إصابته باللقوة، وهذا من اعتقادات العرب الموروثة ، إذ كانوا يطلقون على من يصاب بذلك بلطيم الجن ، قال الجاحظ :« ويقال لمن به لقوة أو شتر، إذا سُبّ : يا لطيم الشيطان»[١٢].

ووفق هذا الاعتقاد فإنّ طريقة علاج «أبو اللوى» لا تقوم على علاج دوائي، بل على معالجة روحية ونفسية، إذ يؤخذ المصاب إلى أحد المشايخ وذوي الكرامات الروحية ، فتتم معالجته بطريقة تبدو غريبة جداً، إذ يضرب موضع الاعوجاج بفردة حذاء، ويستمر هذا العلاج في جلسات تدوم عدة أيام ، وقد تتراجع وتشفى هذه الحالة ، ومن خلال التجربة العملية ثبت شفاء كثير من تلك الحالات بالرغم من أن الطريقة بين اللطم بالحذاء والشفاء غير واضحة الدلالة .

والواقع أن إصابات أبو اللوى قد تتراجع وتزول تلقائياً، فيستعيد المصاب شكله ، وربما تركت أثراً طفيفاً ودائماً يرافق وجه المصاب ويشوّه معالمه، ولهذا كانوا يستخدمون اللثام فيسدلونه على الوجه لتغطية ذلك العيب .

وبالرغم من أنّ علاج هذا الموضوع أصبح علاجاً طبياً، ماتزال بعض الفئات الشعبية تؤمن بعلاجه وفق الطريقة السابقة التي كانت دارجة منذ عقود .

- الرِّعيْصَة : وهذا المصطلح الدارج في البيئة الشعبية يقابل مرض الصرع ، الذي يصيب الإنسان من وقتٍ إلى آخر ، ويترافق بأعراض ومظاهر كفقدان الوعي وتشنج أعضاء الجسم وتشكل فقاعات الزبد حول شفتي المصاب، وتختلف مدّة النوبة فقد تستغرق دقائق ، وقد تمتد إلى ساعات وأيام .

والرعيصة مشتقة من دلالة الرَّعص ،يقال في اللغة : «رَعَصَ الشيء وأرعَصَهُ : حرّكه وهزّه ، وارتعص: تلوّى واهتزّ واختلج»[١٣].

وتظل أسباب الرعيصة غير واضحة في ذهنية العامة، لكنهم على العموم يعزونها إلى مسّ الجان، لهذا كانوا يعالجون من يتعرض لنوبة الصرع «رعيصة» بالنفخ في أذنيه، أو الأذان والتكبير فيهما، اعتقاداً أنّ ذلك يطرد الشيطان من جسمه ، كما يصحبون من تنتابه الرعيصة إلى شريحة السياد الذين يتلون عليه الرقى والعزائم ويعلقون له الحُجُب.

وكان من أصابه مرض الرعيصة لا يترك وحيداً ،

وينبغي أنْ يظل دائماً قريباً من أنظار أهله ، خشية أنّ يتعرض لضرر جسدي إبّانَ حدوث نوبة الصرع، ولهذا كانـوا يصنفون الرعيصة على أنّها ضربٌ من الجنون الخفيف غير الدائم .

وتختلـط مظاهـر الرعيصة، وتختلـف التسميات التـي تطلـق عليها مـن بيئـة إلى أخرى ، فيقـال لها: الشمْـرَة ، دلالـة علـى اضطـراب أعضـاء المصاب ، ولا سيمـا يديه ورجليه ، إذ يحركهمـا وكأنه يسبح في ماء، ويسمونهـا أيضاً السويدا ، واللخة ، من اللخ وهو الضرب، وغير ذلك من المسمّيات الأخرى .

- الريح : وهو مرض معروف في الثقافة الشعبية لـدى عامة الجزيرة في دلالته علـى التهاب الأعصاب ومرض الروماتيزم، إذ يصيب الركبة والمفاصل بشكل أساسي، ويؤدي إلى صعوبة الحركة والوهن ، والشعور بـآلام في العظـام والمفاصـل ، كانـوا يسمونهـا صليل العظام ، لهذا قالوا في معرض الدعاء : «ريتك بالريح والعظام التصيح»، أي التي تشكو الوجع والألم.

ولهـم طرق شعبيـة عديدة في عـلاج الريح منها: استخـدام الكي والحرق بالعطب على مواضع العَصَب التـي تثير الألم أو على الركب ، ومنها تناول لحم طير الرخم ، ومن طرقهم الأخرى تدخين مسحوق الحرمل مـع التبغ، فضلاً عن ذلك استخدموا العلاج بمغاطس الماء الساخن ولاسيما المياه الكبريتية ، فكانوا يغطسون بها، ويطلون أجسادهم بطينها .

ومما يتصل بمرضـ الريح ما يسمى «حية الهوا»، إذ تـؤدي إلى تورم في بعض مفاصـل الجسد ، وتعالج وفـق الطرق السابقـة، وهي من الأمراض التي يقال للآخر في معرض الغضب والدعاء «ريتك بحية هوا».

- الفـالـج : وهـو مصطلـح طبـي شائـع ذكرته مصادر الأدب وكتب الطـب القديمة، وعرفته الثقافة الشعبيـة إلى وقـت قريـب بهذا الاسـم في دلالته على الاحتشـاء الدماغـي الذي يـؤدي إلى شلـل نصفي أو شقي، فهو مرض الشلل المعروف.

ولكـن أهـل البادية لم يكونـوا يدركـون السبـب الحقيقي للإصابة، لهذا كانوا يعزونها إلى تأثير الجن وقـوة الأرواح الشريرة، لذلك كانـوا يأخذون المصاب إلى فئة السيـاد لعلاجه بالأدعية والعزائم واستخدام الوخز برؤوس الخناجر والإبـر، وقد تتراجع الإصابة ويخف تأثيرها ، لكنه بشكل عام مما ترسخ في ذهنية العامـة أنّ الفالج لا علاج له ، ولهذا قالوا في أمثالهم: «فالج لا تعالج».

- عـرق النَسَـا : وهـو مرضـ معـروف في بيئة الثقافـة الشعبية، ناتج عن التهـاب العصب الوركي ، ومن نتائجه صعوبة المشـي والألم الشديد الذي يشعر بـه المصاب، ويمتـد عادة من أعلـى الفخذ إلى مشط القدم .

ومـن طرق علاجهـم هذا المرض استخـدام النار كيّـاً أو عطبةً فوق العصـب في أعلى الفخذ أو عند وتر القـدم ، وأحيانـاً يقومون بقطـع أو فصـد أحد فروع شريـان ظهر القدم ، ومـا تزال هـذه الطريقة قائمة بالرغم من ظهور طرق العلاج الطبية الحديثة.

- وجع الرأس : وهو مصطلح عام يطلقه العامة للدلالـة على الصداع ، ويعد مـن الأعراض التي تنتج عن ارتفاع ضغط الدم والشقيقة والانزعاج والتوترات النفسية الحادة .

وهو مرض يصيب الإنسان من وقت إلى آخر مسبباً ألماً شديداً في الرأس ، ويؤدي إلى رعاف الأنف واحمرار بياضـ العـين، ولهـم في علاجه طـرق مختلفـة، فمن ذلـك استخدام الحجـب والتمائم التي يعدهـا السيّاد للمريض، وتحتوي أدعية وآيات قرآنية، وتغلف بحافظة من قماشـ أو جلد مثلثة الشكل، وتعلـق في غطاء رأس المريضـ بشكل دائم، ومن طرقهـم الأخرى في علاجه فصد الشريان الصدغي اعتقاداً منهم أنّ ذلك يخفف مـن الألم، ويشفـي من الصـداع، كما استخدمـوا إبر الوشم في منطقة الصدغين لعلاج وجع الرأس، وسمّوا ذلك دق الصابر ، ويريدون بالصابر الصدغ .

- أمراض جلدية :

وهي أمراض وآفات تصيب الجلد، يرجع بعضها إلى أسباب فيروسية و جرثومية و طفيلية ، ومنها ما هو من منشأ نفسي أو مناعي ، وبعضها من الأمراض المشتركة التي تصيب الإنسان والحيوان، ولم تكن الثقافة الطبية الشعبية تقف عند تلك الأسباب بمقدار وقوفها على أعراض تلك الآفات وطرق علاجها ، ومن أهمها :

- الحَزَازَة : هي نوعٌ من الأكزيما الجلدية، تصيب مناطق مختلفة من الجسم، تكون على شكل دوائر صغيرة أو خطوط يغاير لونها لون الجلد غير المصاب، وسميت حزازة «لأنها تتشكل على الجلد على شكل حزوز متقاطعة، تؤدي إلى الحكة الشديدة »[١٤]، ثم إنّها تكبر وتتسع ما لم تعالج وتنتقل إلى مساحات أخرى في الجسم .

ومن طرق علاج الحزازة في الممارسة الشعبية : تحديد محيطها الخارجي وفصلها عن الجلد السليم بطرف حبّة شعير، ويتم تطرية الجزء المصاب وفركه ودعكه بلعاب المصاب صباحاً ومساء، ومن الطرق الأخرى التي تستخدم هرس «الأرضة»، وهي دودة بيضاء شبه النملة تظهر في الربيع والصيف على وجه الحزازاة وفرك عصارة سائلها فوق الجلد المصاب عدة مرات ولعدة أيام، ومن خلال التجربة كان هذا العلاج يعطي نتائج إيجابية، ويؤدي إلى الشفاء من الحزازة .

- الشَّرَى : مرض يظهر على شكل درنات تؤدي إلى سماكة جلدية تثير حكة شديدة في أنحاء الجسم، وينشأ الشرى بسبب حساسية بعض الأشخاص تجاه بعض الأطعمة ، ولهم طرق عديدة في علاجه ترتكز على المعرفة والتجربة الشعبية، ومن ذلك : قدح شرارة قدّاحة دون إشعال نارها في وجه المصاب، اعتقاداً أنّ انطفاء هذا الشرر يؤدي إلى انطفاء الشرى ، وأحياناً يكون علاج الشرى بالكي الخفيف ، ومن الطرق الغريبة عندهم في علاجه شرب ماء البلّاش – وهو الرجل الذي بذمته دم رجل آخر – إذ يضع أصبعه في إناء ماء، ويحركه ويشرب منه المصاب بالشرى، فيشفى ويبرأ كما يعتقدون .

- الكَجَل : داء يصيب فروة شعر الرأس واللحية، ويعرف طبياً بالثعلبة، ويكون الكجل واسعاً الانتشار في الجسم أو محدوداً ، ولا يعد من الأمراض المعدية، ومن طرق علاجهم للكجل والثعلبة : تبذيح الجلد المصاب بإبرة ليخرج منه الدم، ثم يفرك بخلطة دوائية معينة أو بمزيج الثوم والليمون عدة أيام، ما يؤدي إلى الشفاء وظهور الشعر من جديد، ومما يروى أنّ الكجل إذا نشأ من سبب نفسي قد يزول إذا زالت الأسباب التي أدت إليه ويختفي .

- البجل : وهو داء جلدي يصيب جلد الأعضاء التناسلية للذكر أو الأنثى، وينشأ على شكل بقع، وينتج كما يبدو من العلاقات والاتصالات الجنسية غير النظيفة، ومعروف أن هذا المرض ينتقل بالعدوى لذلك يعد من الأمراض المخيفة وطريق علاجه غير واضحة، وربما استخدموا الكي في ذلك .

- المُرَبّية : هي الاسم الذي يطلقونه على مرض اللاشمانيا أو ما يسمى حبة حلب أو حبة السنة ، وينتج عن عدوى طفيلية تنقلها أنثى ذبابة الرمل المصابة بالطفيلي الذي هو سبب اللاشمانيا ، وكانوا يطلقون مصطلح المربية على اللاشمانيا في عامية الجزيرة من الربو والكبر ،لأنها تبدأ حبة صغيرةً ثم تكبر وتنمو وتتسع ، ويمر هذا المرض بعدة أطوار منها طور الكمون وحضانة البيوض، ثم بروز حبة على سطح الجلد سرعان ما تكبر وتنفجر وتلوث ما حولها، فتتسع وتحفر الجلد، وتشوه الجزء المصاب، ولم يعرف أهل البادية طريقة محددة لعلاج اللشمانيا، فكانوا يتركونها دون علاج حتى تتراجع بفعل مناعة الجسم .

- الثآليل : ومفردها ثألولة وثؤلل ، وهي كتلة

صغيرة تظهر على سطح الجسم في مواضع مختلفة، يتشقق سطحها الخارجي[١٥]، وتعد من الأمراض المعدية ، وللعامة اعتقادات في تفسير سبب الإصابة بالثآليل ، فمن ذلك اعتقادهم أنّ عدّ نجوم السماء ليلاً يؤدّي للإصابة بها ، ومن طرق علاجهم لها أنّهم كانوا يشدون محيط الثألولة بخيط رفيع من شعر ذيل حصان ،حتى تجفّ وتموت ، ومنهم من يُقطّع رئة ذبيحة إلى أجزاء صغيرة ثم يذهب بهذه الأجزاء وقت غروب الشمس ليدفنها في حفرة تحت شجرة شوك، ومن الطرق الشعبية المتداولة علاجهم الثألول بالمادة الحليبية البيضاء التي تخرج من ثمرة التين قبل نضجها ، وهذه الطريقة تحقق نتائج إيجابية في كثير من الأحيان .

- المُكتَويَة : وهي التهاب فيروسي يؤدي إلى انتفاخ وحرقة كاوية تحت الجلد ، ومن هنا جاءت دلالة اسمها، وتصيب المكتوية عدة مواضع في الجسم، ولهم طريق عامة في علاجها أبرزها الكي بالنار باستخدام إبرة أو مخاط فوق موضع الإصابة .

- الدَّمَامِل : مفردها دُمَّلة ، وتكون على هيئة كتل مختلفة الأحجام ، تنشأ تحت الجلد ثم تبرز إلى الأعلى ولها رأس يحتوي على قيح أصفر اللون، ويسود الاعتقاد لدى أهل الجزيرة أنّ الدمامل تنشأ نتيجة مرض آخر ، ولهذا يسمونها «تناصيح» دلالة على الشفاء ، ويكون علاجها بفقئها وإخراج محتواها من القيح وتنظيف مكانه ، وفي الحالات التي لا يبرز فيها للدملة رأس كانوا يصنعون لبيخة من مادة السكر والعجين أو شرائح القمردين أو الصابون المهروس ، ويربطونها فوق موضع الدملة يوماً أو أكثر، فيبرز لها رأس أصفر اللون ثم تبزل، ويعصر قيحها بإبرة أو عودٍ نظيف .

- فطور الأقدام : وهي شقوق تصيب باطن الأقدام وأصابعها ونهاية كعبي القدمين على شكل شقوق وتبذحات ، تؤدي إلى تقشر الجلد وإحساس شديد بالحرقة والحكة .

وقد تنشأ الفطور عن عدوى فطرية نتيجة السير الحافي لتدخل العدوى من خلال شقوق الجلد ، وكان من طرق علاجهم تذويب قطعة من شحم الإلية وقطر دهنها في ثلمات تلك الفطور ، ولهم طرق أخرى للعلاج منها غسل الأرجل بالماء الساخن وفركها بالملح وتجفيفها وإبعاد الرطوبة عنها .

- **البَرَص :** وهو البُهَاق ، وهو مرض وراثي مناعي ، وفي اعتقادات الناس أنّه ينشأ عن تناول أطعمة ملوثة بسم بعض أنواع السحالي التي تسمى بريعصيات ، بالرغم من الحساسية الاجتماعية لهذا المرض فلم يعرف له علاج شافٍ إلى اليوم بالرغم من شفاء بعض الحالات الفردية ، وكان من طرق علاجهم استخدام بعض خلطات الأعشاب والحشائش والمراهم ، وغالباً ما يقع المصابون بهذا المرض تحت استغلال الدجالين والمشعوذين ومدعي المعرفة الطبية .

- **الجَرَب :** وهو من الأمراض المعدية التي تصيب الإنسان والحيوان على السواء، لذلك فإنّ إحدى طرق علاجه في الثقافة الشعبية تقوم على عزل المصاب عن الآخرين، ويسمون عملية العزل بالحجال، وكان أهل الجزيرة قد استخدموا مادة القَطران لعلاج المصاب بالجرب، وهي من المواد التي استخدمتها العرب منذ عهود بعيدة، ثم إنّ الجرب أصبح الآن من الأمراض النادرة .

- **المَشَق :** وهو تشقق جلد ظاهر اليدين وسطح القدمين، يظهر في فصلي الشتاء والربيع ، بسبب الرطوبة التي يتعرض لها الجلد وعدم تنشيفه ، ويؤدي إلى نزف دموي خفيف وحرقة وحكة شديدة ولا سيما في الليل ومن أساليب علاجهم طلاء الجلد المصاب بالسمن العربي لتطرى ، وغسلها بالماء الفاتر ، وتنشيفها جيداً وارتداء الجوارب والقفازات الصوفية.

للبحث صلة.

الهوامش :

١. المنجد : حصب .

٢. النصبة : آلة ري بدائية تنصب على ضفاف الأنهار وتديرها الحيوانات. العصبة : منديل من حرير يُلف حول الرأس .

٣. ديوان العتابا : أحمد شوحان ، ص ٣٦٢، الصيرة : سياج من شوك. البصيره : المعرفة والخبرة. الحساوي : ضرب من الثياب. البصيره الثانية: الاسم الحالي لمدينة قرقيسياء ،وقد يراد بها مدينة البصرة. حاود : راود .

٤. ديوان العتابا : أحمد شوحان ، ص٣١٤ ، وفنون المأثورات الشفاهية في الجزيرة : ص٩٧ ، يا عين : الصوت والعواء. ويا عين الثانية : من الأنين والألم. ويا عين الثالثة : العين .

٥. الحيوان : ٣٠٨/٣ .

٦. الحيوان : ٣٣٤/٥.

٧. القاموس المحيط : ذرح .

٨. لسان العرب : ذرح .

٩. ديوان العتابا : أبناء الفرات ، ١١٧/١ ، والهم : الهم. والهم الثانية : من التهام الدواء. والهم الثالثة : المتاعب. ولفى : أتى. وعفا : درس وهلك .

١٠- لسان العرب : خرع .

١١. الجبر : فئة من السيّاد يطلق عليهم الجبر الشدّة. وهم من أفخاذ عشيرة المعامرة .

١٢. الحيوان : ١٧٨/٦ .

١٣. المنجد : رعص .

١٤. المنجد : حزز .

١٥. المنجد : ثأل .

المصادر والمراجع :

١. الحيوان : الجاحظ ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار إحياء التراث العربي ، ط٣ ، بيروت ١٩٦٩ .

٢. ديوان العتابا : أحمد شوحان ، مكتبة التراث ، ط١ ، دير الزور ١٩٨٥ .

٣. ديوان العتابا : أبناء الفرات ، مطبعة الترقي ، دمشق .

٤. فنون المأثورات الشفاهية في الجزيرة : أحمد الحسين ، وزارة الثقافة ، ط١ ، دمشق ٢٠٠٥.

٥. القاموس المحيط : الفيروزآبادي ، مؤسسة الرسالة ، ط٦، بيروت ١٩٨٨ .

٦. لسان العرب : ابن منظور ، دار صادر، بيروت .

٧. مقدمة ابن خلدون : دار القلم ، ط٥ ، بيروت ١٩٨٤ .

٨. المنجد : دار المشرق ، ط٣٥ ، بيروت ١٩٩٦ .

دلائل التوقيت عند بدو سورية والعراق والجزيرة العربية

د. علي عفيفي علي غازي

ترتبط حياة البدو في شبه الجزيرة العربية بالشمس والنجوم، إذ يستدلون بالشمس للتوجه في النهار، والنجوم للتوجه في الليل، ولا يشعرون بالحاجة إلى البوصلة أو الساعة أو أي وسائل أخرى، فبوساطة النجوم يستطيعون أن يُحددوا التوقيت ليلاً، ومن خلال ذلك يُحددون الصلوات الليلية، الرعي، الإغارة، الحراسة، النوم، الاستيقاظ، الصوم. إذ يذكر الرحالة الإيطالي جورجو غوتشي Giorgio Gucci أنهم «يمتنعون عن الطعام والشراب النهار بأكمله من الفجر وحتى ظهور النجمة الأولى، وعند رؤية النجوم يأكلون ويشربون»[1].

يُدرك البدو أموراً كثيرة بالسليقة، فالبدوي ذكي فطن حاذق؛ مُلم كل الإلمام ببباديته، قادر على استكناه الغوامض، التي قد يستعصي فهمها. والبدو يعرفون طبيعة الصحراء، وطرقها ومغاورها، بالرغم من تشابهها، فحياة التنقل والترحال الدائمة دفعتهم لمعرفة دروب البيداء، ومعرفة النجوم للاستدلال بها

١- جورجو غوتشي: رحلة إلى المشرق العربي أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، شيرين إيبش (ترجمة)، أحمد إيبش (تحرير وتعليق)، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠١٠)، ص ٦١.

في أسفارهم، ولديهم معرفة وخبرة بالفلك والنجوم؛ ومطالعها وأفولها، وتأثيرها في الإنسان والحيوان، وأثرها في تقلبات الجو، وطول النهار وقصره، وظهور الأعشاب والنباتات وتغير الفصول، فظهور نجم معين يفهمون منه حلول فصل الربيع أو الخريف؛ مما يستعينون به على معرفة اتجاههم، ويُراقبون سير النجوم، ويتخذون منها أدلة في رحلاتهم[٢]. يؤكد ذلك الرحالة الدنماركي كارستن نيبور Carsten Niebuhr بقوله: «حاول بعض الرحالة إقناعنا أن العرب البدو يستعينون بالبوصلات خلال رحلاتهم في الصحراء؛ غير أنني لم أجد ما يُثبت ذلك. فحين رأوني أحملها سألوني عن سبب استعمالي لها، فأجبتهم إنه ساعة تُحدد موقع القبلة، أي مدينة مكة (المكرمة)، ولهذا السبب، كانوا يقصدون منزلي للاستعلام عن وجهة القبلة كلما أرادوا الصلاة. فهؤلاء العرب، يتنقلون دومًا في الصحراء، ويعرفون الطرقات جيدًا، ويستعينون ليلاً بالنجوم، فلهذا السبب لا يحتاجون للبوصلة أبداً»[٣].

يذكر الرحالة الدبلوماسي الفرنسي لوي جاك روسو Louis Jacques Rousseau أن البدو يعرفون جيدًا السير في هدى النجوم، واعتبرهم من هذه الزاوية أفضل الراصدين للطبيعة، إذ أخبروه مقدمًا أكثر من مرة عن تغيير الأجواء بدقة، كما يُشير إلى أنهم يعرفون ساعات الليل استدلالاً من ظهور النجوم وغيابها، وكذلك ساعات النهار بأن يُمسكوا باليد اليُمنى عودًا بين الإبهام والسبابة بشكلٍ عمودي، بينما تكون الكف ممتدة أفقيًا باتجاه السماء، فيقع ظل النبات على مفاصل الأصابع فيقدّرون عدد الساعات، التي مضت منذ شروق الشمس[٤]. يُشير الرحالة الفنلندي جورج والين George Wallin إلى أن أهل منطقة الجوف، يروون البساتين ومزارع النخيل ليلاً، ويُخصص لكل بستان عدد من الساعات وفق مساحته، يجر فيها الماء إليه، وهذه الحصة تُحددها في النهار مواقيت الصلاة، وتُحدد في الليل بوساطة النجوم[٥]. ويُحاول الدكتور الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف Leonhart Rauwolf تفسير سبب براعة البدو في معرفة الفلك والنجوم؛ أن ذلك يرجع إلى نومهم في الفضاء الصحراوي المفتوح، في العراء من دون سقف يحميهم، وهو ما يجعلهم يتمعنون بتأمل فيما تحفل به السماء، وبهذا أصبحوا يعرفون من مشاهدة النجوم ساعات الليل، والوقت الذي ينبغي لهم أن يستيقظوا فيه[٦].

يقسّم البدو النهار حسب مواقع الشمس إلى عدد من المقاطع الزمنية، فيبدأ يومهم بالغبشة أو الجهمة، وهي قبل طلوع الفجر، فإذا ما بزغ الضوء، ولا تزال جميع النجوم ظاهرة، يُسفر الصبح؛ فيقولون: «شق عمود الفجر»، فإذا ما ظهر الشفق الأصفر، ولا تزال نجوم المرزم والسهيل والظهرة تبدو في الأفق، فإن النور قد شع، وتُسمى نهاية هذا المقطع الزمني «وقت تمييز الذئب عن الكلب»، وإذا ما شعت الشمس، يُسمى هذا الوقت «صلاة العاجز»، تليها «صفرة الصبح». وإذا ما

٢- مكي الجميل: البدو والقبائل الرحالة في العراق، (بيروت: دار الرافدين للطباعة و النشر والتوزيع، ٢٠٠٥)، ص ٥٤ ، ٥٥؛ شفيق عبد الجبار الكمالي: الشعر عند البدو، (بيروت: كتب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢)، ص ٤٢.

٣- كارستن نيبور: رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، الجزء الثاني، عبير المنذر (ترجمة)، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٧)، ص ١٨١.

٤- لوي جاك روسو: رحلة إلى الجزيرة العربية سنة ١٨٠٨، بطرس حداد (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠١٠)، ص ٦١.

٥- سمير عطا الله: قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية والخليج، (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٤)، ص ١٨٢، ١٨٣؛ عوض البادي: الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية (منطقة الجوف ووادي السرحان) ١٨٤٥-١٩٢٢، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢)، ص ٢٣.

٦- ليونهارت راوولف: رحلة المشرق إلى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين، سليم طه التكريتي (ترجمة)، (بغداد: منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٧)، ص ٢١٠.

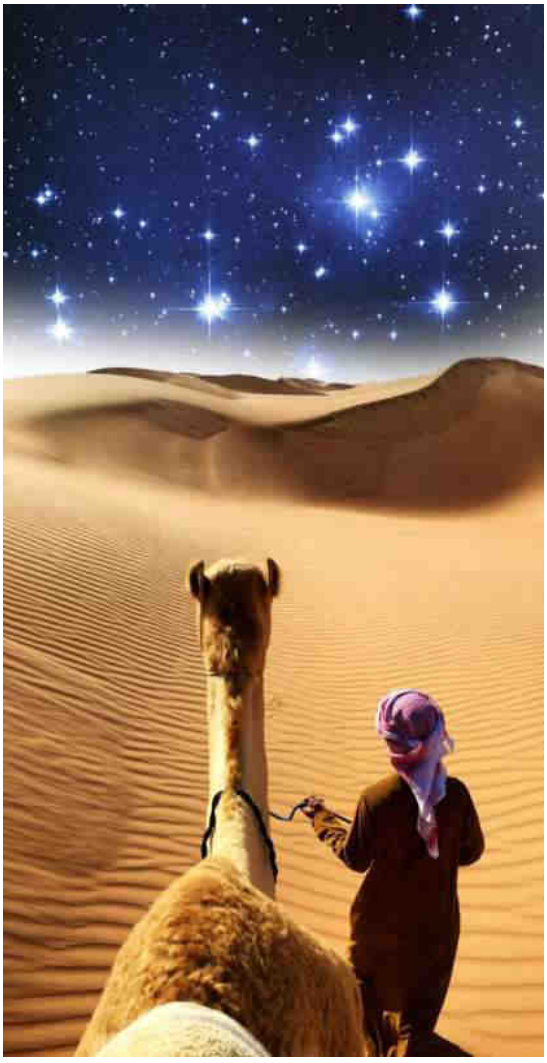

أشرقت الشمس على الديرة تُسمى «طلعة الشمس»، فإذا ما ارتفعت رمحًا، يقولون «الشمس طول الرميح»، فإذا ما بلغت رمحين، تُسمى «شريق»، وما قبل الظهر يُسمى «أضحية»، ويليه وقت الضحى، وقرب الظهيرة يُسمى «سنود القايلة»، وتليه القايلة أو الظهيرة، وبعد الظهر فترة ما بين الصلاتين: الظهر والعصر، أما وقت العصر فهو الوقت الممتد من بعد العصر، الذي يكون فيه طول الظل ضعف صاحبه، وحتى اقتراب الشمس من المغيب، أما وقت الغروب فهو وقت صلاة المغرب، فإذا ما ولد نجم الزهرة، سُميت الصفرة، وإذا ما اختلط الظلام بالضوء تظهر النجوم الكبيرة، فإذا ما غاب وقت الشفق، تدخل العتمة، ويبدأ وقت العشاء، ونهاية هذا المقطع الزمني «العشا العتيم»، أي قبل منتصف الليل، ويطلقون على الجزء الأخير من الليل «تال الليل»[٧].

يعرف البدو عدد من النجوم، وهي الثريا، والدبران، والجوزاء أو الميزان، والبربارة، والشِّعْرى، والسِّمَاكان، والمِرْزَم، والسماك الرامح أو الأعزل، وسُهيل، والسعّالة، أي نجمة الصُّبح، والزهرة، والعقرب. ويقول البدو: تطلع الثريا أولا أول الصيف قبل الفجر، وبعد ذلك بأربع عشرة ليلة تطلع البربارة، وبعد ذلك بخمس وعشرين ليلة تطلع السماكان والمرزم، وبعد طلوع البربارة بأربع عشرة ليلة، أي في أول الخريف يطلع سُهيل من الجنوب، وتدوم هذه الأنجم في الفلك عشرة أشهر قمرية، وعشرين يومًا، إلى أواخر الربيع، ثم تبدأ في الغياب الواحد بعد الآخر، فتغيب ٤٠ يومًا، ثم تعود إلى الظهور بالترتيب السابق بدءًا بالثريا. أما العقرب عندهم فأقسام، وتُعرف بأسمائها من الغرب إلى الشرق: التربية، اليدان، خشم العقرب، القلب، ذيل العقرب، الشولة، وهي آخر الذيل[٨].

يعتقد الرحالان الفرنسيان جوسان وسافينياك أن معلومات البدو عن النجوم «بدائية للغاية»، فهم يعرفون المجموعة النجمية «العقرب»، وتتكون من عدة نجوم يعبرها القمر، وتكون فيها للقمر منازل أو محطات. وفي الليلة السابقة يوجد القمر في «الشولة»، وهو الاسم الذي يُعطى للنجمين اللذين يوجدان في الذيل. ويقول البدو: عند ظهور الشولة «التنهدات أكثر قوة تحت الخيام، ويتفرق العربان». وعند خروجه من العقرب يعبر القمر البلدة، وهي فضاء خال

٧- جوهن جاكوب هيس: بدو وسط الجزيرة (عادات، تقاليد، حكايات وأغان)، محمود كبيبو (ترجمة)، محمد سلطان العتيبي (تقديم)، (بغداد: دار الوراق للنشر المحدودة، ٢٠١٠)، ص ١٣٣،-١٣٥.

٨- رفعت الجوهري: شريعة الصحراء عادات وتقاليد، (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،١٩٦١)، ص٤٠.

تُحيط به دائرة من النجوم. أما المجموعة النجمية «الثريا» فإنها تتكون من خمسة نجوم كبيرة، وعدد من النجوم الصغيرة، ويتبعها نجم يُسمى «التويبع»، وهو يُماثل «الدبران» في مجموعة الثور. ويحزن البدو عند ظهوره، حيث تجف الغدران، وتُصبح الحرارة غير محتملة، وتهب الريح الساخنة، والنجم رقيب «الدبران» هو القلب. أما المجموعة النجمية المعروفة باسم «الجوزاء» فإنها تحمل النجوم الثلاثة، التي تُشكِّل الرأس اسم «هقعة»، وهي إحدى منازل القمر، ورقيب الجوزاء هو «الشولة». أما المجموعة النجمية «الشِّعْرى»، فهي معروفة لدى البدو، وكذلك «العذراء»، وله نوء يستمر عشرة أيام، وهو أول المطر، وثمة مثل بدوي يقول: «عندما يأتي السماك (العذراء) يختفي اللكاك (الريح المحرقة) السهيل»[٩].

ترتبط معرفة البدو بالنجوم والفلك، بموسم الأمطار، إذ يُشير الرحالة الألماني مارسيل كوربر شوك، إلى أن مرافقه كانت لديه أنباء عظيمة، ذلك أن النجم «الخامس من النجوم السبعة في الدب الكبير شوهد فوق الأفق في نهاية الليل، وكان ذلك يعني أنه في غضون ٢٥ يومًا سيطلع «الوسمي»، أو انتشار نجوم سُهيل والثريا والجوزاء: إنه الخريف العربي. وإذا كان هناك مطر غزير، وخاصة وقت ظهور الثريا، فإن عُشب الصحراء، والنباتات الحولية تبلغ ذروة تفتحها، ويمكن للإبل أن ترعى في الحقول حتى قبل أن يبدأ الشتاء. وأمطار الخريف ضرورية؛ لأن أمطار الشتاء الوفيرة وحدها لا تكفي، في هذه الحالة يذبل العُشب في شمس الربيع الحارة قبل أن يكتمل نموه»[١٠]. ويبدأ موسم الترحال السنوي عند البدو من أواخر شهر أكتوبر، إذ يحل موعد المطر، وتبدأ الغيوم الصغيرة بالتجمع، ومرة أخرى يدب النشاط في حياة البدو، إذ يُصبح نجم سُهيل ممكن الرؤية عند الأفق الجنوبي، وهذا يعني نهاية صيف رهيب بالنسبة للبدو، وتقل حاجتهم وحاجة مواشيهم للماء[١١].

يعتقد البدو أن الهلال هو الذي يجلب المطر، فحالما ينتهي موسم المطر يمتص الهلال الماء من البحر العظيم في قطرات متناهية الصغر، ويصف الهلال هذه القطرات صفوفًا متماثلة، ويصوغ منها أبخرة وسحبًا خفيفة (غيم) في موضع ما بعيد، ثم لا يكاد النجم سُهيل يبدو في الأفق في الخريف، حين لا يكون لدى البدو ماء لهم، ولا مرعى لقطعان ماشيتهم، فيُرسل الله الملك إلى الغرب الأقصى، فيأمر القطرات أن يلتئم بعضها مع بعض، وهكذا تؤلف السُّحب الداكنة، فيجرها إلى الشمال حيث يُصفدها بالسلاسل، ثم يُضيف إلى هذه السُّحب سُحبًا صغيرة (غيم) أكثر، فتضحي السُّحب كثيفة، وأخيرًا يستاقها أمامه، وهو قابض على العصا (المحجان)، الذي يسوق به مطيته فوق أراضي البدو، ويأمرها أن تُسقط أمطارها على الصحراء، التي سفعتها الشمس بأشعتها، وإن قاومت أي سحابة هذا الأمر، ضربها الملك بمحجانه مُحدثًا البرق والرعد، فتتخلى السحابة الوجلة حينئذ عن كل ما تحمله من مياه، ثم تتبدد وتتلاشى. وأحب الغيوم إلى البدو ما يُسمى «السحابة» أو «السحاب»، وهي رمادية كثيفة يصفر لونها، لا تتبدد حتى تُمطر. و«المزنة» صغيرة بيضاء، تنضم إليها سحب كثيرة أخرى شبيهة بها، فترتفع السحابة الكبيرة الناتجة عن ذلك، وتسود بعض أجزائها، وتلمع البروق في حواشيها، وتزمجر بالرعود، ثم تثمر مطرًا غزيرًا. وعندئذ يقول البدو: «أنت مزنة الغرا اللي غشانا هللها، وأهلي بك هلوتين، هلوة الأرض ببلالها». أي:

٩- جوسان وسافينياك: «أعراف قبيلة الفقراء (٦)»، محمود سلام زناتي (ترجمة)، مجلة العرب، الجزء ٧، ٨، السنة ٢٨ (يوليو - أغسطس ١٩٩٣)، ص ٥٠٠- ٥٠١.

١٠- مارسيل كوربر شوك: البدوي الأخير، القبائل البدوية في الصحراء العربية، عبد الإله النعيمي (ترجمة)، (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٣)، ص ٤٥.

١١- ديكسون: عرب الصحراء، (بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩٦)، ص ٤١-٤٣.

أنت أيتها المزنة الغراء، التي قد أدهشنا مطرها، نرحب بك ترحيبين؛ كترحيب الأرض ببللها[١٢].

تبدأ السنة عند البدو مع أول مطر غزير بعد ظهور النجم «سُهيل» في أوائل أكتوبر، ويقولون: «طلعة السُّهيل نشرّق»، أي لقد أرانا سهيل نفسه؛ فلنمض إلى الصحراء الداخلية، بعد أن يبرحوا حدود المناطق المأهولة والمزروعة مع ما يملكون انتجاعًا للكلأ والمراعي. ومُدة سُهيل أربعون ليلة، وبعدها الثُريا، ومدتها خمس وعشرون ليلة، ثم تتبعها الجوزاء ومدتها كمدة الثريا. ويُسمى هذا الفصل «الصفري»، ثم تدخل الشِّعرى، وتلبث أربعين ليلة، وهذا الفصل يُسمى الشتا، وبعده يدخل السماك، ويظل خمسين ليلة، ولكن في منتصف أبريل ينتهي حكم النجوم، ثم يدخل الصيف، الذي يستمر حتى بداية يونيه تقريبًا، ثم يخلفه الفصل الجاف «القيظ» ممتدًا أربعة أشهر حتى نحو أوائل أكتوبر. وهكذا يعرف البدو للعام فصولا خمسة: الصفري: تسعون ليلة «من أول أكتوبر إلى أول يناير». والشتاء: أربعون ليلة إلى نحو من ٢٠ فبراير. تتبعه فترة تُسمى أحيانًا الجزء الثاني من الشتاء، وتنتهي في الرابع من مارس تقريبًا، ثم السماك: خمسون ليلة، أي تمتد إلى منتصف أبريل. فالصيف إلى أول يونيه، ثم أشهر القيظ الأربعة[١٣].

يقسّم البدو الأمطار إلى: الوسم الشتوي، والسماك الصيفي، ويتضمن الأول أمطار السهيلاوي، والثروي، والجوزاوي، أي أمطار سُهيل، والثريا، والجوزاء. وحالما يظهر سُهيل يُغادر البدو مخيماتهم المقامة في الأودية، وفي بطون الشعاب الواسعة الجافة. وبعد سقوط أمطار وفيرة في أعالي الأودية، يندفع الماء عبر القنوات، حاملا معه المخيمات، ومفرقًا الجماعات: البدو وماشيتهم، فيقولون: «ليا طلعت السهيل؛ لا

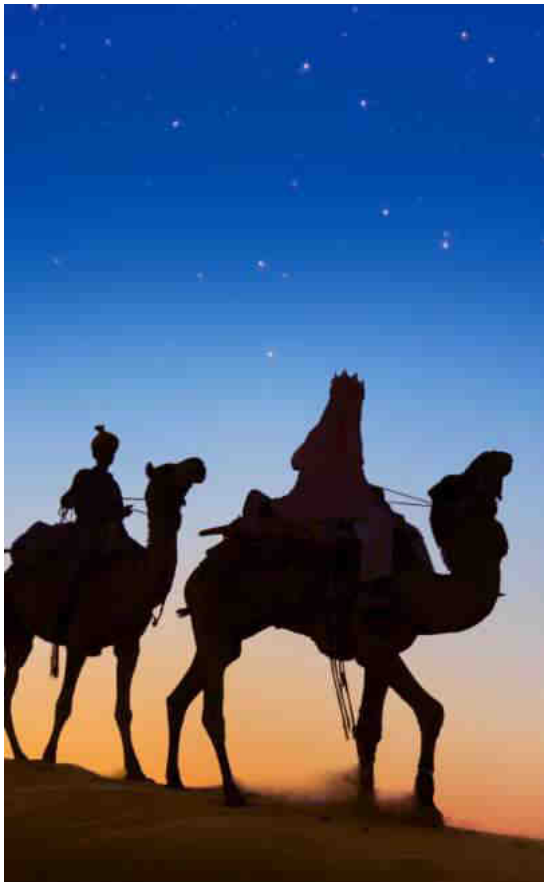

تأمن السيل، وتلمس التمر بالليل»، لأن التمر يكون ناضجًا، ولا حاجة للانتقاء. وإذا تشربت الأرض بالمطر «أرض موسومة عليها الخريف» فإنها تتفتق عن وريقات النباتات الحولية الصغيرة ذات الخُضرة الشاحبة. وإذا كان الوسم الثروي، أو مطر الثريا وفيرًا؛ فإن النباتات تبلغ أقصى نمو لها، وترعى الإبل عشبًا جديدًا حتى قبل حلول الشتاء. والوسم الثروي أهم الأمطار، فهو العامل الحاسم للرعي، ويضمن المطر الجوزاوي الوافر الممتد على مناطق واسعة نمو الأعشاب والأشجار، ويطرد شبح الجوع، ويأتي أحيانًا بعده مطر يُدعى «التويبع» في وقت ظهور الدبران، فيتم الخصب الذي جلبته أمطار الجوزاء. ولا يضمن المطر الشتوي، الذي يُسمى النقضان، نموًا جيدًا للأعشاب، إن لم تكن قد نبتت بعد أمطار الوسم الشتوي[١٤].

١٢- ألويس موزل: «أخلاق عرب الرولة وعاداتهم»، محمد بن سليمان السديس(ترجمة)، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة ١٠ (المحرم ١٤٠٥)، ص١٣٥-١٣٨.

١٣- ألويس موزل: مرجع سابق، ص ١٣٩.

١٤- المرجع السابق، ص ١٤٠.

سوق السروجية من أقدم أسواق دمشق

أحمـــد بوبـــس

سوق السروجية واحد من أقدم أسواق دمشق. وهو أحد الأسواق التاريخية التي تقع خارج أسوار دمشق القديمة كسوق الخجا وسوق الخيل. وهو سوق مختص بصناعة سروج الخيل ولوازمها الأخرى، مثل اللجام والعنان (الرسن) والشكيمة، ثم دخلت إليه صناعات أخرى حسب تطور الزمن، مثل صناعة جعبات الخرطوش للصيد وغيره، وصناعة بيوت المسدسات الجلدية، في مرحلة أخرى، ثم دخلت عليه صناعة الأحزمة (القشط) والشوادر، وهي الآن الأكثر انتشاراً فيه، أما صناعته الأصلية السروج فأصبحت مقتصرة على ما يطلب منها للمسلسلات التلفزيونية، ولرياضيي الفروسية. وتحتل الآن القسم الأخير من دكاكينه المطلة على شارع الملك فيصل محلات بيع مواد التنظيف من صابون ومسحوق الغسيل وغيرها.

* موقع السوق :

يقع سوق السروجية شمالي قلعة دمشق، لا يفصله عنها إلا فرع نهر بردى (العقرباني)، ويحده من الشمال نهر بردى الأصلي. ومدخله من جهة الغرب مقابل جامع السنجقدار. وكان على يمينه حمّام الراس، لكن الحمّام زال، وتم قضم نحو عشرة أمتار من سوق السروجية، حين افتتح شارع الثورة عام ١٩٧١، وعُرِّضَ الشارع مقابل السوق من أجل ذلك، وزال معه سوق الخجا القديم وسوق الزرابلية.

ويسير سوق السروجية باتجاه الشمال الشرقي وفي آخره ينعطف قليلاً نحو الشمال لينتهي عند شارع الملك فيصل. وكان السوق مسقوفاً بالخشب الأمر الذي كان يهدد السوق بالحريق كما حدث لسوق الحميدية، فاستبدل والي دمشق ناظم باشا بسقفه الخشبي سقفاً من الحديد والتوتياء، كما فعل للأسواق الأخرى كسوق الحمدية وسوق مدحت باشا.

* لمحة تاريخية :

تختلف الروايات في تاريخ سوق السروجية، فمنها ما يقول إن عمره ٨٠٠ سنة، ومنها ما يقول إن عمره ١٢٠٠ سنة. وأقدم ذكر للسوق جاء في كتاب (نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق) لمؤلفه يوسف بن عبد الهادي المتوفّى سنة ١٥٠٣، حين يقول (سوق السروجيين غربي القلعة تُباع فيه السروج وآلة الخيل). وذكر السوق الرحالة الدمشقي نعمان القسطالي في كتابه (الروضة الغناء في دمشق

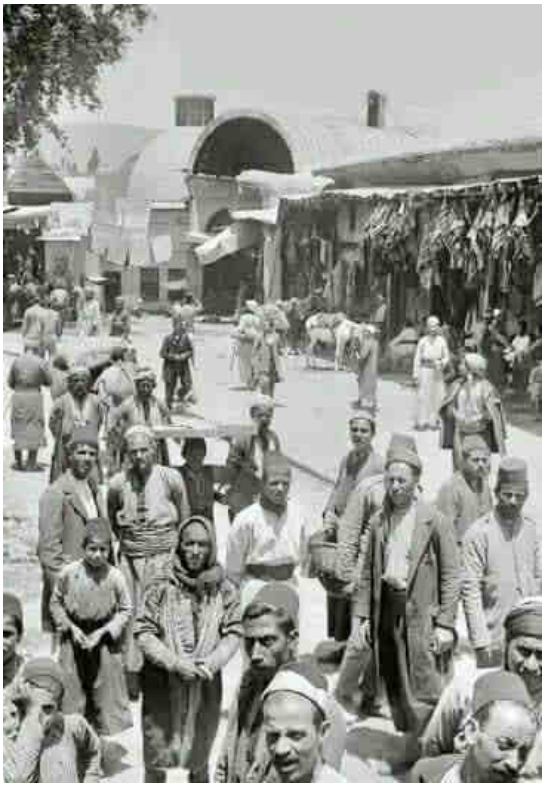

الفيحاء) الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٨٧٩ حين قال (سوق السروجية وتُعمل بها أدوات الخيل). كما ذكر السوق ثلاث مرات في كتاب (قاموس الصناعات الشامية) لمؤلفيه محمد سعيد القاسمي وجمال الدين القاسمي وخليل العظم الصادر بطبعته الأولى عام ١٩٨٨. المرة الأولى في الصفحة /١٨١/ حين قال(...ولهم سوق مخصوص مشهور يقال له "سوق السروجية» أمام جامع السنجقدار، ولصيقه حمام يسمى باسم السوق المذكور، وهو شمالي قلعة دمشق...)، وفي صفحة /٣٩٣/ يشير الكتاب إلى مهنة صنع الأكمار (مفردها كمر)، فيقول: (وهي حرفة رائجة تنتج ربحاً جيداً، ولها سوق مخصوص بدمشق في سوق السروجية...). وفي صفحة /٤٨٥/ يذكر مهنة (نطفجي)، وهو الذي يصنع ما يلزم للدواب، من أرسان وراسيات وسماطات وغيرها، ويقول: (وهذه الصنعة تابعة لصنعة السروجي،

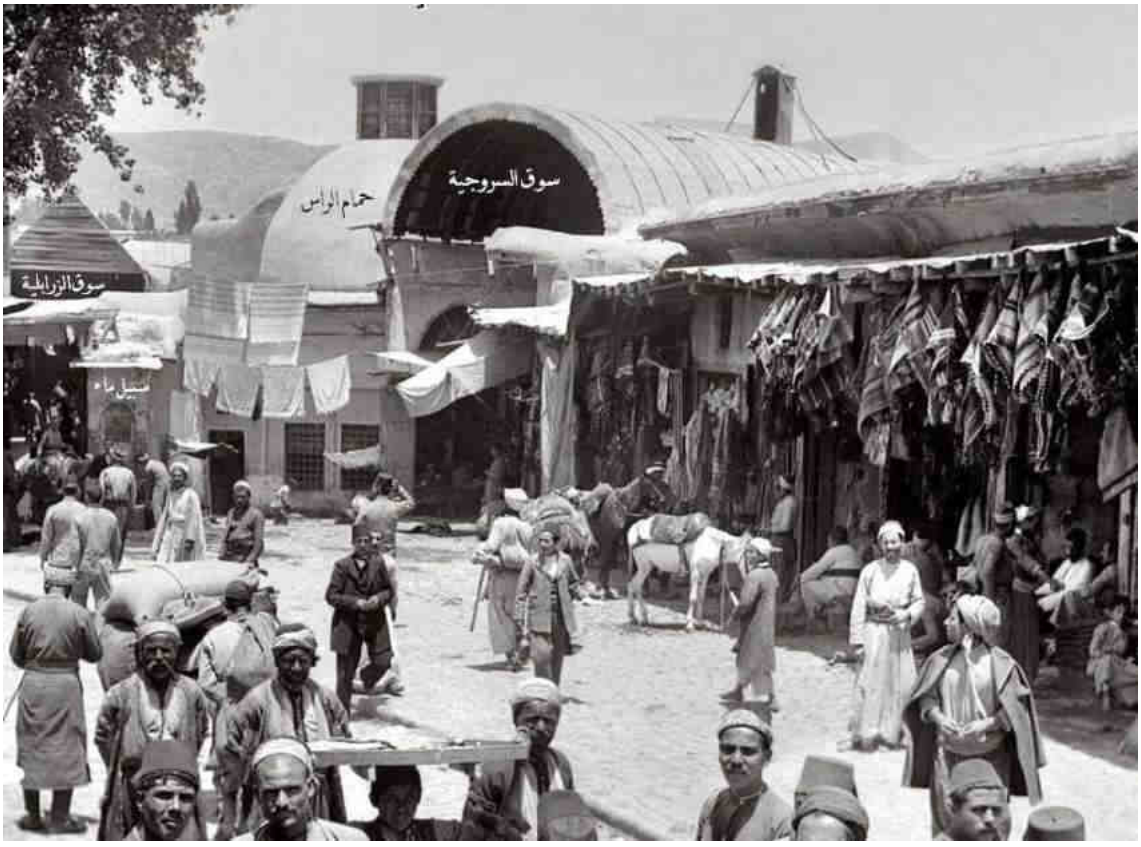

ويقـال لصانعها «نطفجـي»، ولهم دكاكين مخصوصة في سوق السروجية...).

ظهر سوق السروجية في عهد المماليك، بسبب الحاجة الماسة للمقاتلين لمقاومة الأعداء، وكان في بدايته متخصصاً بصناعة الأسلحة كالخناجر والسيوف ومطرات الماء وسروج الخيل. ثم تطورت مهمة السوق، فدخلته صناعات جديدة، ولا سيما بعد دخول الأسلحة النارية إلى دمشق كالبنادق والمسدسات، فظهرت صناعة بيوت المسدسات الجلدية وجعب خراطيش الصيد وطلقات البنادق التي تُشد على الخصر كالحزام، أو تُلبس كالسترة. ومع انطلاق حملات الحج التي كانت تُعرف بمحمل الحج في أيام الحكم العثماني، أضيفت إلى السوق مهنة جديدة وهي صناعة خيام الحجاج لاستخدامها كنزل للحجاج إبَّانَ أدائهم مناسك الحج.

ومن المهن المستجدة في السوق لوازم تزيين الخيول والعربات التي تجرها الأحصنة كالحناطير (جمع حنطور وهي وسيلة نقل الركاب قبل دخول السيارات) والطنابر. ولكن السوق لا يزال بحاجة إلى تجميل مدخله من ناحية الغرب، ليصبح بجمالية مدخل سوق الحميدية، وهذا أمر ضروري.

وكما أنَّ سوق السروجية سوقٌ تراثية في تاريخها ومهنها، فهو تراثي في أصحاب محلاته، فالكثير من محلات السوق ودكاكينه متوارثة ضمن أسر محددة، إذ تناوب على العمل فيها الأجداد ثم أبناؤهم وأحفادهم وهكذا...

* إعادة تأهيل السوق :

لم يجر ترميم سوق السروجية منذ إنشائه، مما جعله مهدداً بالسقوط، فقامت محافظة دمشق بإعادة تأهيله وترميمه، فجرى تدعيم جدران السوق

وتغطيتها بالكلس الأبيض، وتوحيد واجهات المحلات وأبوابها، وجرى رصف أرضية السوق بالحجارة البازلتية السوداء، الأمر الذي أضفى على السوق ملامح تراثية وجمالية إضافية.

مراجع للاستزادة :

١- كتاب (الروضة الغناء في دمشق الفيحاء) – تأليف نعمان قساطلي – دار الرائد العربي – طبعة ثانية – بيروت ١٩٨٢.

٢- كتاب (قاموس الصناعات الشامية) – تأليف محمد سعيد القاسمي وجمال الدين القاسمي وخليل العظم – دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – الطبعة الأولى – دمشق ١٩٨٨.

٣- كتاب (أسواق دمشق القديمة) – تأليف قتيبة الشهابي – وزارة الثقافة – دمشق ١٩٩٠.

أماكن النزهات بدمشق بين القرنين العشرين والحادي والعشرين:
من بستان التكش وجنينة المنشية إلى حديقة تشرين

نبيل تللو

فُطِرَ الإنسان على حبِّ الطبيعة والارتماء في أحضانها منذ القدَم، ففيها يتمتَّع ويرفِّه عن نفسه، ويُهرع إليها كلما ضاق صدره أو تعبت أعصابه، فيجد في رحابها وتحت ظلال أشجارها الوارفة الراحة والهدوء، ويشعر فوق مروجها ومسطَّحاتها الخضراء بالهدوء والسكينة، ويتنفَّس عبير ورودها وأزهارها، ويتشنِّف لخرير جداولها، ويسمع طيورها وهي تغرِّد فرادى وجماعات على الأغصان وفي الأجواء، ويشاهد قوس قزح في أفق السماء، فيتأمَّل عظمة الخالق عزَّ وجلَّ وبديع صنعه، ويشكره على نِعَمه الكثيرة التي لا تُحصى.

وينطبق هذا الوصف على الدمشقيين، الذين أحبوا النزهة والتنزُّه في المتنزَّهات الواسعة الأرجاء ضمن مدينة دمشق ومحيطها، هرباً من حياتهم الروتينية اليومية، غير أنَّ أماكن وأساليب وطرائق ممارسة هذا التنزُّه قد اختلفت كثيراً بين القرنين العشرين والحادي والعشرين، بحكم التطور العمراني واختلاف الإمكانات، وهذا ما سوف يتمُّ استعراضه في هذه المقالة، راجياً أن يتذكَّر كرام القارئات والقراء ما نسوه، وأن يتعرَّفوا ما لا يعرفونه، راجياً أن أكون قد قدَّمت لهم المعلومة المفيدة والمهمة.

ـ النزهات والسيارين بدمشق: مدخلٌ عام:

النزهة لغةً هي البعد عن فساد الهواء والماء، والخروج لترويح النفس من عناء الأشغال، ولاستنشاق الهواء النقي، وشرب الماء العذب، وهي أيضاً المكان البعيد، ومنها الفعل «تنزَّه» وهو الخروج إلى مكان النزهة، وتنزَّه عن المعاصي، و «النزاهة» وهو الشخص النزيه.

كانت معظم بيوت دمشق أوائل القرن العشرين متنزَّهات صغيرة، ففيها ماءٌ جارٍ، وأحواض نباتات مختلفة، وأصص أزهارٍ متنوِّعة، وهواءٌ نظيف، ومع ذلك فقد كان معظم الدمشقيين، يتنزَّهون خارج بيوتهم متحرِّرين من قيود جدران الغرف، وازداد الولع بحبِّ الطبيعة مع انتقال الأسر إلى البيوت الطابقية الصغيرة المساحة غالباً، بحكم التطوُّر العمراني واتساع مساحة مدينة دمشق منذ منتصف القرن العشرين، في فصول الربيع والصيف والخريف، سواءٌ الرجال وحدهم بمختلف فئاتهم العمرية: الأطفال والشباب والكبار، وكلُّ فئة وحدها، أو مع أسرهم، وكانت متنزَّهاتهم قريبة من بيوتهم، وتوزَّعت بين داخل مدينة دمشق وخارجها، وكانوا يذهبون سيراً على الأقدام، ومن هنا أتى اسم «السيران»، او في العربات التي تجرُّها الخيول، أو على الحمير، أو على الخيل، وفي مدّة أحدث استخدموا الباصات التي كان يُطلق عليها «الباصات الأهلية» لاشتراك عددٍ من الأهالي في امتلاكها وتشغيلها لمختلف ضروب النقل. كما استخدموا قطار النزهة الذي كان ينطلق من دمشق صباحاً، ويتَّجه نحو الربوة وبلدتي دمر والهامة، ومنهما إلى قرى وادي بردى: جديدة الوادي وبسّيمة وعين الخضرا وعين الفيجة ودير قانون والتكية، وصولاً إلى الزبداني وعين حور وسرغايا، ومنها إلى بلدة رياق اللبنانية حيث يكمل سيره إلى بيروت. أما استخدام السيارات الخاصة في النزهات فكان نادراً لقلة عددها في تلك الفترة، فمن كان يمتلك سيارة، كان يُنظر إليه على أنَّه من كبار القوم وله مكانة رفيعة خاصة.

ولتأكيد ولع الدمشقيين وعشقهم لهذه النزهات، أنقل هذا النص حرفياً من كتابٍ عنوانه: «دمشق ١٩٠٢» للكاتب الصحفي الروسي «ستيبان كوندوروشكين» المتوفَّى سنة ١٩١٩:

«في المساءات الدمشقية، تترك الحشود المدينة نحو البساتين والحدائق المنتشرة حول ضفتي نهر بردى وفروعه، في الحدائق يجلس الناس كما هي حالهم في المقاهي على الكراسي والأرائك، التي يحملها خادم الحديقة على عجلٍ إلى الوافدين مقابل رسم خاص، ويتحلَّق الناس حلقات بحكم المعرفة والقرابة. وبطبيعة الحال تبرز الحاجة إلى بعض المأكولات والمرطبات، وبالقرب من كلِّ حلقة يُغرز قضيبٌ معدني في الأرض يحمل فانوساً».

ـ أماكن النزهات داخل مدينة دمشق:

توزَّعت أماكن النزهات ضمن مدينة دمشق في أنحاء عديدة، وكانت مقصداً لنزهة الدمشقيين بمختلف فئاتهم وأطيافهم، وأشهرها:

ـ حديقة المنشية: «المنشية» لغةً من انتشى والنشوة، ومعناها الانبساط والسرور وانشراح النفس، فالمنشية هي مكانٌ لجلب السعادة والهناء واكتسابهما، وتُستعمل لهذا الغرض في أنحاءٍ كثيرة من الوطن العربي.

امتدت منشية دمشق نحو كيلو مترٍ واحدٍ على ضفة نهر بردى اليسرى أو الشمالية، من منطقة جسر فيكتوريا، حتى طلعة قصر الضيافة وما بعدها حتى ساحة الأمويين، غير أنَّ العمران قد انتشر فيها على مدى أعوام طويلة، ولم يبق منها الآن سوى حديقة الجلاء الصغيرة المساحة أمام «الثانوية التجهيزية» كما كانت تُسمَّى سابقاً، ثانوية جودة الهاشمي الآن، وفي طرفها «شعلة الجندي المجهول»، التي أُنشئت بمناسبة عيد الجلاء الأول سنة ١٩٤٧،

وعلى طرفها نُقشت هذه العبارة: «هنا يرقد شهيدٌ بذل دمه في سبيل سورية والعروبة»، ولكنَّ هذه الشعلة دون اشتعال منذ أن انتقلت إلى ساحة عدنان المالكي في الستينيات، ثم إلى ضريح الجندي المجهول في جبل قاسيون في الثمانينيات. ويليها حديقةٌ صغيرة ممتدة بين فندق «الفصول الأربعة» «فور سيزونز» حتى طلعة الشارع الذي يقود إلى شارع الجلاء المعروف باسم «أبو رمَّانة»، ولكنها لا تُستخدم مكاناً للنزهة كما كانت أيام زمان، وإنما لاستراحة عابري السبيل.

وإحياءً لذكرى هذه الحديقة، فقد أقام فندق «داما روز» (الميرديان سابقاً) مطلع القرن الحالي أحد مقاهيه في مكانها، وأطلق عليه اسم: «المنشية».

ـ بستان التش: نسبة لسلطان دمشق ومؤسِّس سلاجقة الشام الأمير «تتش بن ألب أرسلان» (من القرن العاشر الميلادي)، وبُسِّطَ الاسم إلى «تش»، كان هذا البستان الذي كان من ممتلكاته يقع في منطقة شارع ٢٩ أيار وعين الكرش، وكان مكاناً مفضَّلاً لنزهة الدمشقيين، وأتذكَّر أنَّ الآباء والأمهات إذا أردن تشجيع أولادهنَّ على فعل عملٍ جميل، أو ترك فعلٍ قبيح، فإنَّهم يعدونهم بأخذهم إلى «التش»، أي إلى النزهة في هذا البستان أو ما يشبهه، ولكنَّ هذا الأمر قد اندثر الآن، فالبستان أصبح عمارات، والنزهة انتقلت إلى أماكن أخرى، ولم يعد أحد يستعمل هذه العبارة.

ـ حديقة العائلات: كانت تقع عند مدخل شارع الحمراء من ناحيته الجنوبية، وأُزيل قسمٌ منها عند افتتاحه في السبعينيات، وتحوَّل الباقي إلى مرآبٍ لمجلس الشعب، وكانت زيارتها مقتصرة على النساء فقط وأولادهنَّ.

ـ بستان النعنع: يقع بين محطة الحجاز شرقاً، والتكية السليمانية غرباً، اكتسب اسمه لتوافر نبات النعنع فيه، اندثر كبستان، ومكانه الآن سوق الأدوات المكتبية ومرآب سيارات بالاسم نفسه.

كما كانت الأراضي المحيطة بالتكية السليمانية، وصولاً إلى ساحة الأمويين، على ضفتي نهر بردى، بين منطقتي الشرف الأعلى والأدنى، مكاناً مفضلاً للنزهات، وذلك قبل أن يُبنى المتحف الوطني ومعرض دمشق الدولي وجسر الرئيس حافظ الأسد، و كانت هذه المنطقة تُعرف أيضاً باسم: «صدر الباز» لشبهها بطائر الباز، أو «المرجة».

ـ السهم الأعلى: منطقة ذات مروج خضراء تمتد بين منطقتي الجسر الأبيض والميسات، على الضفة اليسرى أو الشمالية لنهر تورا، كانت مقصداً للدمشقيين للنزهة، غير أنَّها زالت بفعل التنظيم ووصول العمران إليها.

ـ ضفَّتا نهر بردى: كانت المتنزَّهات تمتدُّ على ضفَّتي نهر بردى، الذي كان رقراقاً عذباً غزير الماء، وليس كما هو الآن ليس أكثر من جدولٍ صغير لايكاد يجري فيه الماء العكر، بدءاً من منطقة كيوان غرب دمشق، حتى «الربوة»، و «الشادروان» عند تفرُّع نهر تورا عن نهر بردى، وهي كلمة فارسية الأصل معناها «الميزاب»، أي مسيل الماء، لوجود شلالات صغيرة فيه، و «دمر» و «الهامة». وأشهر هذه المتنزَّهات هو:

ـ متنزَّه الربوة: الربوة لغةً هي المكان العالي أو المرتفع، ولكنَّ الاسم يُطلق الآن على منطقة وادي الربوة فيما يلي جسر تشرين حتى الشادروان، وتشكِّل جانباً من الغوطة الغربية، تتميَّز بجمالها الذي يفوق الوصف، كما هو الأمر في كلِّ الأماكن المذكورة، لما فيها من «التخوت» على فروع نهر بردى قبل دخولها مدينة دمشق، والتخت هو مصطبة خشبية على ضفة النهر مغطاة بشادرٍ قماشي وأغصان أشجار، وهي مخصَّصة لجلوس المتنزِّهين مع دفع أجرٍ محدَّد، والفروع على ضفته اليسرى هما نهرا يزيد وتورا، وتتدفَّق المياه من الأول نحو الثاني على شكل شلالات، فتنتشر الرطوبة، في حين يسير نهرا الديراني والمزاوي على الضفة الأخرى، وضفاف مترعة بأبهى ما يصبو

إليه الإنسان من الخضرة والمياه الوفيرة والمناظر الخلّابة، والغياض بأشجارها المتعانقة الوادعة وأزاهيرها المنتشرة هنا وهناك. ولقد كان الدمشقيون يأتون إلى هذه الأماكن للتمتُّع بهذه الآيات من الجمال والبهاء، فينتشرون جماعات على هذه الضفاف، ويجلسون في التخوت، للتمتع بإطلالات رائعة على مقاسم نهر بردى وتوزيعاته، ويتقاسمون الفراشات وشقائق النعمان والعصافير، ويشمُّون النسيم العليل الذي يشرح صدورهم، وتقرُّ به عيونهم، وتنتعش بها حواسهم، بعد كدٍّ وجهد لتوفير اللقمة الهنية لهم ولعيالهم على تنوّع نحلهم في المعاش.

وبسبب جمال الربوة، فقد أقيمت على مدى سنوات طويلة على ضفتي نهر بردى مقاهٍ ومطاعم عديدة، منها مطعم «أبو شفيق» و «الوادي الأخضر»، وفيها ملاعب للأطفال، وتغصُّ كلها بالمتنزهين، ولا سيما في أيام العطل، إلى درجة حدوث اختناقات بالحركة المرورية في طريق الوادي، حتى بات بعض السائقين يفضّلون استخدام طريق جبل قاسيون أو طريق قصر الشعب، بدلاً من استخدام طريق الربوة الذي هو أقصر مسافةً.

ونظراً لما تسبِّبه المطاعم من تلويث لنهر بردى، فقد أعدَّت محافظة دمشق عدة مشاريع للمحافظة على بيئة الربوة، وكامل نهر بردى، سالمةً معافاة، ولكنّ هذه المشاريع ـ على أهميتها ـ حُفِظت في الأدراج بانتظار التمويل اللازم.

وبسبب الحرب التي يشنُّها الأعداء على سورية منذ سنة ٢٠١١، فقد تراجعت أعمال هذه المطاعم، وهو ما أدَّى إلى إغلاق بعضها.

يذكر أنَّه يطلُّ على الربوة صخرةٌ عالية إلى يسار القادم إلى دمشق اسمها «المنشار»، لأنَّها تشبه المنشار فعلاً، ولكن لها اسمٌ آخر متعارفٌ عليه هو صخرة «اذكريني دائماً»، لأنَّ أحد العاشقين لفتاة حسناء نقشها عليها قبل أن ينتحر من فوقها، لعدم تمكُّنه من خطبتها، ويتندَّر متنزِّهو الربوة بهذه القصة وهم يشيرون إليها، ولكنَّ هذه القصة ليست أكثر من قيل عن قال.

ـ نزهة المعرض: بعد افتتاح معرض دمشق الدولي سنة ١٩٥٤، أصبحت ضفة نهر بردى الشمالية، أو اليسرى، بدءاً من مدخله الشرقي قرب متحف دمشق الوطني، حتى ساحة الأمويين، مقصداً مفضلاً لنزهة الدمشقيين، و لا سيما في الفترة المسائية، نظراً لقرب المكان من الأحياء السكنية، يجذبهم لذلك رؤية الناس وهم يتدافعون لزيارة المعرض، وأنواره الباهرة، ونوافير الماء التي كانت تقام في نهر بردى، والموسيقا التي تصدح فيه، والأهم من هذا وذاك، الطقس الجميل أواخر الصيف وأوائل الخريف، الذي وصفته المطربة الشهيرة فيروز في إحدى أغانيها:

شآم أهلوك أحبابي وموعدنا

أواخر الصيف آن الكرم يُعتصر

وناهيك عن هذا كله، أنَّ المعرض بحدِّ ذاته قد شكَّل هدفاً لنزهتهم، وأصبحت زيارته طقساً لا بُدَّ من القيام به، للفوائد الكبيرة التي تعود بالنفع عليهم من ارتياده، ومشاهدة أحوال الدول المشاركة به، و لا سيما أنَّ التلفزيون وما يقدِّمه من برامج مرئية مفيدة، لم يكن موجوداً في سنوات المعرض الأولى، وقد بدأ بثَّه سنة ١٩٦٠. لكنَّ مكان النزهة هذا قد تلاشى بعد انتقال المعرض إلى مكانه الجديد على طريق مطار دمشق الدولي منذ مطلع التسعينيات.

ـ جبل قاسيون: يطلُّ جبل قاسيون على مدينة دمشق إطلالةً مباشرةً، وترتفع قمته عن سطح البحر نحو ١١٥٠ متراً، في حين ترتفع عن مركز مدينة دمشق (ساحة المرجة) نحو ٥٠٠ متر، وبالإمكان رؤية دمشق وغوطتها والجبال المحيطة بهما منها، وهذا ما شكَّل عامل جذب للدمشقيين للصعود إليها والتنزُّه في أرجائها، وقد بدأ هذا الأمر مع بدايات افتتاح التلفزيون السوري سنة ١٩٦٠، نظراً لأنَّ مكان بثِّه

الأول كان فيها قبل أن يُنقل إلى مكانه الحالي في ساحة الأمويين منذ السبعينيات، وقد جرى شقُّ طريقٍ جبلي متعرِّج للوصول إليها ينطلق من قبة السَّيَّار وضريح الجندي المجهول، وقد افتتح الضريح سنة ١٩٩٣.

ولكنَّ هذا الصعود لم يكن متاحاً إلَّا للدمشقيين مالكي السيارات الخاصة أو استئجارها، أو للقادرين على الصعود مشياً على الأقدام، ولهؤلاء ارتصفت على جانبي الطريق عشرات الأكشاك التي تبيع الحاجات الضرورية للمتنزِّهين الذين يتردَّدون على هذا الموقع طوال أيام السنة، وبشكل خاص في فصل الصيف للتمتُّع بالهواء البارد المنعش.

وتشجيعاً للتنزُّه في قمة جبل قاسيون، فقد شقَّت محافظة دمشق طريقاً يزنِّر جبل قاسيون، ويتَّصل مع الطريق الرئيسي، وافتتحت على طرفه المطل على دمشق عدة مطاعم فاخرة يديرها مستثمرون محليون، ما شكَّل هدفاً دائماً للدمشقيين للتنزُّه وشمِّ الهواء العليل، واستمرَّ ذلك منذ ثمانينيات القرن العشرين حتى سنة ٢٠١١، حين بدأت الحرب العدوانية على سورية، فأغلقت كلُّ هذه المحلات مراعاة للظروف الأمنية، ولم يعد يستخدم الطريق إلا للعبور من بلدة برزة شرقاً إلى ضريح الجندي المجهول غرباً.

وتشكِّل المروج العشبية المحيطة بضريح الجندي المجهول وقبة السيَّار مرتعاً خصباً لنزهة الدمشقيين، حيث يطلون منها على دمشق ووادي الربوة، لذا تراها مكتظَّة بهم على مدار السنة، ولا سيما في أيام الصيف الحار، مصطحبين معهم طعامهم وشرابهم وأدوات تسليتهم.

أما أكثر الأماكن شهرة في جبل قاسيون وجذباً للمتنزِّهين الذين كانوا يفدون إليها مصطحبين معهم مآكل السيران وعدَّته فقد كان: «ساحة الجريد»، التي كانت تقع في مكان قصر تشرين ومشفى الشامي الآن، إلى الغرب من منطقة حواكير الصبَّارة آخر خط المهاجرين، وكانت تُقام فيها ألعاب الفروسية، ويأتي الفرسان إليها يوم الجمعة من دمشق على خيلٍ مزيَّنة، وهم يلبسون الثياب العربية التقليدية، ويسيرون في موكبٍ مهيب عبر طريق الصالحية فخطُّ المهاجرين، حتى يصلوا إليها، وتقام هناك ألعاب الفروسية المختلفة، ويقذف فيها الفرسان رماحاً من خشب أو خيزرانة قصيرة تسمَّى «الجريد» مفردها «جريدة»، وهي كلمةٌ كردية الأصل معناها «السباق»، ويكون النصر لمن يسبق ومن يغلب ومن يصيب.

لم يعد لساحة الجريد أيُّ أثرٍ الآن، وانتقلت ألعاب الفروسية إلى نوادٍ خاصة خارج دمشق منتشرة في منطقة الديماس غرب دمشق، ولكنها تكاد تكون مقتصرةً على الموسرين، وافتقد الدمشقيون التمتُّع بممارسة رياضة الفروسية، أو على الأقل مشاهدة فرسانها وهم يمتطون أحصنتهم.

ويوجد في القسم الشرقي من جبل قاسيون «مقام الأربعين» مشرفاً على حي «ركن الدين»، ضمن مغارة تسمَّى «مغارة الدم» التي يُعتقد أنَّ قابيل قتل أخاه هابيل فيها، وفيها مسجدٌ له أربعون محراباً، ومن هنا أتى اسمه، ويقوم الدمشقيون بالصعود إليه في أيام الجمع والعطلات عبر درج حجري ينطلق من أعالي الحي، ويصطحبون معهم زوَّادتهم من الأطعمة والأشربة، تأديةً لطقسٍ ديني حسب الشائع، ولتمضية نهارٍ جميل مع إطلالةٍ رائعة على مدينة دمشق.

وإضافةً إلى تلك الأماكن، فقد اتَّجه الدمشقيون للنزهة نحو الحدائق الكثيرة الموزَّعة بين المباني السكنية، التي بعضها مجهَّز بألعابٍ للأطفال ومقاعد، ويزيد عددها على ١٥٠ حديقة مفتوحة، الدخول إليها مجاناً، وبعضها الآخر مغلق لإحاطتها بسورٍ، ويزيد عددها على ٧٣٠ حديقة غير متاح الدخول إليها، ولا ينقصها سوى عدة مقاعد، وعناية موسمية كتقليم نباتاتها واحتطاب شجرها اليابس، لتصبح متنفَّساً للسكان المحيطين بها.

يُذكر أنَّ مديرية الحدائق بمحافظة دمشق تشرف عليها كلها.

وأهم حدائق دمشق الموجودة الآن هي:

ـ حديقة تشرين: سُمِّيت بهذا الاسم تيمُّناً بشهر تشرين الأول الذي جرت فيه حرب السادس من شهر تشرين الأول سنة ١٩٧٣، وشهر تشرين الثاني الذي حدثت فيه الحركة التصحيحية المباركة التي قادها الرئيس حافظ الأسد (رحمه الله) في يوم السادس عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٧٠. افتتحت سنة ١٩٩٦ لتحلَّ محل بساتين منطقة كيوان. مساحتها ٣٣٥ ألف م٢، يرفرف في سمائها العلم السوري بأعلى سارية ارتفاعها ١٠٧ أمتار.

تُعَدُّ هذه الحديقة أكبر وأجمل حديقة في مدينة دمشق، تقع غربها بين ساحة الأمويين ومنطقة الربوة، شكلها العام مثلثي، يحدُّها شارع الرئيس شكري القوتلي جنوباً، وشارع الزعيم الهندي جواهر لال نهرو شرقاً وشمالاً شرقاً، والشارع الواصل بين حيي المهاجرين والمزَّة شمالاً غرباً، وتنحدر بشكلٍ خفيف من الغرب إلى الشرق، لها ثمانية أبواب، تخترقها عدة ممرات للمشاة تفصل بين مساحاتٍ واسعة ومتدرِّجة، وبأنواع مختلفة من الأشجار والشجيرات التزيينية والأزهار المتنوِّعة في تناسقٍ بديع ينمُّ على فنٍّ وتصميم رائع، ويخترقها عند منتصفها نهرا يزيد وتورا، ويمرُّ بزاويتها الشمالية نهر يزيد، وهما فرعان شماليان لنهر بردى.

تضمُّ هذه الحديقة مطعماً اختلفت أسماؤه بين مستثمرٍ وآخر، وأكشاكاً لبيع أطعمة ومشروبات خفيفة، ومسرحاً مكشوفاً، وأماكن مظللة، ومقاعد وطاولات خشبية وحجرية، ومناهل للشرب، وأعمدة إنارة، وثلاث بحرات ذات نوافير، وخمسة ملاعب للأطفال، ونصب وتماثيل تزيينية. يقصدها كثيرٌ من الدمشقيين للتنزُّه، ولا سيما أيام العطل، وتقام فيها فعالياتٌ ثقافية واقتصادية.

ـ حديقة ابن الهيثم: تيمُّناً بالعالم العربي الشهير، غير أنّها تُعرف باسم «**حديقة التجارة**» نسبة لمنطقة التجارة السكنية التي نشأت شرق دمشق في ستينيات القرن العشرين، واكتسبت هذا الاسم لوجود ثانوية تجارية فيها، مساحتها ٢٤٠ ألف م٢.

تبعد الحديقة عن شمال غرب ساحة العباسيين نحو ٦٠٠ متر، شكلها العام مربع، يحدها من الشرق شارع سيف الدولة الحمداني (كورنيش التجارة)، ومن الغرب شارع جابر بن حيَّان. يحيط بها سورٌ معدني، ولها أربعة أبواب تصل بينها شبكة من الممرات المنحنية، يتوسَّطها بحرة ذات نوافير، وتتوزَّع الأشجار والشجيرات في كلِّ أنحائها، ويقصدها للتنزُّه سكان المنطقة المحيطة بها بشكلٍ خاص.

ـ حديقة الجاحظ: تقع في حي المالكي غرب دمشق، شمال شرق ساحة الأمويين، وتبعد عنها بنحو ٣٠٠ متر، مساحتها ٢٢٥ ألف م٢، تنحدر بشكل خفيف من الشمال إلى الجنوب، يحدُّها من الجنوب شارع الشاعر أحمد شوقي، ومن الشمال شارع الشاعر خليل مردم بك، وسُمِّيت باسمها تيمُّناً بالأديب العربي «الجاحظ» (١٥٩ـ٢٥٥ هـ)، وله تمثالٌ نصفي فيها، أغلب روادها هم سكان المنطقة، افتتحت في ستينيات القرن العشرين.

شكلها العام شبه منحرف متساوي الساقين، لها ثلاثة مداخل، ممراتها ضيِّقة ومتعرِّجة، وفيها ثلاث برك ذات نوافير ومقاعد خشبية وأعمدة إنارة ومناهل للشرب وألعاب أطفال، وتزينها أشجارٌ وشجيرات وزهور.

ـ حديقة السبكي: تقع وسط دمشق في حي الشعلان، يحدُّها من الشمال شارع الرئيس «هوغو شافيز»، ومن الجنوب شارع عمر الجزائري، كانت تسمَّى حديقة زنوبيا، ثم اتخذت اسمها الحالي نسبة لمالك الأرض التي أُقيمت عليها في خمسينيات القرن العشرين، مساحتها ١٥ ألف م٢.

شكلها العام شبه منحرف، تتوسَّطها بحرة، وتخترقها عدة ممرات توزعت عليها مقاعد خشبية، وفيها ملعب للأطفال. كان يحيط بها سورٌ حديدي، ودائماً تكون مكتظَّةً بالمتنزِّهين سكان المنطقة المحيطة بها.

غير أنَّها أُغلقت لعدة أعوام في أثناء الأزمة التي تشهدها البلاد، على أساس حفر مرآب للسيارات تحتها، وإعادتها حديقةً كما كانت، إلا أنَّ هذا المشروع لم يُنفَّذ لأسباب تقنية، وأُعيد افتتاحها سنة ٢٠١٨، إلا أنَّها أصبحت أسوأ من وضعها السابق، فالممرات رُصِفت بالحجارة الناعمة بدلاً من الإسمنت، فيثور الغبار صيفاً، وتغرق في الوحول شتاءً، ولم تُقتلع أشجارها اليابسة، ويُزرع بدلاً منها أشجارٌ جديدة، كما أُزيل سورها المعدني بالكامل دون وجود سبب واضح.

ـ حديقة زكي الأرسوزي: سُمِّيت تكريماً للمفكر السوري زكي الأرسوزي، **وله تمثالٌ** فيها، غير أنَّ عوامل الزمن ظاهرة عليه. تقع في حي المزرعة وسط دمشق، خلف وزارة المالية ومصرف سورية المركزي، شكلها نصف دائري، يحيط بها سورٌ حديدي، ولها أربعة أبواب، أشجار وشجيرات وأزهار. مساحتها ٩ آلاف م٢، افتتحت في سبعينيات القرن الماضي.

ـ حديقة السلام: تقع في حي التجارة إلى الشرق من حديقة التجارة شرق دمشق، وتبعد عنها بنحو ٢٥٠ متراً.

ـ حديقة ابن هانئ: واسمها الشائع هو «حديقة المدفع»، لأنَّ مدفع رمضان والعيدين كان ينطلق منها، تقع إلى الغرب من حديقة السبكي بنجو ١٠٠ متر، عند تقطع شارعي أبو رمانة (الجلاء) والمهدي بن بركة.

ـ حديقة الصوفانية: والاسم محرَّف عن «الصفوانية»، وهي بلدة سريانية قديمة كانت في المنطقة، وتُعرف أيضاً باسم «حديقة البلدية»، تقع بين منطقتي باب توما وبرج الروس، على ضفتي نهر بردى، وتُعَدُّ من أقدم حدائق دمشق في موقعها واستخدامها، وحديثة في تنظيمها وتخطيطها واستغلالها، وقد تمَّ افتتاحها بحلتها الجديدة سنة ١٩٩٤، مساحتها نحو ستة هكتارات، كانت مكاناً مهماً للنزهة، وتعجُّ بالمتنزهات والاستراحات، واليوم يستخدمها عابرو السبيل للاستراحة.

ـ حديقة النيربين: حديقة جميلة مدرَّجة بعدة مدرجات، تقع آخر خط المهاجرين مطلة مباشرةً على ساحة خورشيد، ويقصدها الدمشقيون للنزهة والاطلالة على دمشق.

و «النيرب» كلمة آرامية الأصل معناها «الوادي»، وكان النيرب منطقة بساتين واسعة تابعة لحي الصالحية ممتدَّة على السفح الجنوبي الغربي لجبل قاسيون، وكان مقسَّماً إلى قسمين:

١ ـ النيرب الأعلى: يقع بين نهري يزيد وتورا، ويمتد بين منطقتي الجسر الأبيض وآخر خط المهاجرين.

٢ ـ النيرب الأدنى: يمتد جنوب النيرب الأعلى بين نهري تورا وبردى. ويصل حتى الربوة.

كان النيربان مكاناً مفضلاً لنزهات الدمشقيين عندما كان بساتين واسعة، وفيه قرية تحمل الاسم نفسه، ولكن لا أثر لكلٍّ ذلك الآن لامتداد العمران فيه: حي نوري باشا ومنطقة المالكي، ولم يبق منه سوى اسم «النيربان» الذي أُطلق على مطعمٍ ومقهى افتتحا فيه، وعلى الحديقة المذكورة.

ـ حديقة الأمويين: اكتسبت اسمها لإطلالتها على ساحة الأمويين، تقع في الزاوية المحصورة بين مكتبة الأسد الوطنية وحديقة تشرين، ومع أنَّها صغيرة المساحة، جاذبة لسكان المنطقة، الذين يفدون إليها بصحبة أبنائهم للتنزه بين مدرَّجاتها، ويلعب الصغار في قسمها المخصَّص لهم.

هذه هي أشهر وأكبر الحدائق العامة في مدينة دمشق، ومن الملاحظ أنَّها محصورة في الأحياء الحديثة بدمشق الشمالية والغربية، في حين لا توجد في أحياء دمشق القديمة سوى حدائق عامة صغيرة، أغلبها غير مفتوح للزوار.

وتخطِّط محافظة دمشق لإقامة حديقتين كبيرتين عندما تسمح الظروف، وهما:

ـ البارك الشرقي: المنطقة المحصورة بين منطقتي مساكن برزة والعدوي شرق دمشق، وهي الآن بساتين تتوسَّطها كلية الهندسة الزراعية.

ـ البارك الغربي: المنطقة التي تشغلها منطقة كيوان، تجاه حديقة تشرين، غرب دمشق.

ـ أماكن النزهات خارج مدينة دمشق:

غير أنَّ الدمشقيين كانوا في فصل الربيع يتَّجهون أكثر ما يتَّجهون بقصد النزهة أو السيران نحو الغوطة الشرقية، حيث تقوم قرى عديدة مثل المليحة وبالة وجسرين وزبدين على امتداد طريقها الرئيسي الممتد من منطقة الباب الشرقي حتى قرى مرج السلطان وخرابو والنشابية، وأقيمت على طرفيه مطاعم ومقاهٍ كثيرة، وكانوا يُطلقون على تلك الفترة من السنة «وقت الزهر»، إذ تكتسي الأشجار بحلة قشيبة من الزهر، والأرض موشَّاة ببساط سندسي أخضر مطرَّز بشقائق النعمان، وأعداد لا تحصى من الزهر الأبيض والأصفر في كلِّ مكانٍ، مطبقين للمثل الشائع: «أحسن دوا شمُّ الهوا»، في كنايةٍ عن وجوب الارتماء في حضن الطبيعة، على الأقل يوماً واحداً في الأسبوع.

ومِمّا يدلُّ غِنى الغوطة بالثروة الزراعية، هذا النص من كتاب «دمشق ١٩٠٢» السالف الذكر:

»بساتين دمشق شاسعة جداً وغنية، ينضج في مناخها المعتدل، المشمش والليمون والرمان والبرتقال واللوز، وتنتشر حولها المزارع والكروم، على مساحة تعادل نحو سبعين ألف «دسياتين» (وحدة قياس روسية لقياس المساحة) من الأراضي الخضراء المروية حتى آخر حصاة فيها، وفي كلِّ مكان تمتدُّ الورود والزهور إلى ما لا نهاية، تتكدَّس أكوامٌ كاملة من الورود على ظهور الحمير وتُنقل إلى المدينة لإنتاج زيت الورد، ولا يجد المرء قوة يمكنها أن تبعده عن جمال الطبيعة الجنوبية، فيعبُّ من شذا الربيع الجنوبي المبهج مالئاً رئتيه». (انتهى الاقتباس)

وبعد أن وصل خط الترام الكهربائي إلى دوما أوائل القرن العشرين، اتَّجهت النزهات إلى قرى الغوطة الشمالية الشرقية المتناثرة على امتداد طريق السكة: جوبر وعربين وحرستا، وانتهاءً بدوما.

الجميع في هذا السيران في شغلٍ شاغل، هذه تُعِدُّ السلطة، وهذه تقشِّر خضراوات المقالي كالبطاطا والزهرة والباذنجان، وتلك تعمل على قليها، التي يكون بعضها غضًّا طازجاً (يُجمع من على أمه)، أي يُقطف في الحال من البساتين المجاورة، وقد يكون طعامهم من المشاوي كالمعلاق واللحم الشقف والكباب، والجميع في هذه الساعات في أسعد حال وأهنأ بال، فلا ناقد ولا منقود، ولا حاجب ولا دستور، فالعافية في اللقمة الهنية، ومن لم يجد في نفسه الرغبة في إعداد الطعام، كنت تراه في أجواءٍ أخرى من راحة البال، فمن هؤلاء من يدخِّن الأركيلة (النارجيلة)، ومن يلعب بورق اللعب (الشدَّة) أو البرجيس، ومنهم من يجد اللعب بطاولة الزهر متعةً وجمالاً لتزجية الوقت، وأطرف ما يكون عليه هؤلاء حالهم، حين لا يأتي النرد على هواهم، فيكون الواحد منهم وكأنَّه بين نارين حاميين، نار زهره الخائب، ونار لسان غريمه في اللعب، وهو في حالة الشماتة والسخرية به وبزهره.

وكنت ترى من الشباب ما هم عليه في عالم آخر من غناءٍ وطرب، أو رقص دبكة يوحِّدُ حركاتها طبلٌ يقرع ونايٌ يشدو على وقع ما يؤدِّيه المغنِّي ويردِّده الآخرون، أو تبادل قفشات ونكات ساذجة.

أما الأطفال، فهم في شغلٍ شاغلٍ عمَّا يدور حولهم، وهم يلاحقون الفراشات، ويتسابقون في جمع الأزاهير البرية، في أضاميم عفوية فيها من البراءة ما يسمو على كلِّ معاني آداب التقديم والإهداء.

كان الدمشقيون في هذه النزهات والسيارين يفترشون الأرض المكسوة بالحشيش، أو يجلسون فوق

بسـط جلبوها معهم، وفي وقت أحـدث شاع استخدام الطاولات والكراسي القابلة للطي وتحميلها في صندوق السيـارة الخلفـي. كانت الأسـر تنفصـل بعضها عن بعض بشراشف يربطونها بالأشجـار المحيطة بمكان جلوسهم، لتكون لـكلِّ أسرة حرمتهـا، وكانوا يدفعون أجراً رمزيـاً للفلاح صاحبِ الأرض، واعتادوا قضاء كامل النهار منذ الصباح حتى قبيل غروب الشمس.

فـإذا جهـز الطعـام، فإنَّهـم يتحلَّقـون حوله بلا تكلُّف، ويؤثرون بالمكان الطفل قبل الكبير، والمرأة قبل الرجل، ويتناولون طعامهـم بشهيةٍ وإيثار، ويتساكبون مـع جيرانهم من السيرنجيـة، أي يتبادلـون أصناف الطعـام زيـادةً في الألفـة، فتتلـوَّن المائـدة، وتنفتـح القابلية، وتخمد الأصوات، ولا تكاد تسمع حتى الهمس، وليس هناك أجمـل ولا أروع من مشهد الواحدة منهنَّ أو الواحـد منهم وقد أعدَّت أو أعـدَّ اللقمة لنفسها أو لنفسـه، فتشتهيهـا لجارتهـا أو يشتهيها لجـاره على المائدة نفسهـا، فتلقِّمها إياها، أو يلقِّمه إيَّاه، والجميع في أسعد حال.

أمـا تحضير الشاي في السيران فلـه طقوسٌ ثابتة لا حيد عنهـا، إذ ينهمك المسؤول عـن الشاي بتنظيم أدواته أمامه بفنٍّ خاص، وتشمل «السَّمَاوَر»، وهي كلمة فارسيـة الأصل معناها وعـاء في وسطه مكان لإشعال النـار يستعمل لغلـي الماء وصنع الشـاي، وفوقه إبريقٌ صغير للشاي الخمير، ويضـع الكاسات (المخصورة) علـى الصينية النحاس، وبقربها علبـة السكر، وأنواع نبات الشـاي من أخضر وأحمر، وللشاي الأحمر أنواع السيـلاني والذهبـي والباشـ. في وقتٍ أقـدم كانـوا يعتمـدون على الحطب لغلي الماء، ثـم استعاضوا عنه ببابور الـكاز الطوي (بالإمكان وضعـه ضمن علبة)، ويضـع حوله عند إشعاله حاجز معدني لمنع الهواء من إطفاء النار.

وتعتمـد طريقة إعداد كأس الشاي على سكب الماء الساخن في ثلاثة أرباع الكأس (المخصورة)، ثم يسكب الشـاي الخمير، ويضيف السكر حسب رغبة الشارب، ويبـدأ المكلف بإعداد الشاي بتوزيع كؤوس الشاي على الجلوس، وقد وضع بعضهم أمامـه الأركيلة، ويستمرُّ شـرب الشاي مـع نفس الأركيلـة وتبـادل الأحاديث والطرائـف حتـى نهايـة النهـار، يعـودون بعدها إلى بيوتهم والسـرور يملأ قلوبهم، وهم يجـدِّدون العزم، ويستعدُّون لتحضير السيران المقبل.

غـير أنَّ نزهـات الدمشقيـين نحـو الغوطـة قـد تراجعت كثيراً منذ بدايات هذا القرن لأسباب كثيرة، منهـا امتداد العمـران في أرجائهـا، ومِن ثَـمَّ تقلُّص المساحـات الخضراء، وارتفـاع تكاليف النقـل، وأتت الضربة القاضية لها سنة ٢٠١١، عندما دخل الإرهاب إلى سوريـة، وكانـت الغوطة إحدى أماكنـه الساخنة، ومـع أنَّ الأمن والأمان قد عـادا إلى الغوطة منذ سنة ٢٠١٨، لا لم يسفـر ذلـك عـن عـودة النزهـات إليها بسبـب تراجع عدد الأشجار المثمـرة، وتقلُّص مساحة الأراضـي الخضـراء، وقد ذكـر لي أحـد أهاليها أنَّ نزهة الدمشقيين كانـت تسبِّب ازدحاماً مرورياً شديداً في أيـام الجُمع، وكانت مصدر رزقٍ لهم لا يُستهان به، ويتمنُّون عودتهم إليها.

يُذكـر أن النزهة في بساتـين الغوطة تشبه إلى حدٍّ كبير «شـمَّ النسيم» عند المصريـين، و «عيد النيروز» عند الإيرانيين.

ـ النزهات على طريق مطار دمشق الدولي:

بعـد افتتـاح المطـار في سبعينيـات القـرن العشرين، وشقِّ الطريق الذي يصـل إليه مخترقاً بطول نحو ٢٢ كيلو مـتراً أراضي الغوطـة الجنوبيـة الشرقية، اتَّجه الدمشقيـون للتنزه على طرفيـه، جلوساً على الأرض، أو علـى الكراسي، أو ارتياد المطاعم والمقاهي العديدة التـي افتتحت علـى طرفيه منذ ذاك الزمـن. غير أنَّ أكثر ما تراهم عند جسور السيارات الستة المبنية فوق الطريق، وقـد افترشـوا الأرض، ومدوا عليهـا سفرةً حافلةً بأطايب الطعام الذي جرى إعداده في البيوت.

ـ النزهات على امتداد الطريق الواصل بين دمشق ومدينة صيدنايا الواقعة في شمالها الغربي:

إذ انتشرت حديثاً مطاعم فخمة ملحق بها ملاعب للأطفال، وأصبحت مقصداً مهماً لنزهة الدمشقيين.

ـ مقام السيدة زينب: يقع جنوب دمشق نحو ١٨ كيلو متراً، كانت الأراضي المحيطة به بساتين شاسعة، وكان الدمشقيون يتجهون إليها أيام الجمع بشكلٍ خاص، يجذبهم التبرُّك بزيارة المقام، والتنزُّه في البساتين، وتناول أكلة «هريسة» التي يوزِّعها أهل الخير على المتنزهين، وهذه الأكلة غير الحلوى الشهيرة بالاسم نفسه، وهي عبارة عن لحم خروف مذبوح في المكان، ويطبخ جيداً، ويهرس مخلوطاً بالأرز والبرغل والعدس، ويُؤكل مع الخبز أو دونه.

وقد تلاشت النزهة نحو المقام تماماً منذ أواخر القرن الماضي، لانتشار العمران فيها، وبناء الفنادق لإيواء الزوار القادمين للتبرُّك بالمقام من مناطق عديدة خارج سورية، ولا سيما من البلدان الشقيقة المجاورة لبنان والعراق وإيران.

أما أجمل نزهات الدمشقيين خارج مدينة دمشق، فكانت تلك التي تسمَّى:

ـ سيران القطار: فيا له من نزهة لما فيه من متعة لا توصف، ولا سيما عند الأطفال، فبعد أن يستقلّ الدمشقيون القطار من محطته الرئيسية في ساحة الحجاز وسط دمشق، بعد تزوُّدهم من على رصيف المحطة بأنواع من الأطعمة الخفيفة، ولا سيما التماري والكعك، لتناولها في أثناء الطريق بشهية لا توصف، وبعد أن يصفِّر القطار ثلاث صفرات متتالية بفارقٍ قصير للتنبيه على اقتراب موعد بدء الرحلة، ينطلق بهم ـ مع نفثات كثيفة من الدخان الأسود الناجم عن احتراق الحطب والفحم في مراجله ـ نحو منطقتي البرامكة وكيوان، فالربوة، حيث يبدأ بالتلوِّي بين أحضان الطبيعة، تارةً على زند النهر، وتارةً يخترق عباب الأشجار المتعانقة، حتى تكاد أغصانها تهمُّ بالدخول إلى عربات القطار، في حين يقف بعض السيرنجية على حافتي القطار وهم يلوِّحون لسيرنجية أمثالهم سبقوهم إلى أماكن النزهات، ومودِّعين لهم برفع أياديهم وتحريكها ذات اليمين وذات اليسار تعبيراً عن بهجتهم وسرورهم، في حين يلتقطون بأعينهم صور هذه المشاهد الجميلة التي يمرُّ بها القطار، ويغمضون عليها، خوفاً من انفلاتها منهم، وقد غمرهم المرح والفرح، وهكذا حتى تنتهي الرحلة عند بلدة سرغايا، بعد أن تكون كلُّ جماعة من السيرنجية قد وصلت إلى مقصدها بأمانٍ واطمئنان.

ومع جماليات النزهة بالقطار، أخذت بالتراجع منذ أواخر القرن الماضي، لأسبابٍ يُعتقد أنَّها تعود لامتلاك كثيرٍ من الدمشقيين سياراتهم الخاصة، التي لا تتطلَّب الذهاب للنزهة أو العودة منها وقتاً محدَّدًا، وتلاشت تماماً منذ بدايات القرن الحالي، وحُفِرت أرصفة محطة الحجاز لإقامة مشروع تجاري ضخم مكانها، مع تخصيص مكانٍ لانطلاق القطار منه، وبقاء مبنى المحطة على حاله، ولكنَّ هذا المشروع ما زال حبيس الأدراج بانتظار الظروف الملائمة للانطلاق به مجدَّداً، ناهيك عن أنَّ الأنفاق التي حُفِرت في منطقة البرامكة لمرور القطار دون إعاقة لحركة مرور السيارات، قد استخدمت لأغراضٍ تجارية.

يُذكر أنَّ مدة زمن السيارين تختلف بين مكانٍ وآخر، فنزهة القطار تمتدُّ على كامل اليوم، أما السيارين الأخرى فتختلف بين امتدادها على كامل اليوم، أو على وقت بعد الظهر فقط. كما يمكن أن تقوم بها عائلةٌ وحدها، أو باشتراك عدة عائلات بعضها مع بعض، وقد شاع أسلوب التشارك بالنزهات بعد انتشار وسائط النقل الجماعي انتشاراً واسعاً، ومنها القطار، الذي بدأ استخدامه لهذه النزهات منذ خمسينيات القرن العشرين.

وبعد انتشار السيارات بكثافة منذ النصف الثاني من القرن العشرين، والدخول الواسع لباصات النقل الجماعي إلى منظومة النقل العام في دمشق، بدأت النزهات تتَّجه نحو الساحل السوري على البحر الأبيض المتوسط، حيث مدينتا طرطوس واللاذقية وغيرهما من المدن الأصغر منهما، الذي بدأت تنتشر فيه الأماكن اللازمة لإيوائهم، كالفنادق المختلفة النجوم، والشاليهات التي يمتلكها أفرادٌ أو مؤسَّساتٌ أهلية أو رسمية، ويتمُّ استئجارها ليوم أو أكثر.

أيضاً أخذت النزهات تتَّجه نحو البلدات المحيطة بدمشق مثل معلولا وصيدنايا، اللتين تنتشر فيهما الأماكن الدينية، ونحو الأماكن الأثرية وسط البادية السورية، مثل تدمر والرصافة، وتُعرف هذه النزهات بـ: «الرحلات»، ويقوم بها أفرادٌ أو مؤسَّساتٌ عامة أو أهلية. كما اتَّجهت الرحلات والنزهات نحو محافظتي درعا والسويداء، حيث توجد آثار مدينتي بصرى الشام والقنوات، ومنطقة اللجاة الفريدة بتشكيلاتها البركانية، والمياه التي كانت غزيرة في بحيرة المزيريب وشلالات تل شهاب، ولكنها الآن أقرب إلى الجفاف منها إلى أجسام مائية، لاختلاف أحوال الطقس والمناخ، والاستنزافُ الشديد لمياهما في الري والشرب.

وفي ليالي الصيف، ولا سيما المقمرة منها، فقد كانوا يتَّجهون إلى منطقة خورشيد آخر خط المهاجرين، وينتشرون على سفح جبل قاسيون، في زمنٍ لم يكن مزدحماً بالمباني ومكتظًّا بالسكان كما هي عليه الحال الآن، ما أدَّى إلى اندثاره مقصداً للنزهة.

وفي وقت أحدث، شاع استئجار غرفة مفروشة في منزل، أو استئجاره يوماً كاملاً أو عدة أيام، في القرى الممتدة على وادي بردى المذكورة سابقاً، أو في قرى التل ومنين وحوش عرب شمال شرق دمشق، للاصطياف بها. وكان من النادر امتلاك الدمشقيين لبيوتٍ في تلك المناطق. ومنها «قصر العظم» الذي أصبح فيما بعد ـ وما يزال ـ مطعماً، قصر «الأمير عبد القادر الجزائري» الذي تشغله الآن إحدى الإدارات الحكومية، وقصر شمعايا في دمر، و «بيت ورديشان» في جديدة الوادي، وأكبرها قصر القتلان في الجرجانية، الذي كان يصطاف فيه الشيخ تاج الدين الحسيني حين كان رئيساً للجمهورية السورية، وأصبح في الخمسينيات فندقاً فخماً، وأصبحت حديقته الواسعة الجميلة مطعماً ومقهى لا يزالان حتى الآن.

وإضافةً إلى هذا الفندق، فقد كان في منطقة المصايف الفنادق الآتية:

ـ فندق بلودان الكبير، الذي شيَّدته الحكومة السورية في الثلاثينيات في جبال بلودان، وهو فندقٌ فخمٌ في مدخل بلدة بلودان عروس المصايف السورية الواقعة على بعد نحو ٦٠ كم غرب دمشق، لا يقصده إلا الأثرياء، وليس له نظيرٌ بين كلِّ الفنادق لإطلالته الفريدة على سهل الزبداني، وعراقته، وتاريخه الحافل بالمؤتمرات المهمة، ومنها عدة مؤتمرات لجامعة الدول العربية، ولأنَّ عدداً كبيراً من الشخصيات المرموقة والمشهورة كانت ترداده، ولا سيما صيفاً.

غير أنَّ الإهمال قد أصابه، ولم يعد منذ أعوام بالشكل اللائق الذي كان عليه.

ـ فندق عقل، وهو فندقٌ صغير مقابل الفندق السابق، ولكنه أقلّ شأناً.

ـ وفي الخمسينيات تحوَّل قصر أحد الأثرياء في بلودان إلى فندقٍ باسم «بارك أوتيل» الذي امتاز بطابعه العائلي الهادئ.

ـ وفي بلدة الزبداني، تحوَّل بيتٌ كبيرٌ لأحد سكان الزبداني مقابل محطة القطار إلى فندقٍ باسم «قصر الزهور»، ولم يكن غيره هناك.

وقد اعتاد الدمشقيون الأثرياء قضاء يوم أو أكثر في هذه الفنادق ـ وغيرها من الفنادق التي أُقيمت فيما بعد ـ للنزهة والاصطياف.

ومنذ الخمسينيات بدأ بعض الدمشقيين الموسرين شراء قطع أراضٍ وبناء فيلات عليها يصطافون فيها صيفاً، ويغلقونها شتاءً، او يؤجّرونها لمصطافين سوريين، أو لعربٍ قدموا لغرض السياحة من منطقة الخليج العربي بشكلٍ خاص، ومن كلّ أنحاء الوطن العربي بشكلٍ عام.

ولقد اختلفت النزهات أو السيارين بطول فترتها، فبعضها يقتصر على الفترة الصباحية، تسمَّى هذه بـ: «صبحية»، وكانت مقتصرة أولاً على فئة الشباب، ثم انتشرت بين مختلف فئات المجتمع الدمشقي، ويتمُّ الخروج إليها في الصباح الباكر من أيام الصيف، لتناول طعام الإفطار في حضن الطبيعة، وتنفُّسِ روائحها المنعشة، والجلوس فوق مروجها الخضراء الندية، وتنتهي هذه النزهة وقت الضحى.

وقد تقتصر على مدّة قصيرة قبيل الغروب، لشرب كأسٍ من الشاي، وتسمَّى: «مشوار» أو «شمّة هوا»، وتكون الأدوات اللازمة لهذه النزهة قليلة محدودة.

وأغلبها يستغرق اليوم بكامله، وهي تلك التي أُشير إليها قبل قليل.

ـ النزهات في مسابح دمشق: انتشرت المسابح بكثرة في الريف المحيط بدمشق، ومنها مسبحا الأندلس والروضة في بساتين كفرسوسة (منطقة تنظيم كفرسوسة الآن)، ومسبح سوريانا في منطقة الربوة، ومسبح تروبيكانا في منطقة القابون، وقد شكَّلت هذه المسابح مقصداً مهماً لنزهة الدمشقيين، ولا سيما الشباب، إذ يمضون فيها أيَّام الجمع بشكلٍ خاص، ما بين السباحة واللعب وتناول الطعام.

وقد اندثرت هذه المسابح بفعل التنظيم العمراني، وحلَّ محلَّها المسابح الملحقة في مختلف المدن الرياضية ونواديها، ومنها: مدينة تشرين الرياضية في منطقة البرامكة وسط دمشق، ومدينة الجلاء الرياضية في منطقة المزَّة غرب دمشق، ومدينة الشباب بالمزة، ومدينة الفيحاء الرياضية في منطقة العدوي شرق دمشق، ونادي النضال جنوب دمشق.

وهناك أيضاً المسابح الملحقة بالفنادق الفخمة: شيراتون، وداما روز، والشام، وإيبلا، وفور سيزونز.

وأخيراً ثمّة المسابح الخاصة ببعض المزارع المنتشرة في أنحاء ريف دمشق، وهي غير مفتوحة للعموم.

ـ ختاماً أقول:

إنَّ من أجمل ما سجَّله التاريخ بعيداً عن الحروب والكوارث، عشق الإنسان للطبيعة، وولعه بالارتماء في أحضانها، واستنشاق هوائها العليل، وسماع خرير مياهها، وتشنيف آذانه بتغريد الطيور على أغصان أشجارها، ومشاهدة قوس قزح في سمائها، وشغفه بكلِّ ما يتَّصل بالزهور والرياحين واللون الأخضر، ولم يجد بدًّا لتحقيق ذلك من الاتجاه نحوها، والانغماس بين جنباتها، وهذا ما رأيناه بوضوح لافت في هذه المقالة، التي وإن كانت تخصُّ الدمشقيين فقط، تنطبق على كلِّ المجتمعات البشرية في كلِّ أصقاع الأرض وأطرافها القريبة والنائية، ولكن ـ بالطبع ـ مع اختلاف بالوسائل والأساليب.

ـ المراجع:

ـ حديث دمشقي ١٨٨٤ ـ ١٩٨٣، نجاة قصاب حسن، منشورات دار طلاس بدمشق سنة ١٩٨٨.

ـ دمشق في نصف قرن، ماجد اللحام، منشورات دار الفكر بدمشق سنة ١٩٩٠.

ـ دمشق مصايفها ومتنزّهاتها، الدكتور علي حسن موسى، منشورات دار البشائر بدمشق سنة ٢٠٠٠.

ـ دمشق في ثمانين عاماً، الدكتور إبراهيم حقّي، منشورات دار الفكر بدمشق سنة ٢٠١٨.

سيران في غوطة دمشق وقت تفتُّح الزهور في فصل الربيع.

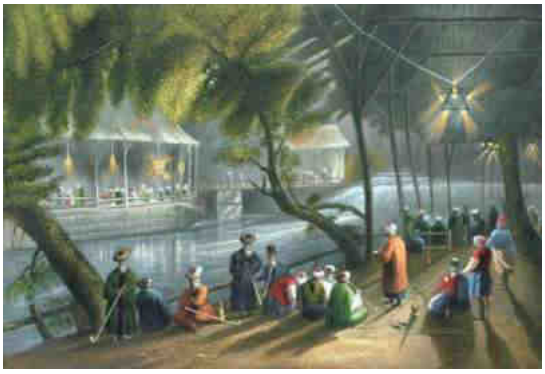

لوحة مرسومة في القرن التاسع عشر للنزهة على ضفتي نهر بردى، لاحظ التخت أو المصطبة.

نزهة عائلية في إحدى حدائق دمشق تجمع الجد والجدَّة والابن وزوجته والحفيدتين.

محطة الحجاز للقطارات وسط دمشق، كانت نقطة البدء لسيران القطار.

الغوطة تزنِّر دمشق: مقصدٌ لنزهة الدمشقيين.

قطار النزهة دمشق ـ الزبداني ـ سرغايا: مشهدٌ لم يعد موجوداً.

محطة الحجاز للقطارات وسط دمشق قبل مئة عام، الآن هي حفرةٌ كبيرة لإقامة مبنى تجاري.

قاطرة بخارية أمام محطة الحجاز: أصبحت من الماضي.

حديقة تشرين: المكان المفضَّل لنزهة الدمشقيين.

النزهة على ضفتي نهر بردى في بلدة دمر: مشهدٌ لم نعد نراه.

متنزَّهٌ في الربوة، وتبدو صخرة «اذكريني دائماً».

متنزِّهون يصعدون إلى مقام الأربعين.

لوحة لفنانٍ تشكيلي سوري لقطار الزبداني الذي ذهب ولم يعد.

فندق بلودان الكبير: مكانٌ لقضاء النزهات.

جبل قاسيون: كان مكاناً للتنزُّه في مطاعمه التي تتوسَّط سفحه المطلَّ على دمشق.

الشارع المستقيم في العصور

محمـــود علقـــم

اشتهرت مدينة دمشق القديمة، بأسواق وشوارع عديدة، لايزال بعضها قائماً حياً الآن، ولعل بعضها اندثر نتيجة مجموعة من العوامل مرّت على المدينة، إن كان بسبب العوامل الجوية كالزلازل والهزا ت الأرضية التي أتت على مدينة دمشق وريفها، أو بسب الحرائق التي كثيراً ما كانت تؤدي إلى زوال بعض المعالم فيها، أو إلى التنظيم العمراني الذي نُفذ في عدة عصور، وإنني لأجد أنّ أهم شارعين فيها هما سوق الحميدية والشارع المستقيم، وهما موئل السياحة الداخلية، والسياح العرب والأجانب.

وبحثي يشمل الشارع المستقيم من بدايته من جادة الدرويشية في الغرب ، التي تمتد ما بين باب النصر أو مدخل سوق الحميدية ، حتى باب الجابية ومدخل حي السنانية ، وهذه الجادة كانت تسمى جادة الأخصائية ثم سميت جادة الدرويشية ، نسبة إلى والي دمشق درويش باشا ، الذي شيّد فيها جامع الدرويشية سنة « ٨٩٢ هـ / ١٥٧٤ م » والذي يُعدُّ تحفة فنية رائعة .

والشارع المستقيم ، سمي بهذا الاسم ، لأنّه أطول شارع مستقيم في دمشق القديمة ضمن السور ، وهو يشطر المدينة إلى شطرين ما بين باب الجابية في الغرب ، والباب الشرقي في الشرق ، ويسمى السوق الطويل ، وهو الاسم المتعارف عليه بين الناس ، وخاصة القسم الممتد من جادة الدرويشية حتى مدخل سوق البزورية ، أنشأه الرومان في أثناء تنظيمهم للمدينة ، بعد دخولهم إليها بقيادة بومبيوس سنة «٦٤ ق . م » ، وأسموه باللاتينية «via recta»، أي الدرب المستقيم ، يبلغ طوله ١٥٠٠ م ، وعرضه في ذلك الحين ٢٠ – ٢٥ م ، وعلى جانبيه كان يقوم صفان من الأعمدة الكورنيثية الضخمة ، وهذا الأسلوب درج عليه الرومان في جميع المدن ، كما في تدمر وبصرى وأفاميا وجرش .

ورد اسم هذا الشارع في الكتاب المقدس ، في أعمال الرسل .

والروم البيزنطيون أطلقوا عليه بلغتهم اليونانية اسم « إفثيا ريمي evthia rimi» ، وأسماه أهالي البلاد من السريان بالكلدانية «عيلولو وتروصو».

هذا ويرى الخوري أيوب سميا ، أنّ الشارع المستقيم كان من عمل اليونان القدماء الهيلينيين ، إلاّ أنّ هذا الرأي لم يأخذ به أحد من الباحثين ، كما لم يرد في أيّ مصدر .

ويضيف الخوري سميا : إنّ وضع اليونان لهذا الشارع وامتداده من الشرق إلى الغرب كان بسبب ديني ، لأنّ باب المدينة الشرقي كانوا يخصونه باسم إلههم الأكبر « الشمس»، والباب الغربي كانوا يخصونه لابنه «زفس zfus »، لكي يحفظ كلاهما المدينة .

وبعد الفتح الإسلامي لمدينة دمشق ، تغيرت معالم هذه الطريق ،إذ قدّم المؤرخ ابن عساكر مؤرخ دمشق الكبير في القرن السادس الهجري وصفاً دقيقاً لهذا الدرب بأقسامه المختلفة ،

ويقسم الشارع المستقيم إلى أربعة أقسام هي :

- **شارع مدحت باشا**
- **جادة مئذنة الشحم**

-جادة الخراب

-جادة الباب الشرقي

شارع مدحت باشا : وهو القسم الممتد من جادة الدرويشية ، حتى مدخل سوق البزورية الجنوبي، والمدخل الشمالي لجادة الدقاقين أو شارع حسن الخراط .

كان يسمى في العصر المملوكي سوق جقمق ، نسبة إلى أمير الشام سيف الدين جقمق «٨٢٢ – ٨٢٤ هـ / ١٤١٩ م» باني المدرسة الجقمقية ، وباني خان جقمق المملوكي ، الذي يقع على الطرف الشمالي لهذا السوق، ولا يزال بناؤه قائماً حتى اليوم .

وخان جقمق خان مملوكي ، يُعَدُّ من أقدم خانات دمشق ، له بوابة كبيرة مزخرفة ، تفضي إلى ساحة داخلية ، تحيط بها غرف الخان من جوانبها الأربعة، وبها بحرة ماء سداسية الأبعاد ، وفي الطابق الثاني للخان اثنتان وعشرون غرفة وشرفة ، يتم الوصول إليها عبر درج جانبي .

تعرض هذا الخان إلى كوارث عديدة ، في العصر العثماني عام ١٩٠٠ م ، وكذلك أيام الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ م ، إذ طاله الحريق الذي حلّ بحي سيدي عامود « الحريقة « نتيجة قصف الاحتلال الفرنسي لدمشق .

سوق مدحت باشا

وفي العصر المملوكي شُيد فيه جامع الخراطين ، والمدرسة السيبائية ، التي شيدها أمير دمشق ونائبها سيباي سنة «٩٢٠هـ / ١٥١٤ م»، وكذلك شُيد فيها خان الزيت، وهو خان مملوكي أيضاً اندثر أثره ، وخان الدكة أو الجواري ، وهو خان مملوكي أيضاً، شُيد في ولاية سيف الدين يلبغا اليحياوي الناصري نائب السلطنة المملوكية بالشام ، وصاحب جامع يلبغا في شارع النصر .

وفي العصر العثماني أُطلق على هذا القسم من الشارع المستقيم ، سوق مدحت باشا ، نسبة لوالي دمشق مدحت باشا ، أحد الولاة العثمانيين على الشام سنة «١٨٧٨ – ١٨٨٠م» والذي كان يسمي نفسه خديوي سورية، وقد وصل إلى سورية عصر يوم الثالث من كانون الأول سنة ١٨٧٨ م ، قادماً من إستانبول ليتسلم مهامه والياً على الشام ، وهو الذي وسَّع هذا القسم من هذا الشارع ، وربط حي الصالحية بدمشق ، كما جُدد هذا السوق أيام الوالي رؤوف باشا سنة «١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م»، كما استبدل الوالي حسين ناظم باشا بسقفه الخشبي سقفاً من الحديد والتوتياء خوفاً من الحريق.

وفي هذا العصر شُيد في هذا السوق خان الصنوبر، وخان القطن العثمانيان.

يشتهر هذا السوق ببيع الأقمشة والأغباني والعبي والعقل ، إذ كان فيه سوق العبجية ، وكذلك محلات العطارة في سوق العطارين ، ومواد الدهان وأدواتها .

جادة مئذنة الشحم : وتمتد من تقاطع سوق البزورية مع شارع مدحت باشا حتى جادة المنكنة ، التي فيها مكتب عنبر ، وتنتهي جادة المنكة بزقاق القاري ، وفيها جامع عمر الحلبي السفرجلاني المعروف بجامع القاري .

كانت هذه المحلة تسمى قديماً في القرن التاسع الهجري «قبة الشحم»، كما ذكر ابن قاضي شهبه في تاريخه، أما النعيمي فسماها في القرن العاشر الهجري « منارة الشحم »، وأورد ابن طولون الصالحي هذه الجادة باسم مئذنة الشحم أو تل مئذنة الشحم، وتعرف قديماً بعقبة الصوف، كما ورد اسمها «قبة الشحم». أما عقبة الصوف فقد ذكرها المؤرخ الكبير

ابن عساكر، والعقبة هي المرتفع من الأرض، ولعل هذه المحلة كان يُباع فيها الصوف، كذلك أورد ذكر قبة الشحم ابن عساكر في القرن السادس الهجري، وابن شداد في القرن الرابع الهجري.

وأُلحق الاسم بمئذنة هناك، تابعة لجامع صغير، بُنيت في العصر المملوكي سنة ٧٧٠ هـ .

وهناك احتمال أن يكون الاسم آراميًا قديمًا «شحم»، ويعني صوان غرانيت .

ويرى الخوري أيوب سميا أنّ اسم المحلة حُرف عن تسمية آرامية قديمة «سحم» وتعني السواد .

ومن ألفاظ البنائين والحجارين الدمشقيين «شحم ولحم» يسمى بهذا الرخام السماقي porphyre ، فقد يكون سبب لتسمية المئذنة أو القبة بذلك .

وبمئذنة الشحم تلّة تسمة « تلة السماكة »، وهي أعلى منطقة بدمشق القديمة، يميل الاعتقاد أنّ قصر آرام دمشق كان يقوم عليها في ذلك الوقت.

وبأعلى تلة النجارين المجاورة لتلة السماكة قبر لولي يُعرف «بالولي الشحمي».

ويبدو من اسمها أنها كانت مركزاً لبعض الصناعات التي يدخل الشحم في تركيبها، كصناعات الصابون والشمع ، ولا سيَّما أنها قريبة من السوق الذي يدعى سوق الدهيناتية أو الدهيناتيين، الذي يقع بين سوق السلاح والبزوريين ، ويصنع فيه كل أنواع الأدهان كدهن اللوز وغيره .

هذا وإن هذه الجادة تضم أجمل البيوت الدمشقية، وكانت كذلك أرقى أحياء دمشق .

وفي هذه الجادة تباع المواد الغذائية والصابون ، وبعض النحاسيات والسجاد القديم، وكذلك صناعة الصدفيات والنقش عل النحاس والمطرزات .

جادة الخراب : يمتد هذا القسم من الشارع المستقيم من تقاطع جادة منكنة مع الشارع المستقيم، حتى تقاطع جادة باب توما أو درب الحجر جنوباً وشمالاً جادة طالع الفضة .

وقد اختلف الباحثون في معنى هذه الجادة ، وهي تعني أنّ خراباً أصابها ، إلاّ أنّه لا يُعرف زمانه وأسبابه .

وقد ذكر المؤرخ أيوب سميا أنّ اسم الخراب لم يرد له ذكر عند مؤرخي دمشق ، الذين تحدثوا عن أحيائها كابن عساكر ، وابن طولون ، والبدري وعزالدين عربي كاتبي ، إلاّ أنّه ورد ذكره في تاريخ دمشق للخوري ميخائيل بريك المتوفَّى في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كتاب مذكرات تاريخية عن دمشق سنة « ١٢٤٦ – ١٢٥٦ هـ »، وكذلك ذكره نعمان القساطلي مؤلف كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ويرجح أنه سمي حي الخراب سنة ١٨٣١ م ، بعد أن ثار أهل دمشق على الوالي محمد سليم باشا، ورفضوا ولايته ، فحاصر القلعة ، وقصف دمشق بالمدافع ، الأمر الذي أدى إلى هدم الحارات التي ثار أهلها ، وحدث فيها خراب كبير، وذكر الخوري بريك : إنّ الذي كان يقف عند زقاق الحمصي ، كان يشاهد المرجة ، ومنذ ذلك الوقت درج على ألسنة الناس أهل محيط هذه المنطقة اسم الخراب .

كما ذكر بعض الباحثين أنّ هذه المحلة خربت سنة ١١٧٣هـ ، نتيجة الزلزال الذي ضرب دمشق .

وهناك من يقول إنّ هذه التسمية أطلقت على هذا الحي إثر احتلال تيمور لنك لدمشق وتخريبه لها ، وبقيت تحمل هذه التسمية إلى اليوم .وفي هذه المحلة يقوم القوس الروماني ، كما شيدت فيه كاتدرائية السريان الأرثوذكس عام ١٩٧١ م ، وهي تضم مجمع دار البطريركية وملحقاتها .

وفيها مكتب عنبر الذي شيده ثري من دمشق ، ولم يتمكن من إتمام بنائه لأسباب مالية ، فصار هذا البناء ملك الدولة العثمانية لدين لها على صاحبه لم يتمكن من سداده ، ثم أصبح مدرسة إعدادية حكومية سنة «١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م»، عرفت باسم المدرسة الملكية الإعدادية ، وكان مديرها تركياً، وغالبية

المدرسين من الأتراك ، وكان ذلك في عهد الوالي نظيف باشا ، ثم تحولت إلى مدرسة للفنون النسوية في مطلع القرن العشرين .

مكتب عنبر (قصر الثقافة).

وفي الثمانينيات رَمَّمَتْهُ وزارة الثقافة، وأصبح قصراً للثقافة.

شيّد البناء على الطراز الشرقي لفن العمارة المستوحاة من فن الروكوكو والباروك اللذين كانا منتشرين في أوروبا في ذلك الحين .

وفي هذه الجادة يربض القوس الروماني ، وفي اليسار منه مئذنة جامع باب الكنيسة ، المشيد في بدايات العصر العثماني .

القوس الروماني، و مئذنة باب الكنيسة.

وفي هذه الجادة تباع الأدوات الزجاجية والنحاسية القديمة ، وكذلك البسط والسجاد القديمان ، وفيه محامص لبيع المكسرات ، كذلك تباع فيه المواد الغذائية .

جادة الباب الشرقي : وتمتد من تقاطع جادة المنكنة ، حتى الشارع المؤدي إلى مدينة جرمانا .

وهو أحد أبواب مدينة دمشق ، في الجهة الشرقية منها ، وسمي بذلك لأنه يقع شرقيّ المدينة، بناه الرومان على أنقاض الباب اليوناني القديم ، زمن الإمبرطور سبتيموس سيفيروس septemus severus، وابنه كاراكالاّ caracala ، في السنوات الأواخر من القرن الثاني الميلادي ، والسنوات الأوائل من القرن الثالث ، وكان له في زمن الرومان شأن كبير، وهو الحد الشرقي للشارع المستقيم الروماني via recta، والباب الشرقي هو الباب الوحيد الذي وصل إلينا كما تركه الرومان ، لذلك فإن له قيمة تاريخية وأثرية كبرى .

وكان يطلق عليه أيام اليونان السلوقيين والرومان باب الشمس ، ولا غرو فإنه يقابل مطلع الشمس ، وزالت هذه التسمية بزوال الوثنية .

ويرى الخوري أيوب سميا أن تسمية الباب الشرقي، ربما يكون أصلها ، أنّ هذا الباب كان يؤدي إلى مدينة في الغوطة الشرقية ، واسمها أنا ثولي ، وهي على الشّاطئ الشرقي من القسم الشمالي من بحيرة العتيبة ،ويعتقد أنّ قوله مبالغ به ، لأنّه لو بنيت مدينة هناك لكانت آثارها ظاهرة تدل عليها .

واشتهر الباب الشرقي في الفتح العربي الإسلامي لمدينة دمشق، حين نزل عليه خالد بن الوليد، وافتتح دمشق عنوة عام ١٤ هـ، في الوقت الذي دخل أبو عبيدة بن الجراح من باب الجابية صلحًا، والتقيا في منتصف الشارع المستقيم.

كما دخل منه نور الدين الشهيد، حين ضم دمشق إلى إمارته سنة ٥٤٩ هـ ، وذكر هذه الواقعة لا يزال في أذهان الدمشقيين، حين استقبل الدمشقيُّون جيوشه بالترحاب ، وذلك لاشتهاره بالعدل، وجهاده ضد الصليبيين، إذ إنهم فتحوا له الباب الشرقي وهم يرددون كما ذكر ابن القلانسي «نور الدين يامنصور»، وهذه العبارة لا زالوا إلى اليوم يرددونها في عراضاتهم الدمشقية «نور الدين يا منصور وبسيفك فتحنا السور».

والبـاب الشرقي يتألف من ثلاثـة مداخل، مدخل كبـير في الوسط ، وعلـى جانبيه مدخـلان صغيران، وعليـه مئذنـة تعـود إلى عهد نـور الديـن ، وقد جدد هـذا الباب في عهـد نور الدين ، ومـا زال على البوابة الشماليـة كتابة تحمـل تاريخ تجديد نـور الدين لهذا الباب ، وسور دمشق بشكل عام .

الباب الشرقي.

وفي نهايـة الشارع المستقيم بيـت النعسان للتحف الشرقية، وقبل الوصول إلى نهاية الشارع، وإلى الجهة الشمالية منـه يمتد زقاق حنانيا، الـذي يضم كنيسة القديس حنانيا الدمشقي، أحد تلامذة السيد المسيح، التي جددت حديثاً، بعد أن كانت معبداً لهذا القديس، بجانب منزله الذي يقع في الزقاق نفسه، ومنها انطلق للتبشير بالمسيحية.

وكذلـك آثـار كنيسـة المصلبـة، التـي شيّـدت في العصـر البيزنطي فوق معبد وثنـي يوناني للإله حدد كبـير الآلهـة في دمشق. كذلـك تقع في نهايـة الشارع المستقيـم وعلـى يمينـه كاتدرائيـة القديـس بولص للسريـان الكاثوليـك في حارة الزيتـون، ضمن مجمع عمراني يحوي داراً للمطرانية.

كذلـك وفي نهاية الشـارع وعلى يمينـه كاتدرائية القديـس سركيس لطائفـة الأرمـن الأرثوذكس، التي تضم ديراً وكنيسة ومدرسة وداراً للمطرانية.

وتشـير المصـادر أنّـه في هـذا الموقـع قبـل الفتح الإسلامي كان هناك دير وكنيسة للسريان الأرثوذكس، على اسم القديسين سرجيوس وباخوس.

وفي هـذا الشارع تباع المفرشـات العربية القديمة مـن بـروكار وسجـاد ودامسكـو ومطـرزات يدويـة وموزاييك بكل أشكاله وأنواعه.

مراجع البحث

-الريحاوي «عبد القادر»، العمارة العربية الإسلامية، دار البشائر، دمشق.

-الريحـاوي «عبـد القـادر»، مدينـة دمشـق، المطبعة الهاشمية، دمشق.

-كيتسنجـر «كارل» الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، مطبعة سورية، دمشق.

-ابن عبد الهادي، المقاصد في ذكر المساجد، دمشق.

-الشهابـي «قتيبـة»، دمشق تاريخ وصـور، منشورات النوري، دمشق.

-قساطلي «نعمان» الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، دار طلاس، دمشق.

-كرد علي «محمد» خطط الشام، منشورات العلمي، بيروت.

-العلاف «أحمد حلمي» دار دمشق، دمشق.

-القاسمي «ظافر»، مكتب عنبر، دار العلم للملايين، بيروت.

-دهمان «محمد أحمد»، في رحاب دمشق، دار الفكر، دمشق.

-الحكيـم «يوسـف»، سورية في العهـد العثماني، دار النهار، بيروت.

-المنجد «صلاح الدين»، ولاة دمشق في العهد الثماني.

- المنجد «صلاح الدين»، دمشق، أسوارها وأبوابها، دمشق.

-علقـم «محمـود»، الخانـات في بلاد الشـام، الهيئة العامة السّوريّة للكتاب، دمشق.

-الحوليـات الأثريـة، الجـزء ٣٥ ، المديريـة العامـة للآثار والمتاحف ، دمشق .

-أثناسيـو «متري هاجـي»، «الشهابي قتيبـة»، أديرة وكنائس دمشق وريفها ، دمشق.

-العلبـي «أكـرم حسن» دمشـق بين عصـر المماليك والعثمانيين، دار الشرق.

-مبيضـ «سامي مروان»، خديـوي سورية، منشورات بستان هشام.

-إيبش «أحمـد»، الشهابـي «قتيبـة»، معـالم دمشق التاريخية، وزارة الثقافة، دمشق.

تعابير الشَّرَاب

د. محمَّـــد قاســـم

الشَّـرَاب: ما شُـرِبَ مِنْ أَيِّ نـوعٍ كان، وعلى أَيِّ حـال كان. وعـن أبـي زيد سـعيد بن أوس الأنصـاريّ: الشَّـراب والشَّـرُوبُ، والشَّـريبُ واحـدٌ. ورجـلٌ شـاربٌ، وشَـرُوْب وشَـرَّابٌ وشـرِّيبٌ: مُوْلَـعٌ بالشَّـرَاب، أو الشَّـريبُ: المُوْلَعُ بالشَّـراب، والشَّـرَّابُ: الكثيرُ الشُّـرْبِ، والشَّرُوبُ: شديدُ الشُّرْب.

والشَّرْبُ: القوم يشربون، ويجتمعون على الشَّراب.

والشِّرْبُ: الماءُ بعينه يُشرب والنَّصيبُ من الماء.

ويـومٌ ذو شَرَبَة: شديدُ الحَرِّ، يُشْرَبُ فيه الماءُ أكثر ممّا يُشـربُ على هذا الآخر، وإنَّهُ لـذو شَرَبَة إذا كان كثيرَ الشُّرْبِ. وطعامٌ مَشْرَبَةٌ: يُشْرَبُ عليه الماءُ كثيراً.

والإشـرابُ: خلط لون بلون، كأَنَّ أحد اللَّوْنَيْن سُقِيَ اللَّـوْنَ الآخَرَ؛ يقال: بياضٌ مُشْرَبٌ حُمْرَة مُخَفَّفاً، وإذا شُدِّدَ كان للتكثير والمبالغة.

وأُشْرِبَ فلانٌ حُبَّ فلانة، أَيْ خالط قلبه.

وبلـغ مـن عنايتهـم بالشَّـراب أَنْ وضعـوا فيـه المُصَنَّفـات، فهـذا أبـو محمَّد عبد الله بـن مسلم بن قُتيبة الدِّينـوريّ (ت ٢٧٦هـ) ألَّف كتاباً سمّاه « كتاب الأشربة وذكر اختلاف النَّاس فيها»، امتزجَ فيه الأدب والفقـه، فأنشد فيـه أشعـاراً خمريَّة عاليـة الطّبقة، كقول أَبي نواس:

اسقني حتَّى تَرَاني ... حَسَناً عندي القبيحُ

وقول أبي مِحْجَن:

إذا متُّ فادفنّي إلى أَصْل كَرْمَة
تُرَوِّي عظامي بعدَ موتي عروقُها
ولا تَدْفِنَنِّي بالفلاة فإنَّني
أخافُ إذا ما متُّ أنْ لا أذوقُها

وقول الآخر:

لا تَبْكِ لَيلى ولا تطربْ إلى هنْد
واشربْ على الورد من حمراءَ كالوَرْد
تسقيك من عينها خَمْراً ومن يدها
خمراً فما لكَ من سُكْرَيْن من بُدّ
لي نشوتان وللنَّدْمان واحدةٌ
شَيْءٌ خُصِصْتُ به من بَيْنهم وَحْدي

وقول المسيَّب بن علس:

وكأنَّ طَعْمَ الزَّنجبيل به إذْ ذُقْتَهُ وسُلافةَ الخَمْر

ولمَّا ألَّف أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد الأزديُّ الصُّحاريُّ (ت ٤٥٦ هـ) مُعجمه اللّغويّ الطّبّيّ سمّاه « الماء» باسم المادَّة التي افتتح بها مصنَّفه اللّغويّ، لشَرَف الماء، إذ لا نعلم شيئاً يخلو من الماء إلّا ما يُضَادُّ جوهرَهُ وطبيعتَهُ، أي النّار التي تؤثِّرُ في الماء تسخيناً وتبخيراً، ويُؤَثِّرُ فيها إطفاءً وإماتةً. قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كلَّ شيء حيّ﴾ (سورة الأنبياء : ٣٠) . والماء أطيبُ الطِّيب، لأنَّ أكثر الطُّيُوب إنَّما تظهر رائحتها بالماء، وفي الماء ما ليس في الطُّيوب من التَّنقية والتَّطَهُّر.

وحين وضع السَّريُّ بن أحمد الرّفّاء (ت نحو ٣٦٢هـ) كتابه «المحبّ والمحبوب والمشموم والمشروب» وقف الجزء الرابع منه على الشراب، وأودع فيه روائع الأشعار ونفائس الأنثار التي اتَّفقتْ له في وصف الأشربة، كقول أبي نواس:

دَعْ عَنكَ لَومي فإنّ اللّوْمَ إغْرَاءُ
وداوني بالّتي كانَت هي الدّاءُ
صفراءُ لا تَنْزِلُ الأحزانُ ساحتَها
لو مسّها حَجَرٌ مَسّتْهُ سرَّاءُ

وقول حسّان:

إنّ التي ناولَتني فشربتُها
قُتِلَتْ، قُتِلْتَ، فهاتها لم تُقْتَلِ
كلتاهما حَلَبُ العصير فهاتها
بزُجاجةٍ أرخاهُما للمَفْصِلِ
بزجاجةٍ رَقَصَتْ بما في قَعْرِها
رَقْصَ القَلُوْصِ براكبٍ مُسْتَعْجِلِ

وقول ابن الرُّوميّ:

وصفراءَ بِكْرٍ لا قذاها مُغَيَّبٌ
ولا سرُّ مَنْ حَلَّتْ حَشَاهُ مُكَتَّمُ
يَنِمُّ على الأمرَيْنِ فَرْطُ صَفائها
وسَوْرَتُها حتّى يبوحَ المُجَمْجِمُ
هي الوَرْسُ في بيْضِ الكُؤُوسِ فإن بَدَتْ
لعَيْنَيْكَ في بيْضِ الوُجُوْهِ فعَنْدَمُ

ومن تراكيبهم المتّصلة بالشّراب:

بَرْدُ الشّراب: يتمثَّلون به في كلِّ محبوب، وعند كلِّ مُشتهى؛ قال عمر بن أبي ربيعة:

قالَ لي صاحبي ليَعْلَمَ ما بي:
أتُحِبُّ القَتُوْلَ أُخْتَ الرَّبابِ؟
قلتُ: وَجْدي بها كَوَجْدِكَ بالما
ءِ إذا ما عَدِمْتَ بَرْدَ الشَّرابِ

يريد: عند الحاجة، وبذلك يَصِحُّ المَعْنَى.

وفي المثل: أحسنُ من بُرْدِ الشَّبَاب، وأَطْيَبُ من بَرْدِ الشَّراب.

ومن كلام للصاحب بن عبَّاد : كلامٌ كبُرْدِ الشَّباب، وبَرْدِ الشَّراب. كلام يهدي إلى القلوب رَوْحَ الوصال، ويهبُّ على النُّفوس هبوب الشّمال.

ويُروى أنَّ عليًّا رضي الله عنه سأله سائلٌ، فقال: كيف كان حبُّكم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ فقال: كان، والله، أحبَّ إلينا من أموالنا وآبائنا وأُمَّهاتنا وأبنائنا، ومن بَرْدِ الشّراب على الظمأ.

وقال بعض الأعراب:

حديثُك أشْهَى فاعلمي لو أنَالُهُ

إلى النَّفْسِ مِنْ بَرْدِ الشَّرابِ على الظَّما

لقد أَكْثَرَ الواشون فيك ملامتي

فكانوا بما أَبْدَوا من اللَّوم أَلوما

ومن رسالة للصاحب أيضًا: كلامٌ كبَرْدِ الشَّراب على الأكباد الحرار، وبُرْدِ الشَّباب في خَلْعِ العذار.

خَلْعُ العذار: من كناياتهم عن تَرْكِ الحياء وركوب هوى الغَيّ واللّهو.

قَذَاةُ الكُوز: تُضْرَبُ مثلاً لِمَا يُؤْذي على قلّته وحقارته.

القذاةُ: ما يقع في العين والماء والشَّراب من تراب أَوْ تبن أَوْ وسخ أَوْ غير ذلك. وفي الأثر: هُدْنَةٌ على دَخَنٍ، وجماعةٌ على أقذاء. أراد أنَّ اجتماعهم يكون على فساد من قلوبهم، فشبَّهه بقذى العين والماء والشَّراب.

الكوز: الكُوبُ له عُرْوَةٌ، والجمع أكوازٌ وكيزانٌ.

وحكى الجاحظ عن جعفر بن سعيد: الخلافُ مُوَكَّلٌ بكلِّ شَيءٍ حتّى قَذَاة الكُوز؛ إنْ أردتَ أنْ تَشْرَبَ جاءتْ إلى فيك، وإنْ أردتَ أنْ تَصُبَّ من رأس الكُوز لتَخْرُجَ رَجَعَتْ!

وقال بَعْضُ المكابدين في خَلْعِ العذار لِمَنْ سابَّهُ: يا قَذَاةَ الكُوز، يا صَوْمَ تَمُّوز، يا بَرْدَ العجوز، يا درهماً لا يَجُوزُ.

داعي اللَّبَن: من أمثال العرب: دَعْ داعيَ اللَّبَن، أَيْ أَبْقِ في الضَّرْعِ بَقِيَّةً من لَبَنٍ، ولا تستوعبْ كلَّ ما فيه؛ فإنَّ الذي تُبْقِيه فيه يستدعي ما وراءَه من اللَّبن.

رَضَاعُ الكأس: يدخل في باب الاستعارات، وقَدْ أكثروا فيه، قال الشَّاعر:

وإنَّ رَضَاعَ الكَأْسِ أَعْظَمُ حُرْمَةً

وأَوْجَبُ حَقًّا من رَضَاعِ لِبانِ

وقال دِعْبِلٌ الخُزَاعِيُّ:

اذكرْ أبا جَعْفَرٍ حَقّاً أَمُتُّ بِهِ

إنِّي وإيَّاكَ مَشْغُوفانِ بالأدبِ

وإنَّنا قد رَضَعْنا الكَأْسَ درَّتَها

والكَأْسُ درَّتُها مِنْ أَقْرَبِ النَّسَبِ

وقال آخر:

اقرِ السَّلامَ على الأمير وقُلْ له:

إنَّ المُنَادَمَةَ الرَّضَاعُ الثَّاني

خَمْرُ بَابِلَ: تفنَّنُ العرب في وصف خمر بابل، وتراه أجود الخمور. وبابل: سِرُّ العراق؛ ويُقَالُ: إنَّ بغدادَ مِنْ أَرْضِها. قال ابن عائشة القُرشيُّ:

لَمَّا رأيتُ الدَّهْرَ دَهْرَ الجَاهِلِ

ولَمْ أَرَ المغبونَ غَيرُ العاقِلِ

شربتُ خَمْراً من خُمُورِ بَابِلِ

فصرتُ من عقلي على مراحِلِ

وقال ابن الرُّوميِّ:

أَلا نَسّيا نَفْسي حديثَ البَلَابِلِ

بِمَشْمُولَةٍ صَفْرَاءَ من خَمْرِ بَابِلِ

وقال الثَّعالبيُّ في «المُبْهِج»: ليس للبَلَابِلِ، كخَمْرِ بَابِلَ، على غِناءِ البَلَابِلِ!

نسيم الرَّاح: يُضْرَبُ به المَثَلُ في الذّكاء والطِّيب، وقد عقد له السَّريُّ الرَّفّاءُ فصلاً جَمَعَ فيه ما استحسنه من أقوال الشُّعراء في رائحة الخمر، قال السَّريُّ في استزارة صديق له:

نفسي فداؤك كيف تَصْبِرُ طائعاً

عن فتيةٍ مثلِ البُدُورِ صِبَاحِ

و غَدَوا لراحِهِمُ و ذِكْرُكَ بَيْنَهم

أَذْكَى وأَطْيَبُ من نسيمِ الرّاحِ

سُكْرُ الولاية: من أبيات التمثيل والمحاضرة قول ابن المعتزِّ:

سُكْرُ الولايةِ طَيِّبٌ وخُمَارُهُ صَعْبٌ شديدُ

كَمْ تائهٍ بولايَةٍ وبعَزْلِهِ رَكَضَ البريدُ

وقال الآخر:

سكرتَ بإمرة السُلطان جداً
فلم تعرفْ عَدُوَّكَ من صديقكْ
رُوَيْدَكَ من طريقٍ صرتَ فيه
فإنّ الحادثات على طريقكْ

سُكْرُ الشَّباب: يُقَالُ: إنَّ سُكْرَ الشَّبَابِ أَشَدُّ من سُكْرِ الشَّراب.

ويقال: السُّكْرُ ثلاثٌ: سُكْرُ الشَّباب، وسُكْرُ الولاية، وسُكْرُ الشَّرابِ، وهو أَهْوَنُها.

وقد بلغ بهذه السَّكَرات خَمْساً مَنْ قَالَ وأَحْسَنَ:

سَكَرَاتٌ خَمْسٌ إذا مُنِيَ المر
ءُ بها صارَ أُكْلَةً للزَّمانِ
سَكْرَةُ المالِ والحداثة والعشْ
قِ وسُكْرُ الشَّرَابِ والسُّلطانِ

بُغْضُ الخُمَار: يُضْرَبُ مثلاً لِمَا يُستثقلُ؛ ولذلك قيل: لو أنَّ المخمورَ يعرفُ قصّته، لقَدَّمَ وَصِيَّتَهُ!

الخُمار: ما يُصيبُ شارب الخمر من أَلَمِها وصُدَاعها وأذاها.

وفي المثل: ما أطيبَ الخَمْرَ لولا الخُمَارُ!

وقال الشاعر:

إذا أنا مَيَّزْتُ الخُمَارَ وَجَدْتُهُ
يُكَدِّرُ ما في الخَمْرِ منْ لَذَّةِ الخَمْرِ
فأُحْجِمُ عن شُرْبِ المُدَامِ مَخَافَةً
على جسدي من أَنْ يؤولَ إلى ضُرِّ
وإنَّ امرأً يَبْتَاعُ سُكْراً بصحَّةٍ
لفي سَكْرَةٍ تُغْنيه عن لَذَّةِ السُّكْرِ

المصادر:

- الأشربة وذكر اختلاف النَّاس فيها لأبي محمَّد عبد الله بن مُسْلم بن قُتيبة الدِّينوريّ (ت٢٧٦هـ)، رواية أبي محمّد عبد الله بن جعفر بن دُرُسْتُوَيْه النَّحْويّ، تحقيق ياسين محمَّد السّوّاس، دار الفكر، دمشق،ط١، ١٩٩٩م.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل الثَّعالبيّ النَّيسابوريّ (ت ٤٢٩ هـ)، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط ١، ١٩٩٤م.
- الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السّلام هارون، دار إحياء التُّراث العربيّ، بيروت ، ط٣، ١٩٦٩م.
- لسان العرب لابن منظورٍ المِصريّ الإفريقيّ (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت.
- الماء لأبي محمَّد عبد الله بن محمَّد الأزديّ الصّحاريّ (ت ٤٥٦هـ) ، تحقيق هادي حسن حمّودي، وزارة التُّراث القوميّ والثَّقافة، مسقط، ط١، ١٩٩٦م.
- المحبّ والمحبوب والمشموم والمشروب للسَّريّ بن أحمد الرَّفَّاء (ت نحو ٣٦٢هـ)، تحقيق مصباح غلاونجيّ وماجد الذّهبيّ، مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق، ١٩٨٦م.

شتاءات ريفيّةٌ قاسية
(ريف مصياف)

د. فكتوريا فائز سعود

-١-
شتاءاتٌ جبليّةٌ قاسية

يزحفُ الشّتاءُ ببرده اللّاذع، وأمطاره الغزيرة، وتجهّم محيّاه باكراً إلى تلك الرّبوع، فعلى ألسنة العجائز تتردّدُ مقولة: «برد تشارين بيعلّم بالمصارين». لكنّ أبناءَ الجبل اعتادوا قسوةَ الطّبيعة، وشظفَ العيش، وتحمّل تبعات شتاءٍ ثقيل يمتدّ طويلاً، ويجعلُ من بعض القرويّينَ البائسين الذين ضاقت بهم سبلُ العيش، أن يستضيفوا شتاءً في أيّام الثّلج والصّقيع أبقارَهم، وبعضَ حيواناتهم، ويفردوا لها زاويةً من البيت التّرابيِّ الواسع، ذي الغرفة الواحدة، وقد توسّطته «دفيّةٌ» تُلقى فيها قرماتٌ من الحطب اليابس ليلاً نهاراً، وتعلو في أرضه سواميكُ خشبيّةٌ ثقيلة تطالُ السّقفَ، لتسندَهُ، وتحفظَهُ من الانهيار. وقد أُسندت في زاوية متنحّية أشوالُ التّبن، وأكياسُ الشّعير، وفي مكانٍ آخرَ تربّعت جرّةُ الماء، وقد رُبطت إلى أُذنها طاسةٌ نحاسيّةٌ للشّرب.

في زاوية أخرى، وعلى مسطبة تقفُ بإجلال بعضُ الخوابي الطّينيّة التي تُديرها النّسوة بأيديها صيفاً من الطّين، والتّبن القاسي، وتتجدّدُ سنويّاً، إذ تقبعُ في أحضانها الدّافئة مؤونةُ العام من الحنطة، والذّرة، والحمّص، والعدس، وكثير من التّين المطبوع وسواها، فتبدو وكأنّها لُقىً أثريّةٌ، تُشبهُ المدافنَ الفينيقيةَ. وفي جوفِ الحيطانِ البيضِ المطروشةِ

بالحـوّار، توزّعـت طاقـاتٌ صغـيرةٌ أشبـهُ بالمشكاة تكـون مستودعاً لقشوات صغـيرة، جُدلت من قصب السّنابـلِ، وصارت مكاناً آمناً لـكلّ ما صغُرَ ودقَّ من الحوائـجِ كخيطان السّلوك، والإبرِ مختلفة الحجوم، وعلبِ الكبريـت، والبخّـور، والملح، وبعض التّوابل. ولقد تفتّـق ذهنُ القـرويِّ عن حيلـة للاستفادة من فضاء البيت بعرزال، ينامُ فيه الأطفالُ، يصلون إلى علّيته بوساطة سلّـم خشبيٍّ آمن. وهكذا يغدو البيتُ الترابيُّ أكثرَ اتساعاً، فلا يتورّعُ عن استضافة سقالة خشبيّـة، تمرحُ عليهـا دودةُ الحريرِ مـع تفتّح أوراقِ التّوت في الرّبيع.

المساءاتُ واللّيـالي القرويّة يُنيرها مصباحُ الكاز، فيبـدّد وحشـةَ الظّلمـة، ويحلـو التّحلـقُ حـول النّـارِ المتأجّجـة في دفيـة البيـت، والتحليـةُ بالتّمـر والتّين، والتّسليةُ بالحمّص المشويِّ بين الجمرات.

كان السّـراجُ يستمـدُّ شُعلَتـهُ من زيـت معبّأ في خزّانـه المستطيـل، فيسهلُ حملـهُ على ربّـة البيت، التي تنـبري في الصّباحات الباكرة لحلـب بقرتهَا، وعلفها، والتّنظيف حولَها حتّى قبلَ أن يستيقظَ باقي أفراد البيت.

قـد يبدو هذا الوصفُ غريباً علـى أسماع النّاس في هـذا الزّمـن المتحضّر، وربّمـا بدا لهـم مُقزّزاً، ومنفّـراً، ولا يحتملونَ حتّى ذكرهُ. لكنّ أولئكَ النّاسَ الطّيبـينَ كانوا مـن البساطة، والإذعـانِ لأقدارهم بحيـثُ ألفـوا هـذا النّمـطَ مـن الحيـاة، إذ لا قبل لهـم بالعيشِ دونَه. وربّمـا أعانَهم هـذا التّأقلمُ مع الظّـروف الصّعبة على البقاء أحيـاءً لعقود وقرون، بعـد التّنكيـل بهـم، وتهجيرهـم إلى تلـك الجبـال ظُلماً وتعسّفـاً من سلطانٍ جائر. فالتقى كبرياؤهم، ونزعتُهـم إلى البقـاء بشموخ هذه الجبـال، وثباتها في الأرض، وأكرمتهم بسفوحهـا مدرجات غُرست فيها أشجارُ التّين، والكرمة، والزّيتون، لتغدو الحياةُ جديرةً بأن تُعاش.

استضافـةُ الحيـوانِ الأهلـيِّ الحلـوبِ كان رِفقاً بكائنٍ لطيفٍ لا مندوحةَ لهم بالعيش دونه. فهو حليبُ أطفالهـم، وسمـنُ جرارهـم وشنكليشُ فخّارهـم، ولبنهم يُطهى به القمحُ المقشور، هو بقاؤهم، وأساسُ معيشتهم، وأخيراً هو الدرُّ كما يُسمّونهُ، الذي يُعادل عندهـم كنوزَ الدّنيا، فكيـف إذا كانت الضّيفةُ بقرةً صفـراءَ فاقعاً لونُها بضروعها الممتلئـة حليباً سائغاً طعمُـه؟ التي مـا إن يسري الـدّفءُ في الأجواءِ حتّى تبدأ بالخـوارِ لتخرجَ إلى الفناء، فتُربطُ بحبلٍ ثخينٍ إلى جـذعِ توتـة حانيـة في فناءِ أمـامَ الـدّار، آه كم كنتُ أرتعدُ خوفـاً من تلكَ البقـرة الصّفراء المعتدّة بلونهـا ورشاقتهـا، فأتنحّى عنها جانبـاً كلّما مررتُ قربَهـا ، إذ تهمـرُ عليَّ غيرَ آبهـة بطفولتي الواعدة، كانت بقرةُ جارتنـا حمقاءَ مغفّلة؛ إذ كانت تجهلُ أنّ حبلَها قصيرٌ، وأنّها مهما أوتيت من مجونٍ، وسكرت بخمـرةِ هرموناتهـا الشّابـة، فلـن تقوى علـى غرزِ قرونها الحادّة المعقوفة في بطني، وربما رفعي عالياً، ورميي أرضاً بلا حراك.

في بدايـة الصّيـف رحـتُ أرقُبُهـا، وهـي ترمقني بنظرات وادعة، هادئة، مطمئنّة. فقد كان لها ما كان، فهـدأت ثائرتُها، وأخـذ بطنُها يكبرُ بانتظـارِ «عِجْلَة» ستكونُ صورةً كاملةً عن أمّها...

ذاتَ شتـاء قُيّضَ لي أن أدخل بيـتَ جارتنا، "أمّ منيرة" طلباً لفنجانٍ مـن «الرّوبة»، فرأيتُ بأمِّ عيني كيـف استحـوذت بقرتُهـا على زاويـة البيـت القريبة من البـابِ الخشبيِّ الواسع، والعـالي، ليسهلَ دخولُها وخروجُهـا إلى الدّار، ولتنعمَ بالنّورِ الذي تعشقهُ حالما يُفتـحُ البـابُ، ثـمّ لتتسرّبَ روائـحُ روثِهـا، التي تزكمُ الأنوفَ إلى الخارج.

وفي تلكَ الشّتاءاتِ القاسية، كانت الصّبايا يعقدنَ العزمَ للخروج إلى الحرش، في أيّام المطر، والزّمهرير. يحدوهنَّ إحساسٌ بالمجازفة، والرّغبة الملحّة في إطعام

الماعـز، الذي تعـذّر سَوقُه مـع الرّاعي، وظـلّ حبيسَ الزّرائبِ، ولكنّهُ بأمسّ الحاجةِ إلى القضمِ، والاجترارِ وتدفق الحليبِ من الضُّروعِ.

تستيقـظُ النّسـوةُ عنـدَ الفجـرِ يحملـنَ بأيديهنَّ السُّـرجَ التي تُملأ زيتـاً، للإضاءةِ الخافتـةِ، ويجلسنَ القُرفصـاءَ، وهنَّ يحلـبنَ الضّروعَ الطّافحـةَ، فيُسمعُ لذلك صوتٌ يتدفق في السّطولِ النُّحاسيّةِ مع كلِّ حركةٍ من الأصابعِ تضغطُ، فيشلقُ الحليبُ، ثمّ ترتخي ليعودَ ويمتلئَ، مُحاكيةً بذلـكَ حركةَ القلبِ الأزليّةَ بالتّقلصِ والاسترخاءِ.

الصّبايـا في تلـك الشّتـاءاتِ البـاردةِ، وتحـت المطـرِ يخرجنَ جماعـاتٍ جماعـاتٍ في مَهَمّةٍ ليست سهلـةً. إنهنَّ لا يحملـنَ حقائبَهنَّ المُنتبجـةَ بأدواتِ الزّينـةِ، والعطـورِ، كما تفعل بناتُ المـدنِ، بل حبالاً طويلـةً، ثخينةً، سوداءَ فاحمةً، مجدولـةً من أشعارِ الماعـزِ، ويتأبطـنَ مناجلَ وكعـكاتٍ قماشيّـةً ثخينةً تحمـي الرّؤوسَ مـن ثقلِ وخشونةِ أغصـانِ القطلبِ والسّنديـانِ. تبتعـدُ الصّبايـا المعتـدّاتُ بجمالهنَّ، وقاماتهـنَّ الرّشيقـةِ، وينأيـنَ عـن الأنظـارِ، وهنّ يصعـدنَ مرتفعـاً جبليّـاً إثـرَ آخـرٍ، حتّـى يظفرنَ بالحرشِ الأخضـرِ، الملتـفِّ. تنحنـي الواحـدةُ منهـنَّ، وتأخـذُ بتقطيـعِ أغصـانِ السّنديـانِ داكنِ الخُضـرةِ، شائكِ الورقِ، والقطلـبِ عريضِ السّاقِ، زاهي الخُضـرةِ، أملسِ الورقِ، تتعـالى في الأجواءِ ضَحكاتُهـنّ التـي يتشرّبُهـا المدى المتّسـعُ، ويتلقّفُها الغمـامُ، الذي تكاثفَ وانحنى حتّى كاد يُلامسُ قممَ الجبالِ، فتنـزاحُ عن القلبِ الهمومُ، وتثقـلُ الأسرارِ الحبيسـةِ، وتنتشـي الشّاباتُ بعبقِ البريّـةِ، ورائحةِ الطّبيعـةِ، فتنداحُ على الشّفاهِ قصصُ العشقِ التي ظلّت طيّ الكتمـانِ أمداً طويلاً، ثـمّ تتعالى أصواتٌ تحكي عـن حـبٍّ دامَ طويـلاً، وعرسٍ بـاتَ وشيكاً، فتعلو الفرحةُ وجوهـاً تعرّقت، واحمرّت، وهي تهمي بالمناجـلِ علـى أعنـاقِ الأغصـانِ فتُرديهـا أرضاً، فيتلاشـى التّعبُ، وتُشحَذُ الهِمَمُ، حتى يخيّلَ للنّاظرِ أنّ تلـك الزّنودَ القويّةَ لا تقطـعُ السّنديانَ، بل تتلوّى برقصٍ جميـلٍ في عرسٍ بات علـى الأبـوابِ لفتى الأحلامِ، لابنِ الجيران.

لا بـدَّ مـن استراحـةٍ، وتنهيـدةٍ قبـل أن تُمَـدّ الأغصـانُ فـوقَ الحبـلِ الأسـودِ الطّويـل، بحيـثُ تتداخلُ السُّـوقُ الثّخينةُ في الوسطِ وتتشابكُ، بينما تُـترَكُ الأطرافُ كثيفةُ الـورقِ سائبةً من الجانبين. يُشَدّ الحبلُ جيّداً، ويُعقَدُ من نهايتِه المتّصلةِ بقطعةٍ خشبيّةٍ معقوفةٍ.

ها قد جرّزت الصّبيةُ حملتَها، التي تتباهى بثقلها وكأنّهـا تحصـدُ جائـزةً في مهرجـانِ أعـدّهُ الشّبابُ المعجبـونَ. فتقرفصُ إحداهنّ، وتَـردُّ زميلتُها الحملةَ علـى رأسِها، والآن ما عليهـا إلّا أن تنهضَ، وتنطلقَ في طريـقِ العودةِ متشبّثةً بكلتا يديهـا المرفوعتينِ بالحبلِ المتينِ. الأقـدامُ تضغطُ بقـوّةٍ وسرعـةٍ، ويُسمَعُ صوتُ ارتطامِهـا بالأرضِ، العينـانُ مفتوحتـانِ، متنبهتانِ، تنظـرانِ بثباتٍ إلى الأمامِ، ولا تحيدان أبداً عن ساحةِ الرّؤيةِ الضّيقةِ.

تُحمَلُ هذه الحملةُ مـن الأغصانِ الخضرِ الكثيفةِ الملتفّـةِ علـى الرّؤوسِ، وقـد زادَ المطرُ، الـذي ما يفتأُ يهطـلُ منـذ الصّبـاحِ الباكـرِ دون توقّـفٍ، ثقـلَ هذه الحمولةِ، التـي لا تجرؤ على حملهـا إلا كلُّ أنثى اشتدّ عودُها وراحَت بصبرٍ ولهاثٍ لا ينقطعُ تهبطُ المرتفعاتِ لتصلَ إلى القريـةِ، وترمي بثقلِ حملِهَا في فناءِ الدّارِ، وقد تـوردّت الخـدودُ، وتصاعدت الأنفاسُ، وتنهّدت الصّبيةُ، وهـي تستذكرُ أغنيةَ «جفلـة» ذائعةَ الصّيتِ بكلماتِهـا المعـبّرةِ، ولحنها الرّشيقِ مـن قريةٍ مجاورةٍ تدعى«ديـر ماما»، وقد خلّدت اسمهـا حمْلةٌ ثقيلةٌ من حطبِ السّنديان.

-٢-
عنزةُ الصّبحا

الشّتاءُ البـاردُ الطّويلُ يُطبـقُ بكلكله على هذه القريـة الجبليّة الوادعة، فيزيدهـا وحشةً وكآبةً، وها هي تتّشحُ بـرداءٍ رماديٍّ باهتٍ سرعانَ ما يزدادُ عتمةً مع غروب الشّمس.

والنّاسُ، الذين غادروا صيفاً هذه القريةَ محدودةَ المـوارد، وتوجّهوا شرقـاً إلى السّهول الواسعـة الغنيّة بقمحهَـا، وقطنهـا، عـادوا بغلالهـم يتحلّقـون حول المواقـد أو المدافـئ، التـي زحفت إلى بعض البيوت. وفـوق نارِ الموقد، التي لا تنطفئ إلّا قبيلَ النّوم، يُطهى طعامُ الصّباحِ السّاخنُ، فتعبقُ في الجوِّ رائحةُ الكشك النّافذةُ، أو العدسِ المجروشِ مختلطةً بدخانِ الحطبِ المحـترق، ولن يطول الانتظارُ حتّـى يُفرّغَ قدرُ الحساءِ بأكملـه في تبسيـة نحاسيّة عميقـة. اللّهـبُ يتصاعدُ ليلامسَ الوجوهَ، ويعبقَ في الأرجاءِ مخلّفاً آثارهُ النّديّةَ علـى الجدران، وربّما يطالُ جـذوعَ الحورِ الممتدّة على السّقف كجنودٍ صامتينَ لا تندُّ من أفواههم أيّةُ شكوى.

الأسـرةُ بأكملها تتحلّقُ بصمتٍ مُطبقٍ لتبدأ حكايةٌ مـن عـراك الملاعـق الخشبيّـة، أو المعدنيّـة أحياناً، وتمتلـئ البطـونُ الجائعـةُ ممّا يخفّـفُ وطـأةَ البرد، مخلّفاً شعوراً بالرّضا، والامتلاءِ من خبزٍ كاملٍ تشرّبَ المـرقَ في تبسية النّحاس، وسمـحَ بتأجيلِ وجبةِ الغداءِ لتطـولَ ساعـاتُ العمـلِ في النّهـار تحت ضـوءِ شمسٍ مُحتجبـة بالغمام، فكيف بهـا إذا توارت خلف الجبالِ ورحلـت غرباً مودّعـةً هذا النّهارَ القصـيرَ، ليبدأ ليلٌ طويلٌ، تُزيلُ وحشتَهُ حكاياتُ السّمرِ، وإضرامُ المواقدِ، وأكلُ هبابيلِ التّينِ والزّبيب؟!

خرجَ النّاسُ من بيوتهم يتلمّسونَ مصدرَ الصّوت، الذي تحملُهُ الرّياحُ بذبذبـات متقطّعة، الصّوتُ قادمٌ من بعيد، مـن هناكَ حيثُ السّماءُ تـكادُ تُلامسُ قممَ الجبـالِ، كأنّ هناك قامةً عاليـةً لا يُستبانُ شكلُها، ولا أيٌّ من معالمِهَا، تقفُ على حدودِ المدى واليدانِ تُحيطانِ بالفـم بحيث يُعطي للصّوتِ قـوّةً، وزخماً، وقدرةً على الانطلاق إلى بعيد.

ولم يكـن سهـلاً أن تلتقـطَ الأذانُ صـوتَ المُنادي المُرتجـف، وقـد حملتـهُ الرّيـحُ وبدّدتـهُ، وأن يُعـرفَ الشّخصُ المعني بالنّداء. عاد الصّوتُ بالنّبرةِ الكلمات نفسيهما، بحيث استقرَّ جيّداً في سمعِ أمي، فبدا التّوترُ والقلـقُ مرتسمين على وجهها المتعب، ليخفيا جمالاً لم تكـترث به يوماً في زحمة الحياة المتلئة حركةً، ودأباً، وسعياً، وعملاً، لا يعرفُ الهُدنة. تنظرُ أمّي حولَها، فلا تجدُ من ترسلـهُ في مهمّة إلى أعلى الجبل، فقرّرت أن تذهبَ بنفسهَا مستعينةً بفتى غيورٍ من الأقارب.

وحـين تناهـى إلى أذني أمّـي عنـد الضّحى ذاك الصـوتُ البعيدُ، وخرجـت تُصيخُ إليه بـكلّ جوارحهَا علّهـا تقرأ الشّيفـرةَ، التي حملتها الرّيـحُ، وأيقنت أنّ الرّاعـي يُناديهـا، كنـتُ في الرّابعـة من عمـري أقفُ علـى عتبة غرفـة الضّيـوف الحجريّة الواسعـة، التي تطـلُّ ببابهَا الحديديِّ الملوّن بالأخضرِ الزّيتيِّ، ومزيّن بمعيّنـات بيضاءَ إلى الشّمال. وكثيراً ما كانَ يطيبُ لي أن أجلسَ متربّعـةً في حضـنِ نافذتهَـا الشّماليّة التي تتّسعُ ليسَ لجسدي الصّغير بل ربّمـا لشخص كبير، أرقُـبُ بشغف ذاكَ الشّـلالَ المُتلاحقَ من المطر، الذي يتدفّـقُ من جهة الغـرب، ويمرّ بسرعة الرّيـح أمواجاً متساويـةَ الاتّسـاع أمـامَ جبـلِ الميمنة المهيـب، فتبدو السّمـاءُ متّصلةً بالأرض، ويطيـبُ لي أن أبدأ بعَدِّ تلكَ الأمواج بصوتٍ مسموعٍ لكنّني سرعانَ ما أفقدُ القدرةَ علـى المتابعـة، وقد شـردَ ذهنـي، فأعودُ للعـدِّ مرّات ومرّات، فهذا المشهـدُ الفريدُ لا يُرى إلّا في هذا المكانِ أمامَ جبلِ الميمنة وحدَه لا سواه.

الصّـوتُ الذي أرسلـهُ راعي القطيـعِ منادياً أمّي، ومُوعـزاً إليهـا بـأنّ «عنـزة الصّبحـا، جابـت تبـع» أربكنـي، كما أمّي. ورحتُ أتساءلُ: لماذا لم تُرجئ هذه العنزةُ ولادتَها إلى حـين عودتها مساءً مع القطيع إلى حظيرتهـا؟ ولمَ تتعرّضُ هذه الأنثـى الجميلةُ لتجربة

الـولادة في العراء البارد؟ ثمّ ما ذنبُ أمّي هذا المخلوقُ الطّيـبُ، والصّامتُ لتختارَها عنـزةُ الصّبحا من بين كلِّ نسـاءِ القريـةِ، وتضطرّها لتغذَّ السّـيرَ غرباً، وقد تلحّفـت بـواقِ سميكٍ مـن المطر. فتجتـازُ النّبـعَ، ثمّ تنحرفُ يميناً، وتبدأُ رحلةَ الصّعودِ الشّاقة، والمُضنيةِ في الطّريـقِ الجبليّة، المتعرّجـة، لتصلَ أخيراً إلى قمّةِ الجبـل، والتي تبدو للنّاظرِ من الأسفـل، وكأنّها نهايةُ الأفـقِ، ولكنّكَ وأنـت تصلُ إليها تنـداحُ أمامَكَ بيوتُ قريـةٍ أخرى، يعمـلُ سكّانُهـا بالرّعي، وزراعـةِ التّبغ. لا وقـتَ للرّاحـةِ، ولا لتنعـمَ أمّـي، ولو للحظـاتٍ بتلكَ الجبـالِ البعيـدةِ، التي تُوصـل إلى قريتهـا في أعالي الجرودِ الغربيّـة. وإخالُها أوقفت دمعةً في محاجرها، وهـي تتذكّرُ أمّها، وأباها، وإخوتَهـا السّتة. لكنّها وقد اعتـادت تلـكَ المشاعرَ، وأدمنـت كبتَهـا، راحت تُلقي بنظراتِهَا الحزينةِ على عنزتِها الأثيرةِ، وربّما تتبادلانِ الفهمَ في مثلِ هذهِ المواقف.

آثارُ الولادةِ تنداحُ علـى الأرض، والجديُ الصّغيرُ يُشبهُ أمّهُ بنجمـةٍ بيضاءَ في مقدّمةِ الرّأس، راحَ يتعثّرُ محاولاً الوقـوفَ، ومجابهةَ ظروفِ الحيـاةِ الجديدةِ. انحنـت أمّي، وأمسكت بالمولودِ الجديدِ، ولفّتهُ بقماشٍ سميـكٍ، وأودعتـهُ صدرَهَـا الحنونَ، وراحـت بعينيها الخضراوين تُلقي بنظراتٍ مُطمئنةٍ إلى العنزةِ الولودِ، التي ردّت إليها الجميلَ بأن أغمضت عينيها شُكراً، ثم فتحتهمـا بذبولٍ وتراخٍ مرّاتٍ عديـدةً، فكأنّها أنشدت أبياتاً من الشّعرِ لا تُنسى.

بعـد أن تدفّأ الرّضيعُ «التّبع» في حضنِ أمّي، حملَهُ الفتى، وراحا يهبطانِ الطّريقَ التي شقّتها الأقدامُ بين الأحراشِ، ويردّانِ التّحايـا المضمّخةَ بتمنياتِ العافيةِ على أناسٍ يحملونَ أكياسَ الحنطةِ هبوطاً إلى طواحينِ قريتنـا الغارقةِ بالمـاءِ، وأكياسَ الطّحـينِ صعوداً على ظهورِ دوابّهم، أو جرارَ الماءِ من نبعنا المعطاء.

هاهـي أمـي تدخلُ البيـتَ التّرابـيّ أسفـلَ دارِنَا، والـذي يستضيـفُ الماعـزَ، والدّجـاج، وبيـوتَ حمامٍ تحـتَ امتدادِ سقفِه. تُشعلُ أمّي النّارَ، وتُجفّف الجديَ الصّغـيرَ مـن رطوبةِ الـولادةِ ودمائها. ثـمّ تحضرُ له بعضـاً من الحليـب، فيشربـهُ بشهيّةٍ كأنّـهُ جائعٌ منذ زمنٍ، وهو مازال في بطنِ أمّه.

صعدت أمّي الـدّرجَ العريضَ، وفتحت بوابةَ البيتِ الحديديّـة، وتاهـت في غرفةِ المطبـخِ تُكمـلُ أعمالَها المنزليّة، وقد انزاحَ عن كاهلها حملٌ ثقيلٌ.

كانت صورةُ أمّي المُحبّةِ للعملِ قد انطبعت جيّداً في ذهنِ جدّتي لأبـي، التي أُعجبت بها جمالاً واتّزاناً، ثمّ اختارتها عروساً لأبي لإجابتهـا الصّريحةِ بأنّها تقومُ بأعمالٍ كثيرةٍ عند أهلها.

في صباحِ اليومِ التّالي كان صحنُ الشّمندورِ اللذيذِ هديّةً من عنزةِ الصّبحا يتربّعُ على مائدةِ الفطور.

في أرضِ الربّاص

الشتـاءُ الماطـرُ، والـبردُ القارسُ لم يحـولا بيننا وبين نزهـةٍ خطّطنا لها منذ البارحة. وها نحن نتّجه شرقـاً، ثم ننعطـفُ شمالاً لنهبطَ طريقـاً ضيّقةً بين الحقولِ المُقفـرةِ إلّا من شجرِ التّوتِ والتّين، والمذعنةِ لقسـوةِ الشّتـاء، والمبتهلةِ بـأذرعٍ عاريـةٍ تمتـدُّ في كلِّ اتجـاهٍ إلى السّماءِ كي تغمرَها بالنّعمى، وتُغدقَ عليها الخـيرَ الوفير، فإذا بالمطرِ ينسكـبُ رهاماً بلا توقّفٍ منذ أيّام.

وقـد بدا لنا والنّبع لمْ يتفجّرْ بعدُ أنّنا قادرتان على تخطّـي النّهر، يحدونا الأملُ، والنّزعةِ إلى التّجوال أن نتجـرّأ، ونخطـو على حجـارةٍ كبيرةٍ أُلقيـت في سريرِ النّهرِ تُتيـحُ للعابرين بين الضّفتين أن يجتازوا مياهَه، التـي ارتفع منسوبُها عن المألـوف، لكنّه لم يَفِضْ بعدُ. نُحـاذر ألّا تبتـلَّ أطـرافُ أثوابنـا الطّويلـة، فنرفعها بيـد، ونمدُّ اليدَ الأخرى جانبـاً باستقامةٍ تُحافظ على التّـوازن، وقـد طفقـت أجسادُنـا الغضّةُ تميـل يميناً وشمـالاً في تخوّفٍ وحذرٍ كيلا نسقـطَ، ويجرفَنا الماءُ،

ونحـن نقفـزُ قفزاً مـن صخـرةٍ إلى أخـرى. وإذا بنا نرتمي في أحضانِ أرضِ الرّباص. تنفسّنا الصّعداء، ورحنا نمشي الهوينى بمـوازاةِ ضفّة النّهر، التي نمت عليها فروعٌ كثيفةٌ متشابكةٌ، ومتعانقةٌ من الدّيس، وقد اشرأبّت على رؤوسِها ذؤاباتٌ خضرٌ يانعة. فتعود بنا الذّاكـرة الى أوقـاتِ التّسكـعّ على الضّفـاف، وقطف حبّات الدّيس الحمراء، والسّوداء في الصّيف اللّاهب ثمّ الارتماء في مياه النهر العذبة المنعشة.

أرضُ الربّاص مترامية الأطرافِ شاسعةٌ، لا تُشبه أرضـاً أخـرى؛ ليـس فيها مـن شجرة واحـدة. وتبدو للنّاظـر مرجاً أخضرَ بلا حدود. يكادُ يصلُ إلى أقدام جبـلِ الميمنـةِ المهيب. فلا يجـد أحدُهـم مندوحةً في رعي بقرتـه المدلّلة التي يربطها بحبـلٍ طويلٍ مطمئنّاً إلى أنّهـا لـن ترفع رأسهـا، وهي تقضم مـا طاب لها مـن الحشيش النّضـر، والنّفلـة الخضـراء الداكنة. وهو يرسـلُ مُضطجعاً على العشب أشعـارَه ومواويلَه، التي تحكي عن الحبِّ والفـراق، وعن العشقِ والغرام، والحيـاةِ الرّيفيّـةِ، وضنـكِ العيشِ في ذلـك الزّمان الصّعـب، المُقـلّ والمُجحـف. وإن كان لرعي الخِراف، والجِـداء صيفاً، التـي تُسَمّـنُ للأعياد ووفـاءً للنّذور جمـالٌ ومعنى، والأعـينُ تسرحُ بـين الضّفاف، وخريرِ الماء من جهة، وبين سفوح الميمنة دائمة الاخضرارِ من جهةٍ أخرى، إلّا أنّ الأمر الآن بات مختلفاً بل غريباً.

ما الذي حدا بنـا والأرضُ ليست لنا ولا لعمومتنا، أن نُجازفَ، ونقطعَ النّهرَ إلى أرض الربّاص، وفي قلب هـذا الشّتاء البارد والجو المكفهر؟! وقد نغيب ساعاتٍ دون أن يسألَ أحدٌ عن غيابنا؟!

كانـت القريـةُ برمّتهـا تبـدو كأنثى حزينـة تشبهُ بعضَهـا، متكـوّرةً علـى نفسهـا، وقـد تكلّلـت هاماتُ بيوتهـا، وأفرعُ أشجارِهـا وجذوعها، بـل قبّة سمائها بلـونٍ رماديٍّ، تكاد الحياة تغيـب عن ملامحه. وتغرق القريةُ في صمت رهيبٍ إلّا من قرقعة أصوات العرجلةِ على الأسطح التّرابية في الذّهاب والإياب، وكلّ صباح حتى يندحرَ الشّتاء، ويتوقّفَ المطر.

كانـت ابنة عمّـي، وللدّقة كان أبوهـا الذي يُقارب عمـرَ أبي ابنَ عمّـي المباشر، تكـبرني بسنوات ثلاث، ولم يَحُلْ هذا الفرقُ بالعمر من أن نكون تَوْءَمَيْنِ بالرّوح لا يفترقان. فقد وحّدت بيننا خلواتٌ طويلةٌ في أحضان خيمة قماشيّة في ظلِّ داليتنا المتوارية شرقاً عن البيت، ونحـن نبتكـرُ أشـكالاً جميلةً مـن الدّمـى القماشية، ونخيط لهـا الملابسَ المُزركشة. ثمّ شـاءت الأقدارُ أن تحـدثَ فجوةٌ في تعليم بنات القريـة سنواتٍ عدّةً لدى شيـخِ القريةِ الخطيـب، فتأخّرت رفيقتـي عن الرّكب لألحقها، وننطلـق معاً، ونحن نعلّق المـزاودَ القماشيّةَ في أعناقنـا، وأكتافنـا في طريق الذّهـاب والإياب إلى عمّنا الخطيـب، وقد احتضنـت دلالات من الأغصان تُشبه أقـلام الرّصاص، وماهي بأقـلام، وجزءَ «عمَّ» من القـرآن الكريم. وبعدها بعام ندخـل المدرسة معاً لأنعُمَ منهـا «بقتلة غيرِ موجعـة» لاختلاف بالعلامات ممّـا غاب كليّاً عـن ذاكرتي، وعادت بعـد عمرٍ طويلٍ لتذكّرني به ضاحكةً، وموقظةً مشاعرَ حلوةً دفينة.

أعودُ للسّؤال: ما الذي دفعنا نحن الصّغيرتين إلى هـذه المغامرة في غمـرة جوٍّ مكفهرٍّ، وسمـاءٍ لا تتوقّفُ عن البكاء؟!

كانت ابنة عمّي غالباً مـا تُمسكُ ناصية الحديث، وقـد تاه خيالُهـا لتجعل قلبـي يقفز من بـين أضلعي، وشعـري يقـف، ونبضي يتسـارع، وأنفاسـي تتلاحق، وهي تتحدّث بهدوءٍ من يعرف جيّداً كيف يسيطرُ على مستمعيـه، لأسمعَ خبطةً قويّةً هـزّت كياني؛ إذ طاف خيالُهـا المجنّـحُ لتتلقّـفَ أخاهَا الأصغـرَ، وهو بعمري وقـد سقـط من علـى سطـح بيتنـا فأسرعـت أختُه، وانحنـت، فاصطدم أخوهـا بظهرِها الحـاني. كانت الدّموع تفضـح تأثّري وحزني، لأعطـي لخيالها دفقةً قويّةً جديدةً تجعلُها تسقـطُ سقوطاً حرّاً من السّطح، فيتلقّفهـا أخوها على ظهره تماماً كما فعلت معه، هذه القصـةُ المُتخَيّلـة غابت كليّاً عن ذهن ابنـة عمّي، ولمّا التقينـا بعد عقـودٍ من البعاد راحـت تضحكُ بصمتٍ كعادتهـا، وتشرح لي من النّاحيـة التّربويّة، والنّفسية أسبـاب تلـك الهواجس، ولا سيّمـا أنّهـا لا تذكر من صورة أمّها إلّا النّذر اليسير. فقد غادرت تلك السّيدةُ ذائعـةُ الصّيت لجمالها وكرم أخلاقهـا عالَمنا الفاني باكراً تاركةً وراءَها ولدين جميلين تربّيا في حضن بيت عمّهما، الذي أكرمنا بمنزله كأوّل مدرسة في القرية.

كان يبـدو لي أن رفيقتـي تحتـاجُ إلى مـن يُصغي إليهـا، ويتفاعلُ مـع قصصها، وخيالهـا المجنّح، وقد وجـدت ضالّتَها. أنـا أيضاً أَلِفْتُ معشـرَ الكبار برفقة أختـي «نوال» في مصياف. وقد غـدا سهلاً عليَّ تبادلُ الأحاديث مع هؤلاء، وكأنّني بعضٌ منهم.

طالـت أحاديثنـا، وتفرّعـت حكايانا حتّـى تبلّلت ملابسنـا، تلـك التـي لم تكن تقي مـن المطـر. لكنّنا أحسسنا بانتعاشٍ روحيٍّ، وانعتاقٍ لأجسادنا الصّغيرة مـن عتمـة البيـوت التـي يُعانقهـا الدّخـانُ، ورائحةُ الطّعـام، وعدنـا مسرعتـين، والمـاء يطفـرُ قطـرات قطرات من ذؤاباتِ أشعارنا، وحواشي ملابسنا المبتلّة التي سرعان ما نبدّلها، ونجلس قرب المدفأة نصطلي بنارِهَـا المتأجّجـة، ونُجيب أمّي عن سـرِّ غيابنا تحت المطـر بعد كأسٍ مترعةٍ من الشّـاي السّاخن، وكمشة سخيّة من التّين والزّبيب، بأنّنا قصدنا أرض الربّاص لنقطف «ترابـينَ» الدّيس الفتيّـة، ونقدّمها للجديان، مسربلـين روايتنا بعضاً من المصداقيّة، التي طالما كنّا نجودُ بها في مثلِ تلك المغامرات.

يُنبوعُ «شقّ العجوز»

كنتُ منـذُ نعومةَ أظفـاري حتى الآن أحلـم برؤية غريبة، أن أشهدَ اللحظةَ المدهشة، تلك الشّهقةَ الأولى لماءٍ يتفجّرُ من قلبِ الصُّخور. وكنت أسرحُ في أحلامي علّني أُصغـي إلى الدّفقة الأولى» لشـق العجوز «، وقد فـارت مياهُه، ولم تعد تحتملُ الاحتباسَ، فانفجرَت، وأخذت تهدرُ، وتصبُّ في مجراها الكلسيّ، الذي طالما لعبنا فيه صيفاً وقد جفّت مياهُه وغارت.

–

يا أولاد ... يا أولاد! ...«شق العجوز طلع».

اتّجهنا غرباً في يوم شتويٍّ، وقد فاضت مياهُ النّهر، وتدفّـق الشّـلالُ هـادراً، وبـدا وهو ينحـدر فوق ذلك الجرفِ الصّخريِّ أبيضَ كالثلج، ماجناً كالعفاريت.

كان الطّقسُ شتويّـاً، وقد هطلت أمطـارٌ غزيرةٌ، وكنّـا ننعمُ بثلجٍ يُوقظنـا في الصّباحات المُدهشة لتبدأ المجارفُ بالتّعزيلِ بعد أن تكوّم الثّلج، وارتفع فوق عتبة البيـت. ها نحنُ نحثُّ الخُطا ونحطُّ في أرضٍ لعمومتي تقع خلفَ النّبع مباشرةً. ويأخذُنا الاندهاشُ من روعة مـا نراه وعظمته. الماءُ يصرخُ، يَصيحُ، يُقهقهُ، تَتعالى ضحكاتُـه. للمـاء ألـوانٌ زاهيةٌ لم أرَها مـن قبلُ، وقد انبجس في هذا الصّباح الباكر من جوف الصُّخور.

النَّبعُ يرقصُ، يتلوّى، ويتناثـرُ رذاذُه. مياهُهُ تملأُ المجـرى الكلسيّ، وتفيضُ على الجانبـين، فيعتريني إحساسٌ غريبٌ بعظمـة الكون، وأُصابُ بالذّهول، وقد علتنـي رجفةٌ هزّت كياني، وربّمـا أحسستُ أنّي أتناثرُ

قطعاً صغيرةً، وأُعانقُ هذا الرّذاذَ الأبيضَ، وأذوبُ في هـذا الجمالِ السَّاحرِ. وأعودُ بعد عام، فيقذفني الماءُ المتفجّـرُ من قلبِ الصّخورِ، وقد نعمـتُ برؤية الشّهقةِ الأولى لشقِّ العجوز.

طابة الشّراطيط

الفتيـات الصّغـيرات تواقات للّعب مـع اليافعات. وقد التمت تلك الأوانس الصّغيرات كباقات النرجس، وأزمعـن أن يكسـرن جـبروت الشتـاء، ويخرجن إلى ساحـة اللعب، غـير هيّابات للـبرد، ولا آبهات بزخات المطر.

ترتقـي الفتيـات شِعباً في جبل الميسـرة، تفرّع عن طريـق ضيّقة خلف دارنا من كتفه الأعلى. وإلى يمينه سياج مـن أغصان سنديان متراصّة لفناء منزل يطلّ على الطّريق الموصلة إلى الحارة الغربيّة، بحوش لافت للأنظـار طافـح بشتّى الـورود والأزهـار، اعتلى فوق السّور الحجـريّ، وأفصح عن صبايا في البيت يحملن علـى رؤوسهـنّ عصـر كلّ صيف تنكات المـاء ليرتوي الحبق واللّمّام، وأصناف من ورد مخمليّ أصفر فاقع، وبرتقالي غامق.

ومـن الجهة اليسرى وعلى أرض مستوية حاكورة مـن أشجـار تين معمّرة بـدت وقد تعرت مـن أوراقها رماديّـة اللّـون تمـدّ أكفّهـا إلى السّمـاء، تستجـدي الرّحمـة، وتصلّي بلا انقطـاع لهذا الشّتـاء القارس، وأمطار تسقـط هتوناً، وثلوج كلّلتها أيّامـاً وكأنّها برء من آفات تفتك بها صيفاً، وتحول دون ملء السّلال.

لم يطل سـير الفتيات، وهنّ يصعدن السّفح، حتى انفرجت أمامهنّ فسحةٌ ترابيّةٌ، تجرّدت من كلّ شجر. تتجمّـع الفتيـات اليافعات اللواتي بـدت معالم الأنوثة والجمال ترتسم علـى صدورهنّ، وقد دنت منهنّ تلك الصّغـيرات يصغين إليهـنّ، ويمتثلـن إلى أوامرهنّ. وأذكر كم كنت مولعة بهذه اللعبة!

وها أنا بعمر السّادسة أقف بجوار أختي الوسطى، التـي تكـبرني بثماني سنـوات، أستمدّ مـن حضورها اللّافت، وقدرتها على توزيع الأدوار إحساساً بالسعادة بقيت أحمله أمداً طويـلاً حتى فاضت روحها الطّيبة، المرحة بين يدي.

تنقسـم الفتيـات إلى فريقـين، وقد عـلا صخبٌ، وهـرجٌ، وضحكاتٌ تتكسّرُ في الهواء لتصل إلى مسامع فتيـان، وربّما شبّان، معطية لهذه اللعبة الأنثويّة رونقاً خاصّاً، لا تحاكيه لعبة أخرى.

واحد، اثنان، ثلاثة... ابتـدأ اللعب، تهرول الفتاة التـي وقعت عليهـا القرعة فترتقـي منحـدراً ترابيّاً، وتقف في الأعلى على صخـور مستوية، تحاذي سياجاً يمتدّ طويلاً ليسوّر كرماً مترامي الأطراف يحفل بالتين البعل، يُعرف أوّله، ويصعبُ الوصول إلى منتهاه.

الفتيـات يتجمّعن في الملعب التّرابـي، وقد حبست الأنفاس لطابة متراصة بحجم برتقالة كبيرة، سدّدت من الأسفـل، ثم طارت في الهواء باتجـاه الفتاة، التي تقـف من الأعلى. وهـا هي الأصوات تعلـو مهلّلة لتلك الفتاة التي قفـزت قليلاً، ومدّت ذراعيها، مُحاذرةً أن تسقط الطابة على الأرض، أو أن تلامس ثوبها، فتفقد الفرصة بالوقوف أمـام الجمهور، وكأنّها ممثّلة تؤدي الـدّور الأوحد على خشبة المسـرح. وهكذا يسجلّ لكلّ فريـق عدد نقاطه التي مسكت بهـا الطّابة القماشيّة، وقـد لطّخها الوحـل، وتشرّبت بعضـ الرّطوبة، وبدت أثقل مما كانت.

أكاد أطـير من الفرح وقـد آن لي أن أسرع وأعتلي المنحدر، وأبـدأ بتفحص وجوه البنـات، ثم أفوز أكثر من مـرة بمسك الطابـة المسدّدة باتجاهـي، فينشرح صـدري، وقـد تدفّـق الـدّم في عروقـي، وبـدا وجهي كتفّاحـة حمـراء يانعة، وتلاشـى على الفـور شعوري بوخز البرد. وها أنـا جذلى أهبط المنحدر لأدور حول نفسـي عـدّة دورات، ثم أقفز في المـكان مُنتشيةً بفرح غامـر استبقيتُه طويـلاً ليستيقـظ الآن، ويخطّ هذي السطور.

الأمثال الشعبية في دير الزور ومعانيها

تانيـــا حريـــب

تأتي أهمية الأمثال الشعبية الشائعة لدى جميع الشعوب من كونها ثمرة من ثمرات خبرات الأجيال، وهي صدى لتجارب عميقة في الحياة، وإبداع إنساني يضيء على روح المجتمعات وثقافاتها، وهي دروس يتناقلها الأبناء عن الأجداد.

فضلا عن أنها خلاصة تجارب الإنسان الماضي وخبراته، التي لا تنفصل عن حاضرنا ولا عن مستقبلنا؛ إذ بإمكاننا أن نأخذ المثل الشعبي الذي قيل قبل مئة عام ونسقطه على واقعنا في مختلف مناحي الحياة.

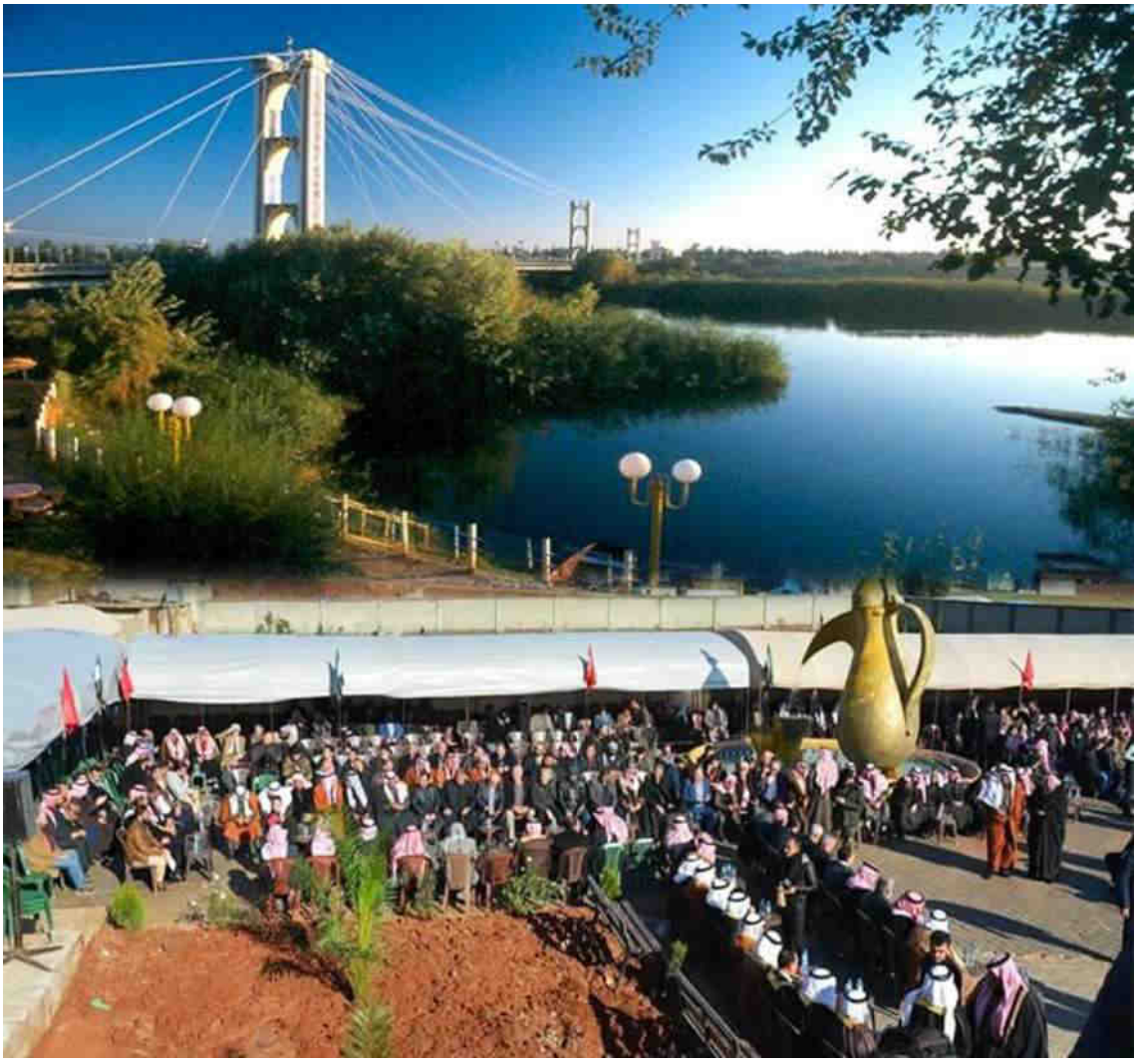

وللهجة المحكيّة في محافظة دير الزور خصوصية تميّزها، وذلك لأنها مزيج بين اللهجة البدوية والعراقية، وتجمع بين المدينة والريف والصحراء البدوية. ونورد فيما يأتي بعضاً من الأمثال الشعبية التي عُرفت في هذه المحافظة مع معانيها[1]:

المثل الشعبي	المعنى
يندل بيت بصيص	يندل: يعرف، بصيص: رجل ديري له بيت في دير العتيق لا يعرفه أحد إلا القليل. يضرب هذا المثل للدلالة على الشخص الذي يعرف كل شيء مهما خفي.
درب سعيد درب أخو	سعيد: رجل فراتي اقتفى أثر أخيه الذي ذهب ولم يعُد. يضرب هذا المثل فيمن يقتفي أثر من سبقه وربما يقصد به من يكون مصيره الفشل.
كوّية بزَون	بزون: رجل فراتي به علة فكووه بالنار فشفي. يضرب المثل في العلاج الناجع وللدلالة على التأديب والردع، فلا يعود المذنب إلى ما كان عليه.
جيبو مسعود للط الخدود	مسعود: رجل فراتي يحضر المآتم وجنائز الموتى فيلطم وجهه ويبكي كثيراً. ويضرب المثل في الساعات الحرجة، فيحضر من يزيد الطين بلة.
أنا عليّ التعب والخاثر لمشهور	مشهور رجل فراتي، الخاثر: اللبن الرائب. قالت المثل امرأة في زوجها، للإشارة إلى من يجهد نفسه ويأكل غيره ثمار تعبه.
ياكل جفانات أبو عابد	جفانات: أكفان الموتى، أبو عابد: رجل صالح مدفون بدير الزور. ويضرب هذا المثل في الشخص الذي يستبيح أموال الناس بالباطل.
صكته عند حافره	صكته: أي «ضربته»، وتنسب للحيوانات ذوات القوائم الأربع كالحمار. يستخدم لإظهار طبيعة الشخص الذي ينكر المعروف وينساه سريعاً، وللنصح بعدم التعامل مع هذا الشخص.
مثل صطولة الغراف واحد يصب على الثاني	يضرب هذا المثل في القوم الذين يكذب أحدهم، فيؤيّده الآخر وهم أكثر كذباً منهم.

وراء هذه الأمثال الشعبية المتداولة في محافظة دير الزور قصصٌ فريدة، محفورة في ذاكرة أبناء المحافظة. وللحفاظ على هذا الإرث الفكري، ولتتناقله الأجيال، وتتعرف أصول هذه الأمثلة، نورد هنا بعضاً منها:

* زَمّر إبنج يا عجوز[2]:

يُحكى أنّ رجلا قروياً، أراد أن يسافر إلى إحدى المدن الكبيرة لشراء بعض ما يحتاج إليه. وفي يوم سفره، وبينما كان الرجل على صهوة فرسه، التفّ حوله جمع من الأقارب والأصدقاء والمعارف، وكل واحد منهم يطلب منه حاجةً يجلبها معه من المدينة، ولم يعطه أحد منهم ثمن ما يريد منه أن يجلبه معه، وكان هو يهز رأسه وهو يستمع إليهم ويقول لهم: إن شاء الله، إن شاء الله.

وبينما هو كذلك، اقتربت منه امرأة وأعطته مبلغاً من المال، وقالت له: أريد منك أن تحضر لي مزماراً من المدينة يلهو به ولدي، وهذا هو ثمنه. فما كان من الرجل إلا أن قال لها على الفور:

«زمر إبنچ يا عجوز»؛ أي ما دمتِ قد دفعت ثمن المزمار، فاعتبري أنه قد وصل إلى يد ابنك وسيزمّر. فذهبت كلمته هذه مثلاً يراد به تذكير الشخص الذي يوصي مسافراً بجلب غرضاً له من البلد الذي سيذهب إليه، أن يعطي ذلك المسافر ثمن ما يطلب ليضمن أن يجلبه له.

١- الأمثال الشعبية في لهجة الفرات الديرية، مروان مجيد الشيخ عيسى، موقع Baz News. 2022.

٢- أمثال شعبية، قصة مثل، موقع هنا دير الزور، ٢٠٢١.

* الحق للسيف والعاجز يدوّر شهود[٣]:

يُقال إن رجلين امتلكا حقلين زراعيين متجاورين، وكان أحدهما قوياً يُمعن في التجاوز على حقل جاره الضعيف، وهذا ما يحدث غالباً في المناطق الزراعية، مرةً يأخذ أكثر من نصيبه من الماء، ومرة أخرى يستحوذ على شيء من غلته ومحاصيله، ومرة ثالثة يحرك العلامات بما يعطيه مزيداً من الأرض على حساب جاره الضعيف حتى ضاق هذا ذرعاً بتجاوزاته وعدوانه، فاشتكى إليه مما وجد غير أن الجار المعتدي تجاهل وأنكر. فقال له المتظلم: إذا كنت تنكر ذلك فلنحتكم للقاضي ليحكم بيننا بالعدل، فقال له: وما حجّتك وبرهانك على تجاوزي؟ قال له: لديّ شهود بذلك، وسآتي بهم ليشهدوا بالحق، فقال له الآخر: وأنا آتي بشاهدي الواحد المنفرد، وأشار إلى سيفه المتمنطق به، وقال: الحق للسيف، فرد الحاضرون «والضعيف يدوّر شهود».

* عمره طه ما سوّاها[٤]:

طه رجلٌ من لواء دير الزور، ميسور الحال، لكنه طفيلي يحضر الولائم والعزائم، وكان أهل المنطقة يغتاظون منه ومن تصرفاته. فجأةً، عمل طه وليمة كبيرة ودعا أهل المنطقة، مما أثار دهشتهم. فانتشر صيت الواقعة في كل المنطقة، وأصبح مثلاً يتردّد على ألسنتهم للإشارة إلى الفضولي البخيل.

وللأمثال الشعبية الخاصة بالطعام حصّةً لا بأس بها، نذكر مغزى بعض منها:

* مع مين ثردت تا تغمس[٥]:

جرت في قديم الزمان مشادة بين شخصين في أثناء وليمة كان قد دُعي إليها وجوه القوم من عدة قرى وبلدات، ونصّب أحد الحضور نفسه وكيلاً على «المعزبين»، مع أنه ليس له يد أو إسهام في العزيمة، وبدأ يعطي الأوامر «هات» «جيب»، وكأنه هو القائم على هذه الدعوة أو صاحب العزيمة.

وجاء وقت الطعام، فأشار أحد الكبارية من أهل العزيمة أو الوليمة إلى الشباب «المعزبين» ألا يضعوا أمامه «صينية ثرود»، بل ليأتوا له بمرقة ولحم في صحن، ووضعوها أمامه، فانتفض واقفاً مُحتجّاً، وقال له الشيخ: «أنت مع مين ثردت تاتغمس؟!».

وبهذا، تردّد هذا المثل لمن ليس له ماض عريق أو تاريخ ويريد أن يصنع لنفسه عزاً ومجداً دون أيّ خلفيات.

* يركض يركض والعشا خبيز[٦]:

يضرب هذا المثل للشخص الذي يجتهد ويتعب دون أي نتيجة.

* إذا كان طباخنا جعيص اشبعنا مركه[٧]:

جعيص رجل فراتي لا يحسن طبخ الطعام، ويضرب به المثل في الشخص الذي يُقدِم على عمل لا يتقنه.

في الختام، لا بد أن يبقى للأمثال الشعبية سحرها الذي لا يستهان به؛ فهي حاضرة على لسان الأجداد، فلا يتردد أي جد أو جدة في استحضارها بإحدى المناسبات أو في موقف ما، يقيناً منهم أن هذه الأمثال وصفة اجتماعية لتلخيص الحدث أو تقييمه أو التعليق على مجرياته، وفق تجارب السابقين ليحفظ الأبناء والأحفاد هذا الإرث، فيبقى خالداً كخلود نهر الفرات.

٣- المصدر السابق نفسه.

٤- قصة مثل.. من تراث دير الزور (أمثال ديرية)، المهندس الباحث غسان الشيخ الخفاجي، موقع حضارة وتراث دير الزور، ٢٠٢٠.

٥- أمثال شعبية، قصة مثل، موقع هنا دير الزور، ٢٠٢١.

٦- المصدر رقم ٤ نفسه.

٧- المصدر السابق نفسه.

«البيرق»
في تراث جبل العرب الشَّعبيّ

د.عبَّاس مرهج فرج

صورة لبيرق السويداء في استعراض احتفالي في سبعينيات القرن الماضي ويظهر تحته : جبر علم الدين - غالب نعيم - فرحان فلحوط - توفيق فلحوط - توفيق البارودي - حمود نعيم - - إسماعيل بلان - يوسف أبو جابر)

ارتسمت في أذهان أجدادنا وآبائنا معاني البطولة والنخوة والإباء بأبهى صورها، وغدت ترياق الحياة الذي يتغلغل في تكوينهم الثقافي والاجتماعي والنفسي، وكأن المرء يتنشَّق في تضاعيف تراثنا المشرق عبق التراب المزوج بدم الشجاعة، وصدى نصرة الحق، وواجب تلبية نداء الأرض.

إن مَن يبحث في قصص البطولة المروية والمحفوظة في الذاكرة الشعبية، يلتمس تلك الوحدة، وذلك الاندفاع اللذين جُبلا عليهما أبناء الجبل من أجل مواجهة الاحتلال العثماني والاستعمار الفرنسي، وما اعتادوه من طقوس خاصة تطبع معاركهم، ولا سيما تكاتفهم تحت راية علم يلمُّ شملهم، ويزيد عُرا وحدتهم متانة، ويوحِّد موقفهم وكلمتهم.

نبتغي في هذا المقال أن نقف عند ما يُعرف في تراث جبل العرب بالبيرق، الذي يُعدُّ رمزاً يميِّز كل قرية من قرى الجبل، وما زال إلى يومنا هذا إرثاً ثميناً خلَّفه لنا الأجداد، ومصدر فخر وعنفوان في تاريخ كل قرية، لأنه الراية التي شَهِدَت مختلف المعارك المشرفة ضد الاحتلال العثماني والاستعمار الفرنسي، وارتفعت عالياً في السماء في أثناء تلبية نداء الواجب، وفي مختلف المناسبات الوطنية والاجتماعية الأخرى، وقد ازدحمت مضافات الجبل ببيارق كثيرة، متنوعة، منسوجة بآمال حامليها ورائحة النخوة والبطولة.

بداية لا بد من أن نتعرَّف إلى معنى لفظة **البيرق** **لغةً**: فهو كلمة فارسية تعني: الراية، وجمعها بيارق، ويُعرَف حامل البيرق بالبيرقجي[١]، وقد وردت كلمة «البَيرَق» في المعجم الوسيط[٢] بمعنى راية أو عَلَم، وجمعها بَيَارق. وعلى أنَّ الكلمة فارسية الأصل، نلمح وجهاً بلاغياً يربط بين كلمة «بيرق» في الفارسية، التي تعني الراية التي تُرفَع عالياً، وبين الجذر العربي: بَرَقَ، الذي يوحي بمعاني اللمعان والرفعة والوضوح، وهو ما يتوفَّر في البيرق حقيقة، إذ ورد في معجم مقاييس اللغة[٣] أن: كل شيءٍ يتلألأ لونه فهو بارقٌ، يبرُق بَريقاً. ويُقال للسُّيوف بَوَارق، ويُقال: أَبرقَ فلانٌ بسيفه إبراقاً، إذ لمع به، ويُقال: رأيت البارقةَ: ضوء بَرْق السُّيوف. كما ورد الجذر: «بَرَقَ» في معجم لسان العرب[٤]: قالَ ابنُ عبّاس: البرقُ سوطٌ من نورٍ يَزْجُرُ به المَلَكُ السَّحابَ، والبرق الذي يلمع في الغيم، وَبَرَقَ الرَّجُلُ وأَبْرَقَ: تَهَدَّدَ وأَوْعَدَ.

أما مفهوم البيرق شعبياً، فيرتبط في جبل العرب بالحرب، والتميز، ولمِّ الشمل تحت راية واحدة، لذا يشعُّ بدلالة رمزية، بألوانه وطريقة نسجه ورموزه، التي تدلُّ على مرحلة تاريخية واجتماعية، ونجده يفوح بعبق النصر والكرامة، وحب الدفاع عن الأرض والعرض، والتصدي للأعداء، فهو الراية التي حملها الأجداد في معاركهم ضد الاستعمارين العثماني والفرنسي، وحافظوا عليه خفَّاقاً، وامتزج لونه ورائحته بدمائهم الزكيّة، وكان عاملاً من عوامل انتصاراتهم.

كان لكلِّ مدينة أو قرية أو بلدة في جبل العرب بيرقها الخاص، والبيرق قطعة قماشية من الحرير، مستطيلة أو مربَّعة الشكل، يغلب عليها اللون الأحمر، وأحياناً الأخضر، مزخرفة برسومات تتضمَّن أشكال السيوف، والنجمات الخماسية، والهلال، وفرساناً يمتطون خيولهم، وآخرين يحملون سيوفهم، وعليها عبارات تختلف من بيرق إلى آخر، منها عبارات: الله أكبر، الله والوطن، فدا الوطن، النصر من الله، وبعض أسماء القرى التي نسجت هذه البيارق. يُثبَّت البيرق على رمح من خشب الزان أو المعدن يُسمَّى شلقة[٥]، وفي أعلى الرمح قطعة من النحاس غالباً ما تكون على شكل نصل، أو كرة، أو نصف كرة مصنوعة من النحاس، وأحياناً من الفضة، وتتدلَّى من البيرق خيوط (خصلات) من الحرير مجدولة وملوَّنة بأحد الألوان (الأحمر- الأخضر- الأصفر- الأبيض- الأزرق)، كما يُثبَّت البيرق على إطار خشبي، وسوار من الجلد، وحبال تساعد حامله على حمله، حيث يُثبِّت كعب الرمح في حامل جلدي مشدود إلى خصره[٦].

يصف الكابتن كاربييه[٧] Carbillet في مذكَّراته بيارق جبل العرب فيقول:« كانت أغلب البيارق أطول من مترين، ويُلزم شبان أقوياء البنية وعمالقة حقيقيون ليتمكنوا من حملها، كانت كتابات مذهبة

١- وهب، قاسم، معجم الألفاظ والتعابير المحكية في محافظة السويداء- معجم لهجي فولكلوري مقارن، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠٩، ص٥٥.

٢- المعجم الوسيط، الطبعة الثالثة، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٣، ص٥٢.

٣-ابن فارس، مقايس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الأول، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢، ص٢٢٢.

٤-ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، [ب ر ق].

٥- الشلق: الطويل، يقال فلان قطعته شلقة، أي طويل القامة، انظر: وهب، قاسم، المصدر السابق، الجزء الأول، ٤٥٧.

٦-الزاقوت، عطا الله، العادات والتقاليد في جبل العرب، دار علاء الدين، الطبعة الأولى، دمشق، ٢٠٠٠، ص:٦٥.

٧- عين حاكماً على جبل العرب في أواخر العام ١٩٢٤ إبان الاحتلال الفرنسي لسورية، وقد عُرف ببطشه وظلمه، واتبع سياسة التفرقة بين سكان الجبل من خلال الهيمنة وتحطيم الزعامة التقليدية، والتدخل في الشؤون الدينية، والتغيير في العادات والتقاليد الاجتماعية، وتمزيق صفوف أبنائه بإثارة روح التنافس والخلاف بين عائلاته الوجيهة وكبار شيوخه وأعيانه، للمزيد انظر: أحداث الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها العام سلطان باشا الأطرش (١٩٢٥-١٩٢٧)، تقديم مصطفى طلاس، مكتبة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دمشق، ٢٠٠٨، ص٧٦ وما بعد.

تبرز بشكل بهي فوق حريرها القديم. كانت البيارق من كل الألوان، من الأخضر الغامق إلى الليلكي إلى الأصفر ذي الانعكاسات النحاسية والأبيض المبهر، وكان بعضها ينتهي بحربة رمح طويلة، وتتوّج الحاملة باقة من الريش بالنسبة لبعضها الآخر. وأخيراً فإن عدداً منها يأخذ شكل زنبقة نحاسية مذهبة ومزينة بنقوش عربية وبكتابات متشابكة من المعدن، وكان يتقدمها رجال بوجوه أضعفتها الحمى وخدود بارزة، ونظرات متقدة، ويلوحون من الأعلى إلى الأسفل، بسيوف مجردة[٨]».

- حامل البيرق: يُعدُّ حمل البيرق شرفاً يُعطى لأنبل شباب القرية، لذلك جرت العادة أن يكون حامل البيرق من الأشخاص الذين يتصفون بالشجاعة والاتزان والوعي والقوة البدنية، ويتمتَّع بمكانة خاصة في نفوس أهل قريته وأبناء جلدته، وغالباً ما يكون الشاب المختار لهذه المهمة من العائلات ذات السطوة، التي تعدُّ تقليد حمل البيرق شرفاً لها لا تفرِّط به حتى لو فني لأجله معظم شبابها، إذ يحرص المقاتلون في أثناء المعركة على حماية البيرق من خلال الالتفاف حول حامله، والدفاع عنه، هادفين من وراء ذلك إلى عدم سقوطه على الأرض من جهة، والحيلولة دون وقوعه بيد الأعداء من جهة أخرى، لما لذلك من تأثير سلبي في نفوس المقاتلين، وتثبيط معنوياتهم في ساحة المعركة.

يُعدُّ تاريخ الجبل زاخراً بقصص ومآثرَ حول بطولة حاملي البيرق وشجاعتهم، وما زالت الناس تتناقلها في أحاديثها في المضافات والدواوين إلى يومنا هذا، فقد سمعها الآباء من الأجداد، ونقلوها إلينا من قبيل التغني بها، وشحذ الهمم، وغرس قيم البطولة والشجاعة في الأجيال المتلاحقة، من هذه المآثر ما نشرته مجلَّة العربي الكويتية في عددها رقم ٢٨٥، عن استشهاد خمسة إخوة من آل حمزة تحت راية بيرق قرية رساس في معركة المسيفرة (١٩٨٢- ص: ١٠٦).

كذلك ذكرت المصادر استشهاد ثمانية من آل علم الدين تحت راية بيرق مدينة السويداء، في معارك الثوَّار ضد الفرنسيين إبَّان الثورة السورية الكبرى[٩].

إن هذه الأعداد تُثبت مدى احتراس كل قرية أو عائلة من سقوط البيرق، أو التهاون في حمايته، وضرورة إبقائه مرفرفاً طوال المعركة.

- مراسم خروج البيرق للحرب: يُحفَظ البيرق في أوقات السلم في منزل من حمله في أثناء الحرب، أو في منزل شيخ القرية وكبيرها، ولخروج البيرق مراسم وتقاليد معينة، تُتبَع عند وقوع خطر داهم يهدِّد أبناء المجتمع، سواء أكان التصدي لغزو ما، أم خوض معارك ضد العدو، كما في حروب المجاهدين والثوَّار ضد الاحتلال العثماني والاستعمار الفرنسي في النصف الأول من القرن العشرين. تبدأ مراسم إخراج البيرق من خلال دعوة شيخ القرية لكبار القرية وشبابها من أجل الاجتماع في مكان محدَّد، وغالباً ما يكون في مضافته أو في ساحة القرية العامة، ويحضر الاجتماع أصحاب الرأي والمشورة، وكل من يقدر على حمل السلاح من شيب وشباب، ويقوم المنادي أو ما يُعرَف بالمُفَزِّع بترديد عبارات يستنهض بها الهمم، ومنها: «وين راحوا النشامى»، « وين راحوا أهل الغيرة»، «النشامى العدو يغزو أرضكم»، «النشامى احموا أرضكم - احموا عرضكم - احموا بلادكم»، فتخرج القرية عن بكرة أبيها على صوت المنادي إلى مكان الاجتماع المحدَّد حاملين بأيديهم ما تيسَّر من سلاح، وتقوم العائلة التي تحتفظ بالبيرق لديها بإخراجه، ويرفعه الشخص المكلَّف بحمله، وتبدأ الأهازيج، ولا سيما الحربية، لرفع المعنويات وروح القتال لدى المقاتلين، ويلتفُّ حول البيرق صفوة الشباب المزوَّدين بالسلاح، وتكبر

٨- كاربييه، مذكرات الكابتن كاربييه في جبل العرب، ترجمة نبيل أبو صعب، الطبعة الأولى، القبس للخدمات الطباعية، السويداء، ١٩٩٩، ص ١٠٩-١١٠.

٩- الزاقوت، عطا الله، المرجع السابق، ص٦٩.

الدائرة وتتسع، وترتفع الأصوات لتصبح مثل زمجرة أسود، وتعلو زغاريد النسوة، ويبدأ عازفو المجوز بعزف أنغام حماسية، من هذه المعزوفات ما يُعرَف بالجردة[١٠]، وهي لحن حربي يثير الحماسة، وتعني تجريد السيوف من أغمادها استعداداً لمواجهة العدو، ويُطلق على مجموعة الشباب اسم الجروُد[١١]، أي الجموع القاصدة القتال.

يلوِّح كبار السن من الرجال بسيوفهم أمام جموع الشباب، ويردِّدون عبارات حماسية، منها: «عندكم النشامى»، «عندكم يا ربعنا»، «من عين النشامى»، «خيولها»[١٢]، بينما يردُّ عليهم آخرون: « كفو، والنعم منهن، إلهن بالعادة».

يتحوَّل هذا التجمع إلى عرس، وفي هذه اللحظات التي لا تتعدَّى بضع دقائق تذوب الأحقاد، ويتكاتف أبناء القرية الواحدة لمواجهة الخطر الداهم تحت راية واحدة، ويتحرَّك المقاتلون من خيَّالة ومُشاة يتقدَّمهم حامل البيرق، حتى يصلوا إلى مكان تتجمَّع فيه الوحدات المقاتلة القادمة من القرى حاملة بيارقها، وتصطفُّ في أنساق محدَّدة حسب ساعة وصولها، ويستمر التجمع حتى تصل بيارق القرى كلّها.

ومما تجدر الإشارة إليه مشاركة بعض النسوة بالمعركة من خلال تأمين مياه الشرب وما تيسَّر من طعام للمقاتلين.

- البيرق في المعركة: بعد وصول الوحدات المقاتلة إلى ساحة المعركة تتقدَّمها البيارق الخاصة بكلٍّ منها، يصطفُّ المقاتلون في حلقات حول هذه البيارق، ويقف قرب حامل البيرق إخوته وأقاربه تحسباً لإصابته، فإذا ما أُصيب أو قُتِل تولَّى مهمة حمل البيرق أخوه أو أحد أقاربه، فيحمل البيرق بكل عزيمة وشجاعة، ويظلُّ المقاتلون يحومون حول البيرق، ويدافعون عنه بكل كفاءة وبسالة من أجل المحافظة عليه مرفرفاً شامخاً كالطود.

وللبيارق منظر مهيب يُدخل الرهبة في قلوب الأعداء، ولا سيما حين تنتشر في أرض المعركة خفَّاقة بألوانها الزاهية، وكثيراً ما تُثبَّت هذه البيارق في أماكن مرتفعة، كي تبقى مرئية من المقاتلين الذين يقاتلون تحت لوائها جميعاً.

لا يجوز طيُّ البيارق والمعركة دائرة، لما في ذلك من أثر سلبي في نفوس المقاتلين، فإذا ما انسحب المقاتلون طُويت، وعلى الخيَّالة أن تضمن عن طريق شنِّ غارات متتالية انسحاب البيارق بهدف حمايتها وضمان سلامة حامليها، ويتطوَّع لهذه المهمة أشهر الفرسان، وغالباً ما يحدث الانسحاب في الظلام بغية الحفاظ على سلامة المنسحبين من المقاتلين.

- أشكال البيارق ودلالاتها: تمثِّل البيارق في الثقافة التاريخية والمحلية لجبل العرب رمزاً ثورياً، إذ يحمل كل بيرق من هذه البيارق رمزاً ومعانيَ خاصة، وعبارات مكتوبة تدلُّ على البطولة والشجاعة وحب الأرض والوطن والإيمان بالنصر، ولكلِّ قرية بيرقها الخاص الحامل لرموز وأشكال معينة، تحمل تعبيراً وطنياً ودينياً واجتماعياً وثقافياً، وسوف نستعرض بعض هذه البيارق من حيث أشكالها ورموزها وعباراتها:

بيرق مدينة السويداء[١٣]: هو بيرق مستطيل الشكل، طوله مع الرمح والحربة ثلاثة أمتار ونصف المتر، يتألَّف من قطعة من القماش الأحمر مزيَّنة ببحيرتين إحداهما وسط الأخرى، ولهما إطاران مطرَّزان باللون الأبيض، وفي البحيرة الصغيرة هلال في داخله نجمة خماسية، وتحته سيفان متقاطعان، كُتِبت بينهما من جهة النصلين عبارة: «يا خفيَّ

١٠- وهب، قاسم، المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٢٥.

١١- المصدر نفسه، ص١٢٥.

١٢- تعني هنا: اعتلاء الخيول، والسير إلى المعركة.

١٣-الملحم، إسماعيل، وآخرون، سويداء سورية: موسوعة شاملة عن جبل العرب، الطبعة الأولى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ١٩٩٥، ص ٢٥٦.

الألطـاف نجِّنا مما نخـاف»، وبـين مقبضيهما يدان متصافحتـان باللون الأبيض، وفي كل زاوية من زوايا البحـيرات الثـلاث رُسِمـت خمس رجَّاصـات، أما في الزاويـة الرابعـة فقـد رُسِمت ثلاث فقـط، والعددان خمسـة وثلاثة يرمزان إلى ما جـاء في الآية الكريمة: ﴿**ويحمـل عرش ربِّك فَوْقَهم يومئذٍ ثمانية**﴾ [سورة الحاقـة: الآيـة ١٧]، هـي النجمـة والسجـق والبند، وهـي مزيَّنة بالألـوان الخمسة (الأحمـر- الأخضر- الأصفر- الأزرق- الأبيض).

يستنـد البيرق إلى قاعـدة خشبيـة معلَّقة بنطاق مـن الجلد متصل من الأعلى، يُوضَع في رقبة الحامل، ويتدلَّى على صدره، أما البند فهو من الحرير المجدول، يُربَط بعجز الحربة، وينتهي بشرَّابتين[١٤] يُمسِك بهما رجلان يساعدان على تثبيت البيرق.

١٤- شرشب: لا أصل لها في العربية، ويُظنُّ أنها سريانية، وفي اللغـة الدارجة بجبل العرب يُقـال: شَرشَب الخُرج ونحوه: وضع له شراشيب، والخـبر: زاد فيه، وبالغ. والمصـدر شرشبة. شرشُوبة: واحـدة الشَّراشيـب، وهي ضمَّة مـن الخيوط تتدلَّى مـن أطراف الخُـرج ونحـوه، يُقال: شرَّابـة، وشرشوبة. وهـب، قاسم، المصدر السابق، الجزء الأول، ص:٤٣٦.

- بيرق بلدة الغارية : مربَّـع الشكل، مكوَّن من قطعـة قماش فيها ثلاثـة ألـوان، إطـاره أزرق فاتح، ووسطه أرجواني اللـون، تتخلَّله رموز ورسومات ملوَّنة باللون الأبيض، وهي أربع نجمات خماسية موزَّعة على زواياه الأربع، وهـلال في الوسط، على حافتيه سيفان بينهمـا نجمـة خماسيـة، وعلـى الجانـب الأيسر من جهة الرمح ثلاثة مستطيـلات صغيرة يبدو أنها تمثِّل ألوان البـيرق، كما أنـه مزركش مـن ناحيتيه اليمنى والسفلـى بخيـوط حمراء وذهبيـة، وله مـن الناحية السفلـى شرَّابتان، ويُحمل على رمح له حربة في أعلاه مصنوعة من الفضة.

- بيرق قرية نجران : مربَّع الشكل، مصنوع من قطعة قماش حمراء اللون، مطرَّزة من جهاتها الأربع، في وسطـه سيف ونجمـة باللون الأبيض، ويرتسم في كل زاويـة من زوايـاه الأربع سيف صغـير مائل باللون الأبيض أيضاً.

- بـيرق قريـة سليـم : مربَّع الشـكل، مصنوع مـن قطعـة قماش لونهـا أخضـر غامـق، في وسطه سيفـان متقاطعان من جهـة نصليهما، لونهما أبيض، وهـو مطرَّز من الحافتين العليـا واليمنى، ويقطعه من الزاوية اليمنى خط مائل باللون الذهبي.

- بيرق قرية رامي : مربَّـع الشكل، مصنوع من قطعـة قماش، ويتكوَّن مـن بحيرتـين الأولى خضراء اللون، في الزاويتـين العليا والسفلى من جهتها اليمنى

مثلَّثان صغيران باللون الأحمر، ويتوسَّط المربع الأخضر مربَّع باللون الأحمر، يضمُّ سيفين متقاطعين، فوقهما عبارة: « النصر من الله»، يُرفَع على رمح ينتهي من الأعلى بحربة مصنوعة من الفضة، وتبدو الشراشيب واضحة من جهته السفلى.

هذه بضعة نماذج من بيارق جبل العرب، تعود لقرى مختلفة في الموقع، حاولنا أن نلقي الضوء على أوصافها ومكوِّناتها، لننتقل الآن إلى الخوض في رموزها، ومعرفة دلالات عناصرها:

- الهلال: يمثِّل الهلال في الذاكرة التاريخية رمزاً للقمر، إذ انتشر رسمه على النُّصُب والمنحوتات في بلاد الرافدين وسورية، وقد لعب القمر دوراً مهماً في حياة الناس منذ العصور القديمة، فمن خلاله عُرِف الوقت والتاريخ، وبه ارتبطت بداية المواسم، ومستويات الماء من مد وجزر وفيضانات، وما لبث أن عُبِد في المشرق القديم بوصفه إلهاً، وعُرِف بالإله سين.

ثم اتُّخذ الهلال رمزاً مقدَّساً بعد انتشار الإسلام، إذ صار يظهر في أعلى مآذن المساجد، وفي التزيينات الزخرفية المختلفة.

من هنا لا عجب أن نراه يمثِّل عنصراً أساسياً في معظم بيارق جبل العرب، وكأنهم يلتمسون منه البشرى بالنصر، وبداية خير لطريقهم النضالي، لكن يُلحظ اختلاف اتجاه الهلال من بيرق لآخر، فأحياناً يكون متجهاً للأعلى، أو مائلاً، أو متجهاً لليمين.

فالهلال له قيمة خاصة في نفوس الناس في جبل العرب، وقد ترسَّخت في الثقافة الشعبية على مدى الأيام، حتى غدا ظهور القمر على هيئة هلال يوماً مباركاً ارتبطت به بعض الطقوس، نذكر منها: **فكّ شِرْكَال**[١٥] **الطفل**، الذي يأتي من قبيل استعجال الأهل أن يمشي الطفل باكراً، وأن يباركوا أولى خطواته، فينتظروا أن يظهر القمر هلالاً، ويُخرِجون الطفل إلى ساحة البيت، ويقوم عادة الجد، أو من هو أكبر سناً، بربط خيط بين إبهامي قدمي الطفل، ويقول:

الله يهلَّك ويستهلَّك، ويجعلك هلال مبارك، هلِّينا هلالك، وقطعْنا شِرْكَالك.

ثم يقصُّ الخيط، ويكون ذلك إيذاناً باقتراب موعد مشي الطفل، أو اعتدال خطواته، إن كان يخطو بعض الخطوات.

يمثِّل انتظار الهلال، وقراءة هذه العبارات، وقص الخيط قبالته، تبجيلاً للهلال، وإحياء لما درجت عليه أغلب المجتمعات البدائية التي عبدت القمر كأسمى آلهة ثلاثية أطلقوا عليها اسم «نجم»، وعند الساميين «هلال»[١٦].

- النجمة الخماسية: رمزت في العصور القديمة إلى العناصر الأساسية المكوِّنة للطبيعة، وهي الأرض والهواء والماء والنار والروح. من هنا كان الالتزام برسم النجمة الخامسية في معظم البيارق من قبيل التأثر بكل هذه المعتقدات القديمة، والتبرك بها.

- السيف: رُسِم في معظم بيارق الجبل، ولعله العنصر الرئيس فيها، لأنه يدلُّ على الغرض من البيرق، واستخدامه في ساحات الحرب والقتال، فالسيف يمثِّل السلاح والقوة والشموخ، ويرمز لشجاعة حامله، وقد تحوَّل السيف في عصرنا هذا من رمز حربي إلى رمز تراثي مع تطور الأسلحة القتالية.

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب البيارق يطغى عليها اللون الأحمر، الذي يدلُّ على الثورة والدماء والعنفوان، وهو ما يوحي بجو المعارك.

١٥- شركال: ما تُربَط به رجل الإنسان أو الحيوان، يُقال: انفكَّ شركاله: أي أُطلِق سراحه... وهب، قاسم، المصدر السابق، الجزء الأول، ص: ٤٤٠.

١٦-شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص: ٨٠- ٨١.

- البيرق في الشعر الشعبيّ: تغنّى شعراء جبل العرب بالبيرق، وكتبوا قصائد كثيرة تدلُّ على دوره التاريخي في الانتصارات، التي حقّقها أجدادنا في حروبهم ضد الغزاة والأعداء، نذكر منها قول الشاعر عيسى عصفور:

حُمْر البيارق ما انطوت عا ذلّة
وعاداتنا جيش العدو نذلّه
بصولة تروي للقلب والغلّة
وأرض العرب لا بد من تكنيسا
حُمْر البيارق والسيوف رعاني
شيّالة ضيم الدخيل العاني

ويقول الشاعر محمد شجاع في البيارق:

يوم البيارق في المعامع خفوجي
وين إنت ياللي مصنّف الناس غفلان
تاريخنا وضّاح ما به عروجي
ومجد ليعرب طافح بكل الوزان

ويصف الشاعر حازم النجم بيرق بلدة الغارية بعد معركة تل بركات بين المجاهدين وقوات الاستعمار الفرنسي قائلاً:

ياللي رفيفك عزّم القلب للذود
مذخور ما يبلاك طيّ الثنايا
يا بيرق الحرجات يا لجّة الفود
وحي الحدا والضوج قب السبايا
يا حي والله ما رخصناك بضدود
ملزومتك بين الضلوع الحنايا
شالوك تقطر مهجة الدم مشدود
شد الوتد للقاع بأربع زوايا
ما هو بهذا وإن جيت مقصود
يا خوك نشرح لك كثير القضايا
وتل بركات بعرجة الجيش مشهود
في ساعة تثمن على كل غاية

ويصف الشاعر علي شعبان دخول البيرق في المعركة بقوله:

ويا بيارق لوّحي فوق الزنود
شُقي الفضا وكفّي طريقك واطلعي
يا سيوف تزنّري بلون الورود
وحزّي رقاب البُطل والعنق اقطعي

ومما تجدر الإشارة إليه أن عدداً من البيارق استولى عليها الفرنسيون في معركة المسيفرة المشهورة، وهي معروضة الآن في الجناح الحربي في قصر الأنفاليد[١٧] في باريس، وقد وصفها الجنرال الفرنسي كاربييه في مذكّراته، بعد أن رآها بقوله: « وفجأة وجدت نفسي في كنيسة الأنفاليد، وبدا الهيكل المهيب للأرغن ذي القصبات الطويلة كأنه يرتفع بأبّهة نحو القنطرة في غيمة من الحرير الأرجواني، وفي الحال تعرفت إلى ثمانية من البيارق الدرزية الكبيرة القائمة على صاريات (سواريات) حديدية يتوجها ريش النعام (شرّابات)، وقد أوحت طياتها النازلة وكأنها تريد الوصول لتلفني. كانت هذه هي البيارق التي وجدت بين الجثث الدرزية في أرض معركة المسيفرة حيث لمع نجم الفرقة الأجنبية، وقد جاءت هذه البيارق لتأخذ موقعها بين الأعلام الأخرى التي كانت عند أسفل المذبح وبارتفاع القناطر، تغني إلى الأبد مجد الجيوش الفرنسية[١٨]».

أما بقية البيارق، فقد جُمعت بمراسم استلام من قبل مالكيها من أحفاد المجاهدين، وحُفظت في المتحف الخاص بصرح القائد العام للثورة السورية الكبرى سلطان باشا الأطرش، في سبيل الحفاظ

١٧- الأنفاليد l'invalide، كلمة فرنسية تعني العاجز، ويطلق اليوم اسم نُزُل الأنفاليد أو قصر الأنفاليد Hotel des Invalides على مجموعة من المباني الأثرية في باريس تضم متحفاً حربياً من أشهر المتاحف الحربية في العالم. وقد أُنشِئَ نزل الأنفاليد سنة ١٦٧٠م بأمر من لويس الرابع عشر ليكون مقر مؤسسة وطنية عسكرية تؤوي مشوهي الحرب والمحاربين القدماء، وتوفر من يقوم على خدمتهم، يحتوي متحف الجيش على أنواع من الأسلحة والدروع الحربية، والألبسة والأعلام والتذكرات التي استخدمها واغتنمها الفرنسيون في حروبهم.

١٨- كاربييه، المصدر السابق، ص١٣٩.

عليها، وتخليد ذكرى المعارك التي شهدتها.

في الختام، نأمل أن نكون قد أضأنا جانباً من أرقى جوانب العز والفخر والبطولة في تراث جبل العرب، ذاك الذي يتعلَّق بساحة القتال والنضال، مختصَراً بالبيرق رمز النضال، وتكاتف الأجداد، والحرص على إبقائه شامخاً، خفَّاقاً، تلتمُّ تحت رايته جموع الناس.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم، سورة الحاقة، الآية ١٧.

٢- ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الأول، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢.

٣- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة.

٤- المعجم الوسيط، الطبعة الثالثة، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٣.

٥- أحداث الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها العام سلطان باشا الأطرش (١٩٢٥-١٩٢٧)، تقديم مصطفى طلاس، مكتبة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دمشق.

٦- الزاقوت، عطا الله، العادات والتقاليد في جبل العرب، دار علاء الدين، الطبعة الأولى، دمشق، ٢٠٠٠.

٧- شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية.

٨- كاربييه، مذكرات الكابتن كاربييه في جبل العرب، ترجمة نبيل أبو صعب، الطبعة الأولى، القبس للخدمات الطباعية، السويداء، ١٩٩٩.

٩- الملحم، إسماعيل، وآخرون، سويداء سورية: موسوعة شاملة عن جبل العرب، الطبعة الأولى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ١٩٩٥.

١٠- وهب، قاسم، معجم الألفاظ والتعابير المحكية في محافظة السويداء- معجم لهجي فولكلوري مقارن، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة: الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠٩.

وثائق شراكة الخيل وبيعها في جبل العرب (١-٢) (*)

كمـــــال الشـــــوفاني

تمهيد

تُعَدُّ الشراكة بين الناس من أهم العلاقات الاجتماعية التي تؤسس لمنظومة إنسانية قوية مترابطة. واعتاد الناس الشراكة في التجارة والزراعة وفي مجالات أخرى من أجل كسب مالي أوفر أو ضمان أكثر لمواسمهم الزراعية وتجارتهم. أما المشاركة الفريدة في نوعها فكانت شراكة الخيل. ولا يخفى على أحد مزايا الجواد وما قدمه للإنسان عبر التاريخ، إن كان في ساحات القتال أم في مجال التنقل من مكان إلى آخر أم في مجالات أخرى كالصيد والرياضة. و قد استعمله الإنسان منذ العصور الغابرة، وكان صديقه الدائم إلى مدة قريبة من الزمن.

في جبل العرب جرت هذه العادة في المشاركة في امتلاك فرس. كانت لتلك الشراكة الآثار الاجتماعية الواضحة والمؤثرة؛ كانت رباط صداقة وأخوة بين كثير من الناس حتى يمكن تشبيهها بالمصاهرة وسموها (نسب خيل).

وقد كانت الشراكة تلك تتمثل بامتلاك شخصين أو أكثر لفرس واحدة يتفق على ترتيب حصص كل فرد بقدر ما يدفعه من ثمنها. كانت هذه الحصص تقسم إلى ٢٤ سهماً أو (٢٤ قيراطاً) – كما يتعامل ببيع الذهب وشرائه – و كان من يدفع ربع الثمن مثلاً له ٦ قراريط، و من يدفع النصف ١٢ قيراطاً..... و هكذا.

توثق هذه الشراكة بصك مكتوب يسمى (حجة الفرس) يذكر فيها اسم البائع والشاري وأصل الفرس وأوصافها ورسنها، كما يذكر أسماء الشركاء الآخرين إذا كان هناك مزيد من الشركاء، وفي بعض الحالات تذكر شروط معينة حول الشراكة، وتختم

بتاريخ الحجة وأسماء الفرقاء والشهود. ويلاحظ في هذه الوثائق أنه ليس ثمة نماذج موحدة لتفاصيلها، فإن ذكر في هذه الوثيقة مثلاً رسن الفرس [1] لا يذكر ذلك في وثيقة أخرى، كذا الحال فيما يتعلق بالسعر، فأحياناً يذكر، ويغفل أحياناً أخرى.

وتظهر الوثائق المتعلقة بالخيل الطرائق المختلفة لبيع الحصص في فرس أو بيع فرس دون شراكة أو بيع حصان. وهناك أنواع أخرى من تلك الوثائق لا تتعلق بالبيع والشراء فحسب، بل بنسب الفرس وصفاتها أو بإيصالات استلام أو رسائل بين الشركاء، وغير ذلك. ويبدو أنه مهما حصلنا على وثائق تتعلق بالخيل يبقَ هناك وثائق أخرى توثق حالات مختلفة عما وصلنا إليه من وصف لموضوع شراكة الخيل وبيعها في جبل العرب خاصة، وباقي الأماكن من الوطن العربي عامة. شيءٌ واحد يجمع تلك الوثائق عند الناس هو أن جميع تلك الوثائق بأنواعها اصطلح على تسمية الواحدة منها (حجة فرس).

ولا بد أن أوضح أنني حين نسخت محتويات الوثائق، تعمدت أن أنسخها كما جاءت في الأصل بأخطائها اللغوية والإملائية وخلوها من علامات الترقيم كما هي الحال في معظم الوثائق المكتوبة من العامة من الناس، لكني تدخلت أحياناً، ووضعت المعنى الفصيح بين قوسين إذا كان الأمر مبهماً أو في حاجة إلى تصحيح. كما اضطررت أن أترك بعض الفراغات، وأشرت إليها بنقاط للدلالة على الكلمات غير الواضحة في الوثيقة التي لم أتمكن من فك رموزها، إن كان في المعنى أو في الكتابة.

الشراكة في فرس بين شريكين أو أكثر

تتم الشراكة في فرس بين شريكين أو أكثر حين يشتري هؤلاء الشركاء فرساً من طرف آخر، فتصبح لهم جميعاً كلٌّ بقدر ما دفع من ثمنها، كما هو الحال في الحجة التالية التي تنص على شراكة في فرس بين كل من محمد مبارك المغربي ورشيد بن محمد الدامري ويوسف السعدي من قرية شنيرة، وهذا نصها:

بتاريخه أدناه

قد تشاركوا وتعاقدوا على بركة الله تعالى ويمنه وحسن توفيقه كلا من محمد ابن المبارك المغربي فريقا أولا ورشيد ابن محمد الدامري ويوسف ابن ظاهر السعدي من أهالي قريت شنيرة فريقا ثانيا وذالك على جميع المهرة الزرقة الحديدية الذي أصلها الجلفا فأن المهرة المذكورة تخص الفريق الأول اثنا عشر قيراط وخص فريق الثاني اثنا عشرة قيراط فيكون لكلا من فريق الثاني ستة قراريط من أصل أربعة وعشرون قيراط فهذه ثمن الأربعة وعشرين قيراطا ومهما قسم الباري وأطعم من نسلها فتكون قسم والحصص بينهم متساوية على نسبة الحصص المشروحة أعلاه وإذا أحد الشركاء إذا اراد البيع والمشترا لأحد الناس فعليه المراجعة إلى شراكاته اذا أراد أن يأكل بالثمن فله الحرية المطلقة بذالك وإن اراد عدم قبوله بأكل الثمن وأبقى مخصه بالمهرة فله الحرية بذالك وطيب الخاطر وعليه قد جرا التصديق والاجاب والقبول المتبادل منا لتكون عقد هذا الشراكة مبينا على صحة واجاب أمام بيننا الآتي ذكرها وحرر ذلك وجرا من ثلاثة نسخ ليكون لكلا منا نسخة بخصوص الرسن يكون في يد أحد الشركاء يوسف السعدي واشعارا بشئنه قد صار تحريره

في ٢٥ جماد الثاني ١٣٢٣

(يوافق ٢٧ آب ١٩٠٥)

شهد بذلك حمد الحيوك، شهد بذلك حسن القاسم (ختم)، شهد بذلك محمد سعيد (ختم).

قابل محمد المبارك المغربي، قابل رشيد محمد الدامري (ختم)، محمد صبحي الصباغ (توقيع وختم) قابل فيه يوسف السعدي (ختم) [2].

ولا يقف موضوع الشراكة عند الفرس فقط، بل يتعداها إلى مواليدها ومواليد مواليدها، فصاحب الحصة في هذه الفرس له حصته فيما ستلده، مع اختلاف تقسيم الحصص بين الشركاء حسب

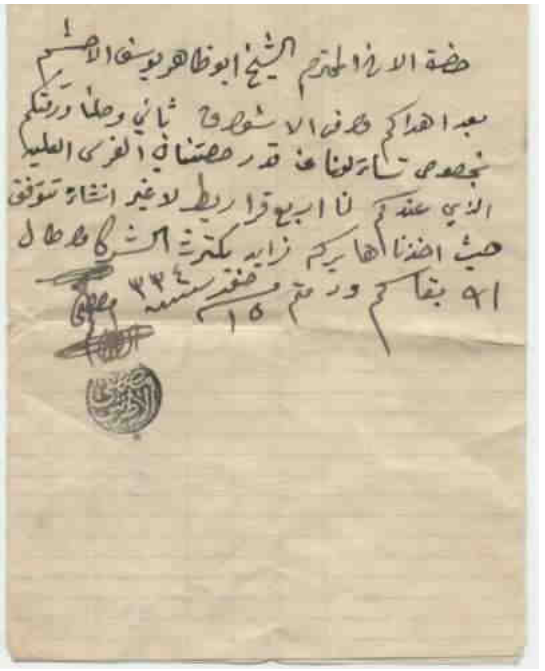

اتفاقهم على ذلك. ورغم أن هناك أعرافاً لتقسيم الحصص لمواليد الفرس بين الشركاء، ثمة حالات خاصة يتفق عليها خلاف ذلك، وهو ما سنراه عند الحديث عن الفياضة والمقاصرة.

لم تقتصر شراكة الخيل على أناس من قرية واحدة أو منطقة معينة، بل تعداها إلى مناطق أخرى كانت تجمعها علاقات اجتماعية وتجارية وزراعية، كما هي الحال بين أهالي جبل العرب والعائلات الدمشقية وقد جمعتهم علاقات صداقة خاصة من التجارة المتبادلة بين الطرفين نتج عنها علاقة خاصة تمثلت بشراكة الخيل بين كثيرين منهم. وهذه حجة لشراكة فرس بين المجاهد الشهيد فضل الله هنيدي من قرية المجدل وعائلتين دمشقيتين، المارديني وقصاب باشي.

بسم الله الرحمن الرحيم

انه بتاريخه أدناه

قد تشاركوا على بركة الله تعالى وحسن توفيقه كل منهما سليم آغا قصاب باشا فريق أول والشيخ أبو منصور فضلله هنيدي فريق ثاني وتوفيق أفندي المارديني من سوق ساروجة فريق ثالث وذلك الشراكة على المهرة الزرقة الحديدة التي باعها سليم آغا المذكور إلى الشيخ فضلله انها كحيلة عجوز في خيل عبد الرحمن باشا وأبوها الحيفي حصان موسى السيد وانها صارت المهرة المذكورة شراكة لكل فريق منها الثلث ثمانية قراريط ومهما قسم الباري من بطنها مهرة أو حصان فيكون كذلك لكل منهما الثلث وعلى ذلك تشاركو وأشهدو على أنفسهم والله خير الشاهدين.

حرر ١٤ شعبان ١٣٢٨

(يوافق ٢٠ آب ١٩١٠)

فضلله هنيدي	سليم قصاب باشي
ختم	ختم

شهد بذلك سليمان الطويل (ختم)، شهد بذلك عمار عريج من قرية المجدل، شهد بذلك حسين البكفاني، شهد بذلك جرجي زيدان، فضل الله هنيدي (ختم)، سليم قصاب باشي (ختم) [٣].

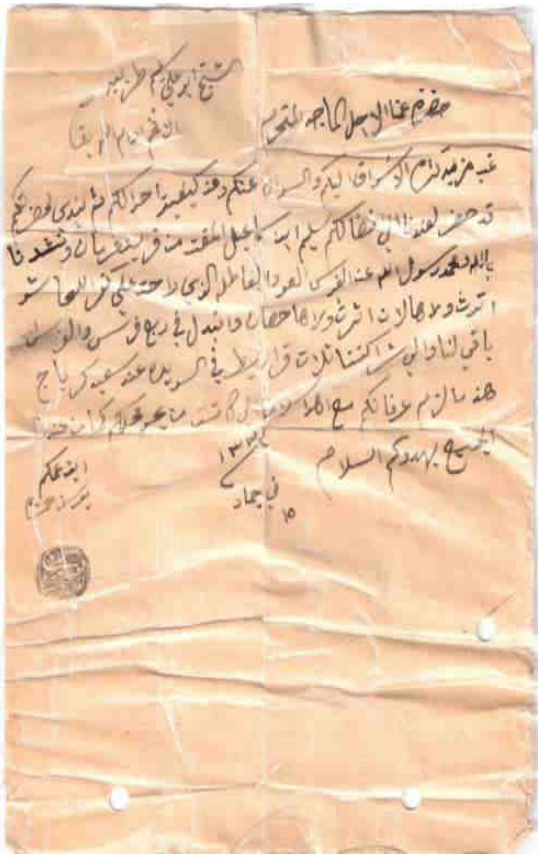

المقاصرة

المقاصـرة أو (القِصـار) هـي بيع أحد الشـركاء حصته لشـريك آخر، وقد يكون شريكاً وحيداً أو أحد الشركاء إذا كانوا أكثر من اثنين.

هذه حجـة تنص علـى المقاصـرة بين الشـركاء، يتخلـى فيهـا ثلاثة إخـوة يملكـون نصـف فرس عن حصتهم إلى شريك يملك نصفها الآخر.

سبب تحريره

أنـه بتاريخـه قـد تم الرضـا والاتفاق بـين جناب الشـيخ بو فندي سـلمان أبـو عسـاف وأولاد المرحوم عبدالله شـنان حسن وفارس أخوه وقد جرة المقاصرة بينهم علـى الفرس الزرقـا الذي هي بعقد الشـراكة فيمـا بينهم وقـد صـارة الفرس المذكـورة إلى جناب الشيخ المذكور ولا عاد إلى الأولاد المذكورين فيها دعوا أبـداً وقـد جرة المقاصـرة فيما بينهم علـى يد جناب الشـيخ بوفندي دعيبس عامر وجناب الشيخ بوشاهين محمد بو عسـاف وعلى ذلك صح الرضا وتم الإشهاد وللبيان حرر في ٧ شعبان ٩٢ اثنين وتسعون بعد المئتين وألف (يوافق ٨ /أيلول/ ١٨٧٤).

مقر بما فيه حسن وحمد وفارس شنان .

شـهود الحال

شهد بذلك قاسم منصور (ختم)، شهد بذلك دعيبس عامر (ختم)، شهد بذلك محمد أبو عساف (ختم) [٤]

تعد الوثيقة السـابقة من أقدم الوثائق التي انتهت إليَّ. وإن كانـت الوثيقـة الأولى التـي ذُكـر أنها أقدم وثيقة وجـدت في الجزيرة العربية والتي يعود تاريخها إلى عـام ١٨٨٦ للميلاد. كما أن أحد شـهودها هو من أسـرة أبي عساف التي كان موكلاً لها قضاء الخيل في الجبل، والمقصود هو الشيخ محمد أبو عساف المشهور بلقب (القميزي)، أحد رجالات الجبل المشـهورين في القرن التاسع عشر.

في الوثيقـة التالية ثلاثة شـركاء في فرس، يتخلى أحد الشـركاء- وهما في الحقيقة أخوان- لشريكيهما

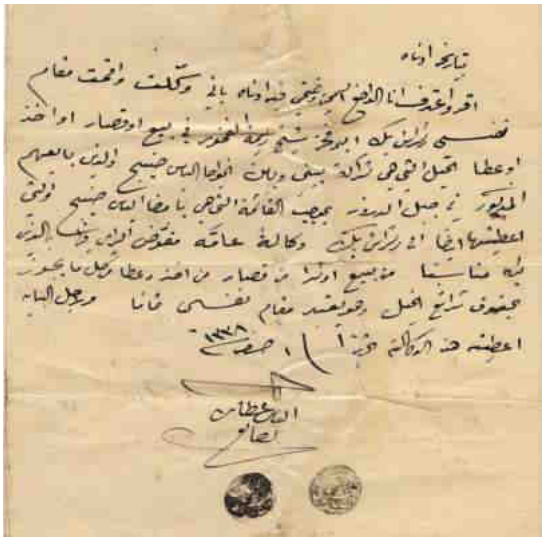

عن حصـتهما في الفرس بمبلغ محدد في الحجة؛ ٣٤٠ ليرة سورية، وسـنلاحظ من الوثائق المثبتة في الكتاب أنـه لا يُذكر سـعر الفرس أو الحصـة في الوثائق إلا نـادراً. ونلاحـظ أمراً آخـر في هذه الوثيقـة هو ذكر صاحب المربط [٥]، أي الشـريك الذي يرعى الفرس، والذي يطلق عليه أيضاً (قضاب الرسن).

بتاريخه أدناه حضر بمجلس عقده كل من الفريقين ذيب وذياب الظواهري وفريق ثاني يوسـف بو هرموش ووراد الحمد من عشـيرة الشـنابلة وقد جرى القصـار علـى الفرس الحمـرة المحجلـة الأربعا الصـبحة التي بمربـط يوسـف بو هرموش مـن حبران بمبلـغ الثلثمئة وأربعون ليرة سوري وقد أصبحت الفرس للفريق الثاني أعني أي يوسف اثني عشر قيراط وإلى وراد الحمد اثني عشر قيراط ولم يبقى إلى الفريق الأول شيء أعني ذيب وذياب وقد أصـبحت الفرس ملك الفريق الثاني يوسف ووراد دون معارضـ ولا منـازع ينازعهـم بيعًا صـحيحًا ثابتًا شرعيًا رضـي وقبول الفريقين وأدناه لشهيد علينا ونحن بصحة العقل وللبيات حرر ١٥ أيلول ١٩٣٨.

قابل على نفسه ذيب وذياب الظواهري (توقيع)

شـهد سـليمان حسـين ريدان (ختم) شهد بذلك (توقيع) حسين على درويش

شهد بذلك حمد درويش (ختم) [٦]

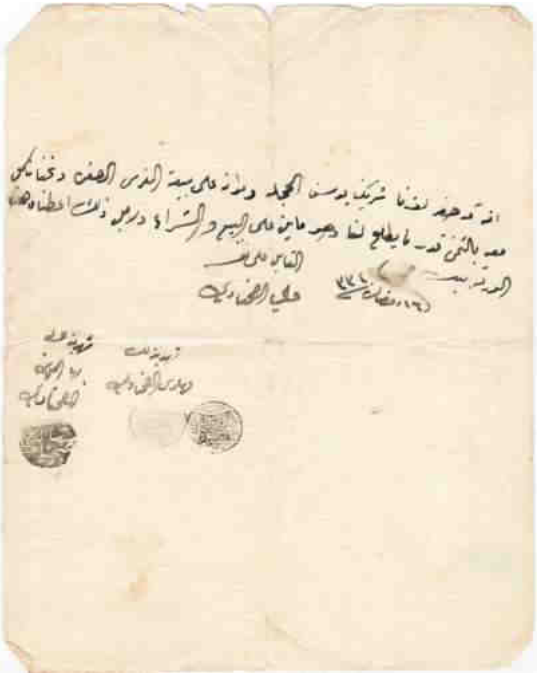

وهذه وثيقة فريدة لا تتناول الشراكة والحصص، بل هي اتفاق على شروط (القصار) بألا يتم إلا بعد أن تفرد الفرس، أي أن تلد، على أن يكون المولود أنثى (مهرة)، وهذا يعني أنه لو كان المولود ذكراً (فلو) ما تَمَّت المقاصرة، لأنَّ الحصان لا يجوز المشاركة فيه، بل يباع بيعاً كاملاً، كما سنرى في الفقرة التي ستتناول الوثائق الخاصة ببيع الحصان.

الحمد لله وحده لا شريك له

انه بتاريخه أدناه قد حضرنا نحن الموقعين أسماءنا دعيبس عامر وأنيس حمشو

من قرية المتونة. واتفقنا مع شريكنا محمد الصفدي من قرية أم الزيتون على المهرة الذي هي في مربطه الذي يوجد إلينا نصفها. إنه لا يجوز لنا نطلب القصار إلا لبعد ما تفرد المهرة المذكورة، وأن تكون ذلك المهرة لا يقسمها سوى بنتها حيث على ذلك اتفقنا أمام شهوده وأذنا للشهود برضانا واختيارنا وأن الذي يقبل من على هذا الشرط لا يكون له حصة في المهرة المذكورة وللبيان حررنا هذه لإبرازها عند اللزوم عن يد شهود الحال والله خير الشاهدين.

تحريرا في ١ / ٦ / ١٩٥١

قابل على نفسه أنيس حمشو، قابل على نفسه دعيبس عامر (توقيع).

شهد حسين جعفر، شهد أبو أحمد كرباج. شهد عواد عامر، شهد سعدو عامر، شهد سلمان عامر (ختم) [٧].

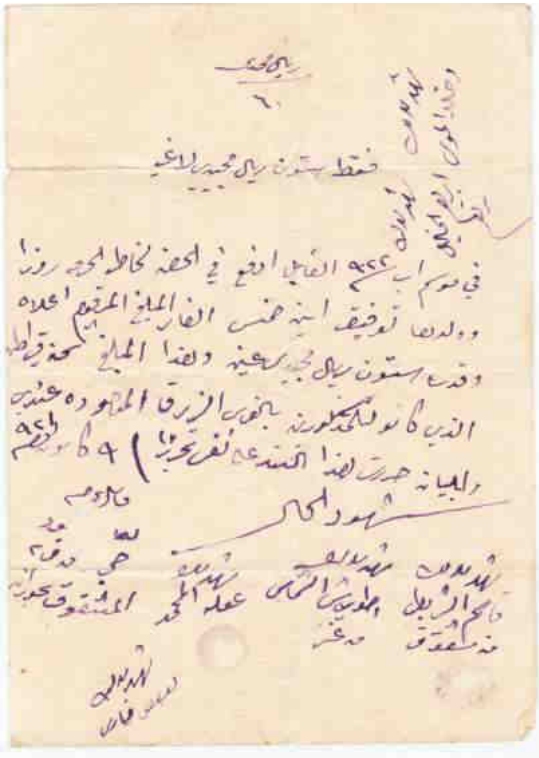

وتظهر معظم حجج الخيل الأسلوب الأهلي بالتعامل بين الشركاء دون الإشارة إلى الدوائر الرسمية في الدولة، لكن هناك وثائق تحمل تواقيع وأختاماً رسمية، وتشير إلى حضور الدولة أو السلطة المحلية في صيغة الحجة، بدءًا من المختار وانتهاء بالسلطة المحلية في البلدة أو المدينة التي تتبع إليها القرية.

هذه وثيقة مقاصرة على فرس ومهرة بين عدة شركاء نوّه المحرر في آخرها عن مجازاة من يخلف بشروط الحجة لدى الحكومة السنية، أي الحكومة العثمانية القائمة زمن الوثيقة التي تعود إلى عام ١٩١٢.

بتاريخه أدناه....

قد حضروا قدام الشهود المدونين اسماءهم بو

حسـن الهنداوي وولد حسن ومشـعل شلهوب ومحمد على نادر وقاسـم الصـفدي وأخوته وقد تقاصر على الفرس والمهـرا وقد صـارت الفرس الكـبرى إلى أبو حسـن الهنـداوي ومحمد على نادر ومشـعل شـلهوب وصـارت المهرة إلى قاسم الصـفدي وأخوته وما بقي لهـم في الفرس شـئ وهيك وقع الرضـا فيمـا بينهم برضـاهم الجميـع واختيارهم بدون كرهـا ولا اجبار وكذلـك لمحمـود البربـور اذا قـام دعوة على قاسـم الصفدي واخوته تكون دعوته على أبو حسين الهنداوي وهكذا وقع الرضـا والإتفاق واذا لا سـمح الله انسـان مـن المذكورين غير مـا هو درج في باطنـه يكون جزاه من الحكومة السـنية وللبيان حررت هـذه الوقفية في ١٦ رمضان ٣٣٠، (يوافق ١٩١٢/٠٨/٢٨)

المقـر بما فيه مشـعل شـلهوب ومحمـد علي نادر (ختـم)، المقريـن على أنفسـهم أبو حسـن الهنداوي وولده حسن

شـهد (ختم)، شـهد (ختم)، شـهد (ختم حامد شاهين نادر)، مختار قرية الغارية الشبيح (ختم)

وكذلـك تخالـص أبـو حسـن الهنداوي ومشـعل ومحمـد علـي نـادر وصـارت الفرس إلى أبو حسـن الهنداوي خاصة [٨].

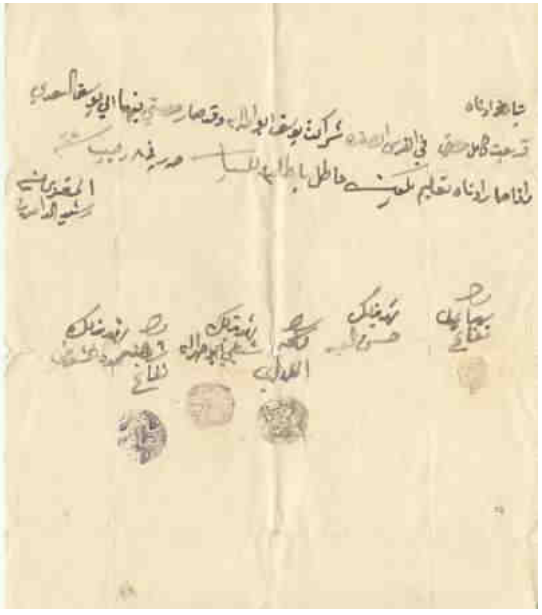

الفياضة

جـاءت كلمـة فياضـة من فعـل فاضـ بمعنى كثر وزاد. والفياضـة في شـراكة الخيـل هـي التخلـي عن حصـة الشـريك لشـريكه بعد ولادة الفرس، بعد أن (تفيض) الحصـص بوجود المهـرة. ومن الفياضـة جـاء الفعـل باللهجة العاميـة (فيّض) أي تخلى عن حصـته بالفرس أو المهرة، وبالمقابل يفيِّض الشـريك حصـته لشـريكه بالمهرة أو الفرس؛ فتصـبح الفرس لأحدهمـا والمهرة للآخـر. فيقال: فيَّض فلان المهرة أو الفرس إلى شـريكه. وليس للفياضـة شروط ثابتة، وليس بالضـرورة أن تتم الفياضـة بعد ولادة الفرس، فقـد تسـتمر الشـراكة أجيالاً عـدّة كما شـاهدنا في وثيقة سـابقة. أمـا إذا كانـت الفرس مملوكة لأكثر من شـريكين، فيتم اتفاق مسـبق عند الشـراكة على الشـريك الذي سيفيض المولود الجديد أو الفرس إلى باقي الشـركاء. ومن شروط الفياضة ألا تتم قبل بلوغ المهرة أربعة شهور كي تشبع من لبن أمها.

الوثائق التالية توضح إلى حد بعيد معنى الفياضة في شراكة الخيل وتظهر كل وثيقة أو حجة أمراً مختلفًا عن الآخر فيما يتعلق بالفياضة.

هـذه حجة شـراكة في فرس يمتلكها عدة شـركاء وضـع شـرط فيها أن على أحدهـم أن يُفيِّض الفرس أو ابنتهـا أو ابنها في حال ولادتها إلى باقي الشـركاء، وهم من قرية الحصـن التي تتبع الآن المملكة الأردنية الهاشمية، لكن في حينه كانت تتبع لواء حوران .

بتاريخـه أدناه قد صـار حضـور عقلـة أفندي أبو محمد عبد الرحمن من قرية الحصن وشريكه الفريق الثاني محمود المحاسـنة من قرية حوارة جميعهم من قضاء عجلون وقد صـار اشترا ثلث الفرس الزرقا مع الثلث السـابق إلى يوسـف ابن المرحوم محمود حجلة مـن قريـة المشـقوق والثلث الثالـث إلى عقلـة أفندي وشـركاه السابقين وقد تعهد يوسـف المذكور إذا قسم الله من الفرس مهر أو حصـان ملزوم يوسـف يفيض

احداهم إلى عقلة افندي وشركاه ولأجل البيان صار تنظيم هذه الحجة لكي تحفض لحين اللزوم عن شهود الحال.

تحريراً ١٤ كانون الأول ١٩١٩

شهد بذلك سليم النصر الله (ختم)، القابل بما فيه يوسف محمود حجلة من المشقوق، القابل بما فيه عقلة المحمد من الحصن (ختم)، شهد بذلك توقيع (اسماعيل الحجلي)، القابل بما فيه محمد المحاسنة من حوارة (ختم) [٩].

بيع حصة من فرس

ذكرنا سابقاً عن بيع حصة شريك في فرس شريكاً آخر، وتعرف هذه الحالة بالمقاصرة، لكن هناك حالات يبيع فيها الشريك شخصًا آخر خارج اتفاق الشراكة، فيصبح الشاري شريكاً جديداً، ويخرج البائع من اتفاق الشراكة.

هناك حجج كثيرة توثق لهذه الحالة اخترت منها الحجج الآتية:

هذه وثيقة يبيع فيها شريك في فرس حصته إلى طرف ثالث، ويخرج هو من اتفاق الشراكة. والملاحظ أنه لم يذكر الثمن الذي قبضه البائع من الشاري، كما هي الحال في كثير من حجج البيع والشراء في جبل العرب. ولم أصل إلى معرفة دقيقة إن كان هناك سبب لهذا أم لا.

بتاريخه أدناه

قد بعت كامل حصتي من الفرس الصفرة شراكة يوسف أبو طرية وقد صار حصتي فيها إلى يوسف السعدي وإذا صار أدنا تعليم يكون عاطل باطل وللبيان حرر في ٨ رجب ٢٥

(يوافق ١٨ آب ١٩٠٧)

المقر بما فيه رشيد الدامري

شهد اسماعيل نفاع (ختم)، شهد بذلك حسن العيد، شهد بذلك قاسم العدوي (ختم)، شهد بذلك شبلي أبو طرابة (ختم) شهد بذلك شاهين نفاع (ختم)، شهد بذلك حمود الشويفي[١٠].

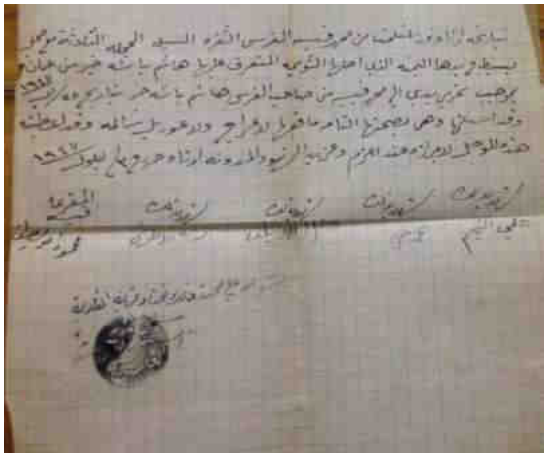

وهذه وثيقة بيع ثلث فرس من أحد سكان الجبل إلى شخص من أبناء قرية سجور في قضاء عكا.

بتاريخه أدناه قد حضر أمام شهودي يوسف السعدة ونايف ابن اسليمان ابراهيم من قرية سجور من قضا عكا وقد باع يوسف على نايف ثلث الفرس الصفرا زواغية بقيمت ثلث الاف غرش وباقي في

الثلثين الى البايع وتعهد المشتري بانه لا يبيع ولا يبدل عن ذمته الا يعرظ على اشريكه واذه باع يكون ملزوم يدفع خمس ماي غرش عن كل قراط واذه رد الفرس عقب تاريخه في يوم يدفع خمس مايـة غرش اقماعة وعلى ذلك صح الرضا واتفاق وامبيع ضهر ورحم وللبيان حرر في ٢١ / ذي الحجة/ ٣٢٨ (يوافق ١٩١٠/١٢/٢٢ميلادية)

المقر بما فيه نايف ابن اسليمان ابراهيم، المقر بما فيه يوسف السعدة

شهد بذلك حسن القاسم (ختم)، شهد بذلك احسين الشحاذة، شهد بذلك أحمد السليمان (ختم)، شهد بذلك نمر حرب (ختم) [١١].

تظهر الوثيقة السابقة عدة أمور تتعلق بشراكة الخيل، نوردها بالتفصيل لأهميتها:

أولا: نلحظ أن الشراكة تخطت حدود الجبل وسورية الحالية إلى عكا في فلسطين. والمعروف أن عكا كانت ميناء تجاريّاً مهما تُصدَّر منه المنتجات المحلية إلى أوروبا وإفريقيا، وما شراكة الخيل بين الشيخ يوسف السعدي، شيخ قرية شنيرة في الجبل، وأحد أبناء عكا إلا لمصالح تجارية مشتركة بين الطرفين.

ثانياً: تنص الحجة على نوعين من الغرامات إذا أخل الشاري بشروط الشراكة، أولها أن يدفع غرامة إذا باع حصته لشخص ثالث دون مشورة شريكه، والمبلغ ٥٠٠ قرش عن كل قيراط أي ٤٠٠٠ غرشاً، وهو يعني زيادة ألف غرش على قيمة حصته، وهو مبلغ كبير. والغرامة الثانية هي إذا رد الفرس، أي فض الشراكة، ولو بعد يوم واحد فإنه يدفع ٥٠٠ غرش، وسميت هذه الضريبة (قماعة).

ثالثاً: ورد تعبير (ظهر ورحم) ويقصد به أن الشراكة تنطبق على مولود الفرس كما تنطبق على الفرس نفسها، وبذلك يكون للشاري الثلث في الفرس والثلث في مولودها.

نرى من الوثيقة، على قصر فقراتها، أنها ذات صيغة نادرة لا تتكرر كثيراً في حجج بيع الخيل وشراكتها، وذات أهمية كبيرة لما نصت عليه من الأمور التي تم شرحها وتوضيحها.

والحجة التالية لبيع نصف فرس دعجانية بمبلغ ٣٥٠٠ غرش سلطانيّ، أي عثماني، مرفقة بملاحظة أنه إن لم تكن دعجانية يكون ثمنها ألف غرش، أي أقل من ثلث الثمن. هذا يؤكد أمراً مهماً أن للناس فيما يعشقون مذاهب في اقتناء الخيل، فالملاحظة تؤكد أن يكون الرسن صحيحاً، فربما كان رسنٌ مشهورٌ آخرُ عند بعضهم أهم من رسن هذه الفرس.

إنه يوم تاريخه أدناه قد حضروا مجلس عقده وأمام شهوده وهم فريق أول أبو حمد محمود ياسين الريحاوي ومعه فريق ثاني محمود بن سلامة الحجلي وبناء على الرضا الواقع بينهما قد اشترى فريق ثاني المذكور من فريق أول المرقوم نصف الفرس الدعجانية بمبلغ قدره وبيانه من الدراهم السلطانية ثلاثة آلاف وخمسماية غرش لا غير ولا بقي إلى البايع في مبيع

النصف المذكور ولا بثمنه حق من الحقوق الشرعية والنصف الآخر إلى فريق أول المذكور وشريكه الشيخ صالح السبسبي ولا بقي إلى البايع في مبيعه أدنى تعلق بيعا باتا شرعيا راضيا مرضيا لا رجع فيه ولا فساد ولا خلل ولا ميعاد وغب الرضا والقبول والتسليم وقد صار تحرير هذه الحجة لأجل يصير تقديمها في وقت اللزوم. ٢٨ ذي الحجة ١٣٢١ (يوافق ١٤ / ٣/ ١٩٠٤)

شهد بذلك اسماعيل الأعور. شهد بذلك هزيمة بو حسن،شهد بذلك سليمان الجرمقاني (ختم). شهد بذلك عبد الله العجراوي من بغداد (ختم). قابل بما فيه محمود بن أحمد ياسين الريحاوي من باب الشاغور (ختم).

شهد بذلك أسعد حديفي (ختم). شهد بذلك كاتب محررات صلخد (ختم). شهد بذلك أمين صندوق صلخد (ختم علي بن الياس). شهد بذلك يوسف بن زكريا جركس.

كذلك بخصوص الفرس المذكورة إذا كانت غير ما هو مذكور من جهة أصلها انها دعجانية يكون ثمن نصفها المذكور الف غرش لا غير

مقر بما فيه محمود أحمد الياسين (ختم) [١٢].

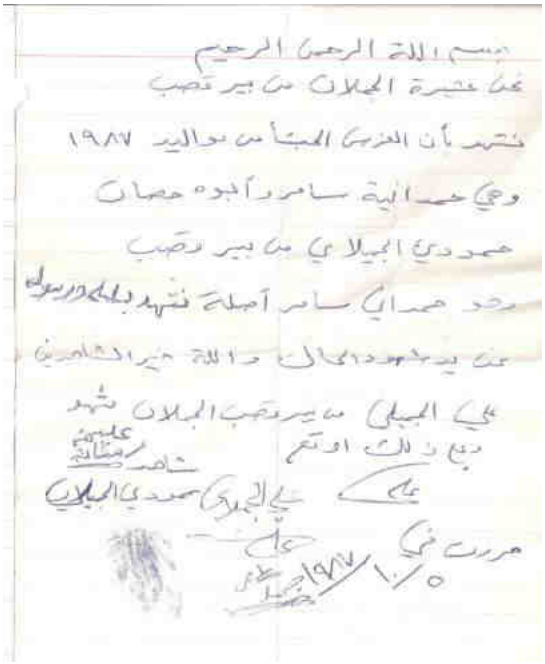

(الوثيقة رقم ١٩) محفوظات السيد وليد قيسية، الغارية

وهذه حجة بيع ربع فرس حديثة العهد أيضاً، ١٩٥١، يلحظ مما تنص عليه أنها كانت ملكاً لستة أشخاص على الأقل، ذكر منهم في الحجة اسمان واسم ثالث مع شركائه، هذا يعني أن الشركاء أكثر من ثلاثة، ويعني أيضاً أن أصحاب الفرس ستة أو أكثر، إذا فرضنا أن كلمة شركاء تعني ثلاثة أو أكثر. وربما يدرك المرء هنا أن مسألة الشراكة بين هذا العدد من الأشخاص ليست بقصد الكسب المادي لما تنتجه الفرس من مواليد أو ما يمكن أن يزيد في سعرها مثلاً، بل هي عادة اجتماعية تمتن العلاقات المختلفة بين مجموعة من الأشخاص لتجمعهم رابطة معينة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية على الأغلب.

الحمد لله وحده

أنه بتاريخه قد حضروا أمام شهوده الفريقين المدونة اسماءهم وهم فريق أول مشاري حمزة درويش وفريق ثاني على مصطفى درويش والكل منهم من سكان قرية الحريسة التابعة قضاء صلخد وقد اتفقوا من بعد التوكل على الله على أنه فريق أول مشاري المذكور باع الى فريق الثاني علي ستة قراريط في فرسه السودا الكحيلة وصار ثمن ذلك الستة قراريط أعني ربع الفرس وصار ثمن ذلك الستة قراريط مائتين ليرة سورية عين قد قبضهم البايع من يد الشاري دفعة واحدة في مجلس واحد ولا بقي بذمة الشاري ولا بارة الفرد وصارت الفرس المذكورة في مربط الشاري علي المذكور وصار الى صاحب المربط علي ستة قراريط وإلى فريق أول مشاري ستة قراريط والاثنتي عشر قيراط الباقيين إلى رشراش الجباعي وشركاه تمة الأربعة وعشرين قيراط وحيث بينا ذلك لسبب أن فريق أول مشاري المذكور مطلوب لخدمة العلم فزعم أنه بصورة وهب أودع قسما من حصته الستة قراريط المذكورين بصورة وهب لحتى

يتعب ويشبي ويعفى ؟ ويدفي لهذا لا يحق إلى أحد الشركاء يعارض علي المذكور في أقل معارضة ونكرر أنه باقي إلى مشاري في الفرس الذي في مربط علي ستة قراريط وعلى ذلك نوقع إمضائنا ونأذن لمن يضع اسمه في الشهادة أدناه والله خير الشاهدين

تحريرا في ٢ / ٧ / ١٩٥١

المقر بما فيه مشاري درويش

شهد بذلك يوسف يونس، شهد بذلك حمد السلامي (توقيع)، شهد بذلك سلمان محمد الشاعر (توقيع)، شهد بذلك الفقير لله خليل نجم درويش (توقيع)، شهد بذلك (توقيع)[١٣].

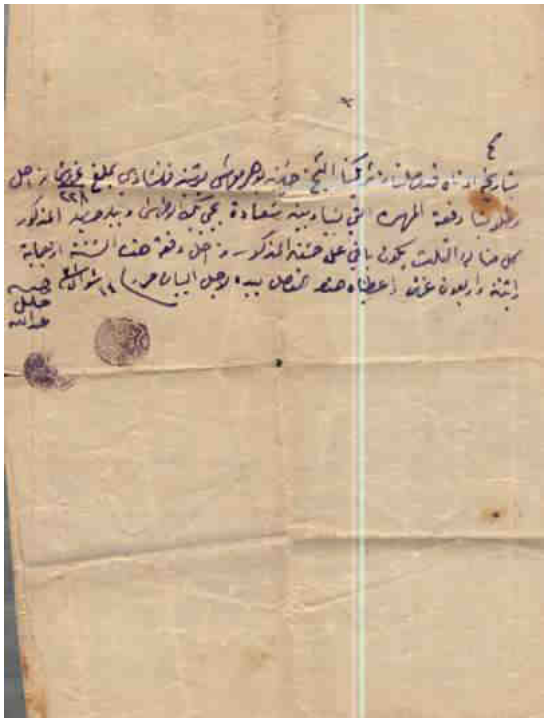

حجج بيع لأكثر من فرس

لم تكن الشراكة على أكثر من فرس دارجة كثيراً بين مقتني الخيل، لكنها وجدت في حالات قليلة، لأن نتائج الشراكة تكون معقدة أحياناً لكثرة الشركاء وتعدد الأسهم والحصص.

هذه حجة تنص على أن شخصًا أعطى شخصاً آخر ثلث فرس يملكها (ثمانية قراريط)، وأخذ بالمقابل تسعة قراريط في فرس يملكها الشخص الآخر مع شريكين له. لم تحدد الحجة لمَ جرى تبادل تسعة قراريط بثمانية، وعلى الأغلب فإن الفرس الأولى أغلى من الثانية، أو إن الشريك الذي أعطى الثمانية دفع ثمن القيراط، أو أن الشريك الثاني قبل بالقسمة، لأن الفرس ستكون في مربطه كما جاء في الحجة.

من بعد الاتكال على الله

بتاريخه حضروا أمام شهوده فربق أول حمد بن صالح رزق وعطا ثلث الفرس الشورة المعنقية السبيلية التي درجت عليه من عند خليل آغا.... من الصالحية يعني ثمانية قراريط معلف ؟ من أصل أربعت وعشرون قيراطا والباقيين الثلثين ملك إلى فريق أول وذلك العطا إلى فريق ثاني قاسم ابن محمد بو دهن كلهما دروز في ناحيت ملح وفريق ثاني عطا إلى فريق أول تسعة قراريط في الفرس المعنقية حدرجية من أصل خيل دحل بن سابل من عشيرة الدغمان وباقي له في الفرس المحررة ملك ستت قراريط إلى قاسم أبو دهن وثمانية قراريط إلى أحمد معروف كملت الأربعة وعشرين قيراط وذلك تقرر يكون الرسن الفريقين بيد فريق أول ومهما قسم الله من رحمهم الفرسين المرقومتين يفيظ على قاسم بو دهن معاوظة صحيحة شرعية برضا وقبول من الفريقين وكلمن رضي ذلك واذنو بالاستشهاد عليهم وللبيان تحرر ١ كانون الأول ٣٢٧ (رومي) يقابله (١٤ ذو الحجة ١٣٢٩ هجري) و(١٩١١/١٢/١٤ ميلادي)

المقر بما فيه قاسم بو دهن (ختم)، المقر بما فيه حمد رزق (ختم)

شهد بذلك حسن شهاب الدين (ختم)، شهد بذلك محمد الحلبي (ختم)، شهد بذلك علي بلان (ختم)[١٤].

(الوثيقة رقم ٢٢) محفوظات الأستاذ عادل رزق، ملح – خازمة.

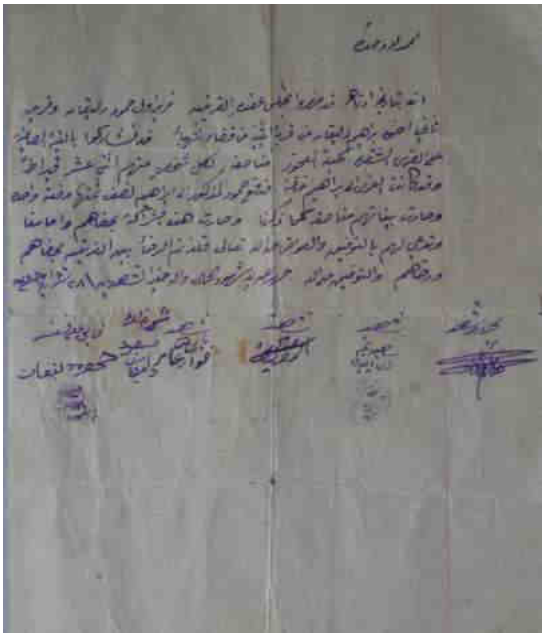

حجج المبادلة بالخيل

تظهر الحجج التي تنص على المبادلة في حصص من فرس أو أكثر بفرس أو أفراس أخرى أن الغاية منها زيادة عدد الشركاء والخيول أيضاً. وكما ذكرنا سابقاً أن من أهداف شراكة الخيل هي زيادة أواصر المعرفة والعلاقات الاجتماعية بين الناس، ومن كان يملك أسهماً معينة في فرس واحدة ففي وسعه أن يملك عدد الأسهم نفسه، لكن في فرسين أو أكثر، وقد تكون النتيجة أفضل له في حالات عديدة، منها مثلاً أن فرصة ربحه من ثلاث أفراس هي أكثر من الفرصة في فرس واحدة، إضافة إلى زيادة الأواصر الاجتماعية مع عدد أكبر من الناس وفي مناطق متعددة من البلاد.

هذه حجة تنص على مبادلة بين شريكين في حصتين في فرسين بحصة مساوية لهما في فرس ثالثة.

سبب تحريره أنه بتاريخه أدناه حضر أمام الشهود المدونة أسمائهم نايف ابن الشيخ بو يوسف حمد طربيه وقد قر بأنه أعطا إلى أبو حمد اسماعيل المقت اربع قراريط قيراطين في الفرس الشقرة المعنقية الذي الآن عند والد المذكور نايف وقيراطين في بنتها الذي في عتيل شراكة محمد نعمان الجملة أربع قراريط في كل فرس من المذكورين قيراطين وبو حمد اسماعيل اعطا نايف عوض بالأربع قراريط أربع قراريط في الفرس الصفرا الذي عند أخوه بو داوود سليمان الفرس الجلفة وصار قراريط عن قراريط والمهرا الي في عتيل إذا كانت سالمة نهار الأربعة وعشرين في كانون الأول تكون بكيس اسمعيل ان نقدو عليها شي من قبل الأربعة وعشرين تكون بكيس نايف حسب اقرارهم.

تحرر ذلك للبيان وعدم النسيان تحريرا في شهر جمادى الاول سنة ١٣٢١ [؟].

ختم سلمان حسن عامر، ختم يوسف طربيه، سليم طربيه (ختم)، ختم حسن طربيه، شهد بذلك يوسف حسن طربيه.

حاشية عرضية في أعلى الحجة :

جرا ذالك بحضورنا ونشهد بصحة ذلك. حسين الأطرش (ختم) [١٤] .

وهذه حجة تنص على بدل نصف فرس بنصف فرس أخرى بين شريكين، بينما بقيت حصص شريك ثالث لهم على حالها، وبذلك أصبح الثلاثة شركاء في الفرسين.

بتاريخه أدناه حضر لدى شهود ذيله برضاي واختياري بداعي الثنا عشر قيراط الذين هم بشراكة فارس أبو حسان الذي جرى بيني وبينه البدل نصف الفرس الصفرة وأخذت منه نصف الحمرة الذي في مربط أبو حسن يحيى رزق وعلاوة على النصف الذي أعطيته اياه بقي نصف للشيخ أبو حسن يحيى رزق مناصفة بيني وبينه أي لكل واحد منا ستة قراريط واذا بان باني بايع أوعائض أو مبدل في السنة..... الذي يختصوا في الشيخ أبو حسن يحيى رزق مجبور أن أدفع له ثمن الستة قراريط أو ستة قراريط في الفرس الحمرة التي في مربط أبو حسن يحيى ولأجل البيان وعدم النسيان حررت هذه الكمبيالة على نفسي ليعمل بها عند الحاجة

٨ شباط ٩٣١

المقر بما فيه جادو قاسم أبو طرية (ختم)

شـاهد وديع خداج (ختم)، شـاهد عزام قماش، شـاهد الجنـدي (ختم فـواز فرحان عزام)، شـاهد فارس (توقيع وختم)[١٥].

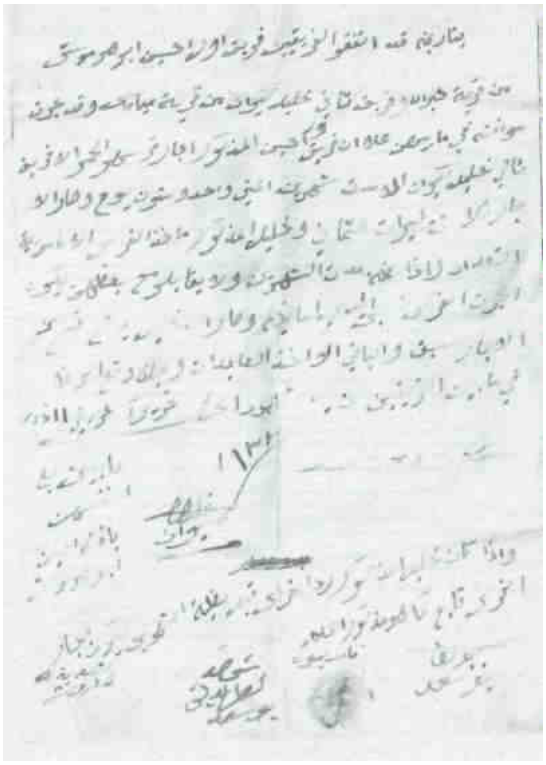

هذه حجة تنص على مبادلة نادرة للخيل الأصيلة، فأحدهم يبيع سـتة قراريط من مهرة وأربعة قراريط مـن أمها بمجمـوع عشـرة قراريط بدلاً من كديشـة؛ والكديشـة هي الفرس غير الأصيلة من الخيل، وغالباً مـا تسـتعمل للحراثة ونقـل الأحمال ولا تتمتـع بالقوة المعتادة التي تتصـف بها الخيول الأصيلة التي تحظى بالرعاية والعناية الصحية والغذائية[١٦].

أنـه بتاريخـه وعن يـد شـهوده أقر وأنـا في حالة تعتبر شـرعا باللي قد بعته إلى الحاضـر معي السـيد عبـد الكـريم رزق مـن قرية خازمـي المهـرة الموردية عبية الخضـر البالغ سـنها ثنية وجرا البيع على سـتة قراريط من أصـل أربعة وعشـرون قيراط وكذالك قد

ابعته أربعة قراريط في والدتها التي هي الآن في مربط نايـف رزق في قريـة خازمي كذلك صـار جملـة البيع عشـر قراريط تحت مبلـغ قدره وبيانه بـدل في مهرة كديش والشركة التي في المهرة نصف إلى الشيخ نايف رزق قيراطين إلى مرهج مقلد وأولاد عمه عبد الكريم وهاني مقلد كل منهم قراطين وشـراكة الفرس نصف إلى نايف رزق وإلى مرهج وهاني ربع وإلى عبد الكريم مقلد قيراطين فهذا شـراكة ثلث الخيل المباركين ومن جهتـي أنـا الـذي ابعـت ما خصـني قد خلصـت من الشـراكة وثلـث البيع لا يشـوبه أدنـا... وذلك تم ثلث عقد الشراكة في تاريخ ٤ تموز ١٩٥٠

المقر بما فيه حمود جابر مقلد

شـاهد أجود رزق شـاهد محمد رزق شـاهد نايف رافع رزق شاهد يحيى رزق[١٧].

حجج بيع فرس كاملة

لا شـك أن الشـراكة في الخيل كانت سمة رئيسية للبيع والشـراء، لكـن لم تمنع من البيع والشـراء دون شراكة، كما هي الحال في بيع وشراء الأشياء الأخرى. وإبَّانَ جمعي وثائق الخيل على مدى السـنين السابقة، لم أعـثر إلا علـى حجج قليلـة توثق بيع فرس كاملة. وخطر ببالي أنه ربما كان يُحتفظ بحجة الشراكة أكثر مـن حجة البيع الكامل لاحتوائها على توثيق للشـركاء وحصصـهم ليعودوا إليها في حالات فض الشـراكة أو بيع الحصص أو الفياضة.

الحجة التالية توثق بيع فرس كاملة إلى شخص آخر، يظهر من خلال الأسماء والألقاب أنهما من لبنان، لكن في زمن لم يكن لبنان مفصولاً عن البلد الأم، سورية.

سبب تحريره

هو أنه بتاريخه أدناه قد بعنا كامل فرسنا الشقرة السقلاوية الجدرانية من الرسن المذكور وأبوها الحصان الأشقر المشهور رسن كحيلان العجوز الذي كان موجود عندنا إلى أخونا أحمد آغا خداج بثمن معلوم قبضناه منه نقدا كمالا وتماما ولم يبق لنا قبله حق ولا دعوى بالثمن ولا البيع المذكورين اصلا وأصبحا الفرس المذكورة بطنا وظهرا ملكا خالصا للمشتري المحرر يتصرف بها حسبما يشاء وللبيان حرر هذا الصك تحريره في ٢٥ أيلول /٣٢٣ و٣٠ شعبان / ٣٢٥ يوافق (١٩٠٧/١٠/٧ ميلادي)

فؤاد جنبلاط (ختم)

شهود الحال : شهد بذلك (ختم ملحم الخليل)، شهد بذلك خليل جنبلاط، شهد بذلك عبد الحميد جنبلاط (ختم)، شهد بذلك مجيد ارسلان (ختم[١٨]، شهد بذلك خليل حمدان (ختم)[١٩].

الحجة الأخيرة لبيع فرس كاملة تختلف عن مثيلاتها في أنها تأخذ طابعاً رسمياً ومصدقة من دولتين عربيتين، سورية والأردن. تنص على بيع فرس من أحد أبناء قرية الحصن الأردنية إلى أحد أبناء جبل العرب ومصدقة من مسؤول في شرق الأردن وفلسطين، وعلى الأغلب هو من موظفي الانتداب البريطاني لأنه وقع بلغة أجنبية (بحروف غير واضحة، يصعب تفسيرها)، كما أُلصق على الحجة طابعان لمحافظة جبل الدروز.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا سليمان فسبحان من جعل الخير مقرونا بنواصي الخيل وجعل لنا أكل أثمانهم وجعل لنا بطونها عزا وظهورها كنزا.

أنه بتاريخه ادناه حضروا قدامنا كل من الرجلين البالغين الراشدين وهم الأول صالح العازر القاطن حول مساكنه.....فلسطين الحصن والصريح مسلم من عشيرة بني الحسن والفريق الثاني حسين بو هرموش من قرية حبران سوريا جبل الدروز على أنه الفريق الأول قد باع إلى الفريق الثاني الفرس زرقة حديدية أصلها عبية أم جريس بالله محمد رسول الله مسلسلة من خيل العدوان..... من عرب بني شمر وصار بيع الفرس كاملة سالمة باردة أربعة وعشرون قيراط وقد صار ثمن...الفرس ثلاثون جنيه فلسطيني وقد قبض الثمن البايع قبظة واحدة في مجلس واحد ولا بقي بذمة الشاري من ثمن الفرس ولا بارة الفرد وقد قبض الشاري الفرس وإذا بان داعي أم مدعي شراكي يكون مسؤول هو صالح لا يعني الشاري شئ وبذلك تم الرضا والإتفاق والله الموفق عن شهود الحال والله خير الشاهدين. وقد حرر تموز ١٩٤١.

القابل على نفسه صالح العازر (٢) (توقيع على طابعين لمحافظة جبل الدروز)

شهد بذلك داود الميلم (بصمة)، شهد بذلك فارس بن حسين دحام (بصمة)، شهد بذلك... العفيش (بصمة)، شهد بذلك سفيان بني حسن (بصمة)

صادق على ذلك في حضوره الملازم الأول لشرقي الأردن وفلسطين (كتابة بلغة أجنبية غير واضحة[٢٠].

الحجج المتعلقة ببيع الحصان

جاء في الأمثال البدوية مثل يقول : «باعه بيعة حصان» أو «باعني بيعة حصان» كناية عن التخلي الكامل عن الصداقة أو المعرفة. جاء المثل من حقيقة أن الحصان عادة يباع كاملاً، ولا تصح عليه الشراكة لأنه لا يستفاد منه في المستقبل بمواليد تزيد حصص الشركاء، ويقال في حالة بيعه إنه (بيع مقفلع أو مقلفع). ذلك أن الحصان لا يستفاد منه إلا لجيل واحد، إذ تنتهي الاستفادة ببيعه أو موته، وسعره أقل

من سعر الفرس في العادة، وسنلحظ هذا من خلال الوثائق التالية:

هذه حجة بيع نصف فرس بحصان ومبلغ من المال، وهو ما يعني أن ثمن الفرس يساوي أكثر من ثمن حصانين اثنين.

بتاريخه أدناه

حضر كل من فريق أول حمود الخطيب من السويداء وفريق ثاني عارف عجرم من قرية ذيبين..... بدرك حكومة جبل الدروز وقد باع الفريق الأول حمود حصته من الفرس الصفرا الكبشة وقدرها إثنا عشر قيراط أي نصف الفرس إلى الفريق الثاني عارف عجرم وقد اخذ مقابل ذلك كامل الحصان الأحمر المعنقي الحديدي..... المذكور وأربعة ليرات عثمانية ذهب قبضة واحدة بمجلس.....أصبح نصف الفرس المذكورة ملك لعارف بتصرف به كما يشاء وأما..... الباقين بالفرس الصفرة فمنهم ثمانية قراريط إلى محمد المصري من أم الرمان وأربعة قراريط إلى محمد الشمندي وأخوه من قرية متان وعلى ذلك تم الرضا والإتفاق بين الفريقين وهما بصحة العقل والجسم ولا يجوز منهم الرجوع عن البيع بعد استلام الرسن والذي يغير أم يبدل يكون ملزوم بدفع خمس ليرات عثمانية للآخر مع كافة مصاريف الحكومة والجزاء النقدي.

تحريرا ٢٣ أيلول ١٩٢٤

المقر بذلك عارف عجرم من ذيبين (ختم)، المقر بذلك حمود الخطيب من السويداء

شهود الحال : حسين الحسين من جدية، توقيع (محمد؟)، شهد على ذلك هاني الخطيب، شهد به طلال دويعر

ملاحظة : لم نتمكن من قراءة محتوي الوثيقة كاملة لنقص فيها. [٢١].

في الوثيقة التالية يباع الحصان بتسعة قراريط من فرس، وهذا يعني أن الحصان سعره نحو ثلث فرس، ويُلحظ أيضا التركيز على نسب الفرس (معنقي سبيلي)، وإن ثبت غير ذلك يصبح سعرها بسعر الحصان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده حضروا قدمنا الفريقين الفريق الأول اسمعيل حامد وفريق ثاني حسين بو هرموش وقد فريق أول بدل فرس الشقرا معنقي سبيلي تسع قراريط في الحصان وصار الحق الى فريق أول اسمعيل حامد وصار تسع قراريط في الفرس الشقرا المعنقي سبيلي إلى فريق ثاني حسين بو هرموش ومن خصوص الفرس اذا ما بانت معنقي سبيلي يكون هل الحصان في هل الفرس.... برد منهم يحط..... ست عصماليات وهيك وقع الرضا والإتفاق من الفريقين على يد شهود الحال والله خير الشاهدين ٢..... ١٣٣٤ (حوالي ١٩١٦ ميلادي)

المقر بما فيه حسين بو هرموش، المقر بما فيه اسمعيل حامد.

شهد بذلك سلمان درويش، شهد بذلك أسعد كيوان، شهد بذلك سلمان النونو، شهد بذلك حمود النونو.

ومن خص الفرس شراكة ما الى حسين بو هرموش..... قيراط إلى مرعي حسن..... خمسطعش قيراط

شهد بذلك منصور بو... [٢٢].

حجتان تثبتان شراكة نادرة لحصان

على أن العرف في بيع الحصان هو بيعه كاملاً دون شراكة، عثرت على وثيقتين تفيدان بشراكة على حصانين.

أولى الوثيقتين هذه الرسالة من شخص له شراكة في حصان باعه شريكه دون إعلامه بذلك يوجهها إلى وجيهين من وجهاء المقرن الشمالي في الجبل، واكد زهر الدين وشقيقه حسين، ليحثا البائع على الاعتراف بحقه في الحصان.

جنـاب الماجد المحـترم أخونـا العزيز الشـيخ أبو اسـماعيل واكد زهـر الديـن وأبو محمد حسـين دام بقاه آمين من بعد السـلام عليكم والسؤال عن شريف خاطركـم ثـم المبـدي أنـه نخبركـم بخصـوص ابن عمنا حسـين المتنـي بادل بدل حصـان فرس من عند محمد السـمان ولا ذكر حسـين المتني أن إلى شـراكة بالحصـان ولأن نعرف عليه شوام أو قضبوا الحصان منه ولا كانوا يفكوه إلا تحت كفالتنا وحطينا فرضـا؟ بالدرك وصـار الميعاد إلى أول شهر رمضان ونأمل من عـالي همتكم أن تكتبـوا مكتوب إلى أبـو خمري وإلى ابن السـمان إكراما إلى خاطرنا أن تلزوه على النزلة ودمتـم وهـذا أكـبر غرضـنا عندكم ودمتك سـالمين ١٣٢١هـ يوافق تقريبا لعام ١٩١٣ ميلادي.

المخلص لكم أخوكم سـلامة أبـو يحيى (ختم) وأخوكم حسين الرافع (ختم) (٢٣).

والوثيقة الثانية هي حجة بيع نصـف حصـان من شـريك إلى شـريكه الـذي يملك النصـف الآخر من الحصان.

أنه بتاريخه أدناه قد تم الرضـا والاتفاق فيما بين الفريقين الفريق الأول حمـد الأطرش والفريق الثاني محمد عيد ووالده وإخوته وقد باع الفريق الأول للفريق الثاني الحصـان الأحمر ابن..... نصف الذي يخصه وقد صـار الحصان كله إلى الفريق الثاني محمد عيد وإخوته ولم بقي إلى حمد الأطرش به شـئ لأنه استلم حمد الأطرش ثمن النصـف الذي يخصه ستة عشرة لـيرة عثمانيـة ذهب.... وللبيـان حررت لـه.... بيده لإبـرازه حـين اللزوم عن يد شـهوده أدنـاه والله خير الشاهدين.

١٩ أيلول ٩٢٤

المقر بما فيه حمد نجم ابراهيم الأطرش (ختم)

شـهد بذلك خليل الباسـط (ختم)، شـهد بذلك محمود الغزال (ختم) (٢٤).

للبحث صلة.

الحواشي

١- رسـن الفرس: كلمة الرسـن تعنـي الحبل الذي تربط به الفرس، ثم صـار اسـماً لبيت الفرس الذي هو أصل سلالتها. وفي سـورية ما زال نظام الأرسان متبعاً، وهو الوحيد الباقي والمميز للخيول العربية الأصيلة، ويُعَدُّ من أروع مـا قام به العرب في البادية السـورية للحفاظ على أصـالة خيولهم مـن التلوث بدماء غريبـة، فكتابة نسـب فرس من صـاحب المربـط يُعَدُّ شـهادة رسـمية يتناقلها المربون العرب لدى بيع تلك الفرس أو شرائها. وأهم الأرسان المسجلة في سورية خمسة، هي: المُعَنَّقِيّات، العُبَيَّـات، الشُـويمات، الكُحيلات، الصَـقلاويَّات. وثمة أرسان ملحقة أهمها: الحمدانيات والهدباء.

٢- (الوثيقـة رقـم١) محفوظات السـيد زيد فايز السعدي (شنيرة).

٣- (الوثيقـة رقـم ٢) صـورة وثيقـة قدمها لي المرحوم الشيخ فضل الله هنيدي (الحفيد).

٤- (الوثيقة رقم ٣) محفوظات جميل سلمان أبو عساف (ولغا).

٥- المربـط: المربـط يدل على حي مـن العرب أو رجـل واحـد منهم اقتنى سـلالة من الخيـل من أحد الأرسـان، فجادت واشـتهرت عنده عـن نظيرتها من الرسـن نفسه فنسـبت إليه. فيقال صـقلاوي جدران (نسبة إلى شخص اسمه جدران) وهكذا.

٦- (الوثيقـة رقم ٤) محفوظات المرحوم حسـين أبو فرحات (حبران).

٧- (الوثيقة رقم ٥) محفوظات السيد جمال مهنا (أم الزيتون).

٨- (الوثيقة رقم ٦) محفوظات المرحوم الأسـتاذ توفيق الصفدي (الغارية).

٩- (الوثيقـة رقـم ٧) محفوظات السـيد وضـاح الحجلي (المشقوق).

١٠- (الوثيقـة رقـم ٨) محفوظـات السـيد زيـد السعدي (شنيرة)

١١ – (الوثيقة رقم ٩) محفوظات السيد زيد السعدي، (شنيرة).

١٢ – (وثيقة رقم ١٠) محفوظات السيد وضاح الحجلي، المشقوق.

١٣ – (الوثيقة رقم ١١) محفوظات السيد رامي درويش، الحريسة.

١٤ – (الوثيقة رقم ١٢) محفوظات الدكتور نجيب جابر المقت، عرمان.

١٥ – (الوثيقة رقم ١٣) محفوظات الأستاذ عادل رزق، ملح – خازمة.

١٦ – الكديشة: هي الفرس غير الأصيلة، وتستخدم غالبا للشؤون الزراعية كالحراثة وأعمال البيدر وللركوب أيضًا.

١٧ – (الوثيقة رقم ١٤) محفوظات الأستاذ عادل رزق، ملح – خازمة.

١٨ – يرد في الوثيقة أسماء مشهورة من لبنان : فالبائع فؤاد جنبلاط، وهو اسم والد الزعيم الشهير كمال جنبلاط وشيخ المختارة قبل ولده، وقد اغتيل عام ١٩٢١، وقد يكون هو المقصود، أما اسم مجيد أرسلان فمؤكد أنه ليس الوزير المعروف مجيد أرسلان، لأنه ولد عام ١٩٠٨ أي بعد تاريخ الوثيقة بسنة.

١٩ – (الوثيقة ١٥) محفوظات السيد جميل أبو عساف، ولغا.

٢٠ – (الوثيقة ١٦) محفوظات المرحوم حسين أبو فرحات، حبران.

٢١ – (الوثيقة رقم ١٧) محفوظات الأستاذ فوزات رزق، ملح – خازمة.

٢٢ – (الوثيقة رقم ١٨) محفوظات المرحوم حسين بو فرحات، حبران.

٢٣ – (الوثيقة ١٩) محفوظات السيد جمال مهنا، أم الزيتون.

٢٤ – (الوثيقة رقم ٢٠) محفوظات السيد يوسف حسن الأطرش، ملح.

(*) المقال هو جزء من كتاب : وثائق شراكة الخيل وبيعها عند العرب، جبل العرب مثالاً، كمال الشوفاني، مطبوعات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، دمشق، ٢٠٢٣م.

قراءة في كتاب

(صور من الحياة الاجتماعيّة عند البدو)

وجيـــه حســـن

يقع الكتاب لمؤلّفه «خالد عوّاد الأحمد» في ٢٠٨ صفحات، من القطع الكبير، وهو من إصدار مكتبة «دار الإرشاد للنّشر»، في حمص/ سورية، بطبعته الأولى في العام ٢٠٠٨.

قسّم المؤلّف كتابه إلى ٢٤ فصلاً، ولكلّ فصل عنوانُه الخاصّ به.

وبعد البَسْمَلة، افتُتِح الكتاب بمقدّمة، بيّن فيها المؤلّف (أنّ الله سبحانه وتعالى نظّم هذا الكون تنظيماً مُحكماً، وأحسن كلّ شيء خلَقه.. وممّا اختصّ الله به، هو أنْ جعل الناس أسرةً واحدةً من أبوين وأولادهما وأحفادهما: ﴿**والله جعلَ لكمْ منْ أنفسكُم أزواجاً وجعلَ لكُمْ منْ أزواجكم بنينَ وحَفَدَةً ورزقَكُم منَ الطيّبات أفبالباطلِ يؤمنونَ وبنعمة اللهِ هُمْ يكفرون**﴾ (سورة النّحل: ٧٢).

ثمّ تتّسع الأسرة لتكوّن عشيرة من أبناء الإخوة وأبناء العمومة الأدْنين، وهم أهل الرّجل وسنده وعزّه وعزّته، فالعشيرة إذنْ قوّة عند العزم، وعدّة عند الشدّة، وأمان عند الخوف، وأدب عند السّلوك، وتقويمٌ عند الخَلل.

ثمّ تتّسع العشيرة وتتفرّع إلى فروع لتشكّل القبيلة التي تتألّف من عدّة بطون، ثمّ تتّسع القبيلة لتشكّل شعْباً، كما قال الله تعالى: ﴿**يا أيُّها النّاسُ إنّا خلقناكُم منْ ذكرٍ وأنثى وجعلناكُم شُعوباً وقبائلَ لتعارَفوا إنَّ أكرَمَكُم عندَ اللهِ أتْقاكُم إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ**﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

وورد في مقدّمة الكتاب:

«وقد حرص الإسلام على سلامة النَّسب، ليكون كتلة أساسيّة نقيّة في حمْل القيم وتوارثها في مجتمع متكافل مترابط تحت رقابة الأسرة والعشيرة والقبيلة، وجعل العشيرة هي الحارس الأمين على سلامة النَّسب»، على حدّ تعبير د. أحمد الكبيسي، في دراسة له بعنوان: «الأسرة والعشيرة والقبيلة»، منشورة في مجلة «الصّناديد»، العدد (٦) للعام ٢٠٠٠ م.

في الفصل الأوّل من الكتاب، بعنوان: «أنْساب البدو»، يقول المؤلّف عوّاد:

(ليس هناك أمّة من الأمم عُنيت بأنسابها عناية الأمة العربية بها، وأوّل النَّسب هو «الشُّعْب»، وهو الجدّ الأوّل مثل «قحطان وعدنان»، والثاني «العمارة»، وجمعها «عمائر»، ومكانها كالأطراف من الجسد العُلويّ، و «الشُّعْب» هو الرّأس، ثمّ يلي «العمارة» «القبيلة»، التي تضمّ العشائر، لأنّ العشيرة أصغر من القبيلة، يقول الله تعالى لرسوله «ص»: ﴿**وأنذرْ عَشيرَتَكَ الأقرَبين**﴾ (سورة الشّعراء: ٢١٤). ثمّ تأتي «العقيلة»، ثمّ («البطون» «فالأفخاذ»، ثمّ «الفصائل» ثمّ «الأسرة»).

ويبيّن المؤلف، أنّ «علم النّسب»، يُعنَى بإثبات ولادة الإنسان من أبيه وجدّه لأبيه ومَنْ عَلاه، فهو إذن علمٌ يُعنَى بتحدّرِ الإنسان من الآباء دون الأمّهات!

ويروي المؤرّخون، أنّ العرب الجاهليين، كانوا يهتمّون بأنسابهم أيّما اهتمام، ويقولون «إنّ سبب ذلك، هو حاجتهم إلى التّناصر بالعصبيّة».

ولعلّ أشهر العلماء في الأنساب هو «ابن حزم الأندلسيّ»، مؤلّف كتاب «جمهرة أنساب العرب»، الذي يُعدّ من أوسع كتب النّسب وأدقّها. وعلم الأنساب، هو علمٌ له آدابه وضروراته، ومن أولى ضروراته: (الميراث والنّكاح، حتى لا يقعَ المرءُ في رَحم مُحرّمة).

وفي **الفصل الثاني**، يبيّن لنا المؤلّف «أنواع البداوة»، فهي تتدرج في سلّم طويل، أوّله يلامس الحياة الحضريّة، وآخره ثابت في الصحراء، لا تكاد تزعزعُه من موطنه قوّةٌ ما.

وأنواع البداوة ثلاثة:

١- البدو الرُّحّل، أو (الجمَّالة)، الذين كانوا حتى العشرينيات من القرن الماضي، يعتمدون على الإبل ومنتجاتها ومشتقات هذه المنتجات في تأمين ضرورات حياتهم، ثمّ أخذوا في اقتناء الشِّياه والأغنام والماعز سواء لحسابهم الخاص، أم لحساب أغنياء أهل المدن والقرى، ومشاركة هؤلاء.

٢- والنوع الثاني من البدو متوسّطٌ بين البداوة العريقة، والبداوة نصف الحضريّة، ويُطلق على هؤلاء: البدو نصف الرُّحَّل، أو «البقّارة»، في بعض الأحيان، بسبب تربيتهم للأبقار، وهؤلاء يربّون الأغنام والماعز، ويرحلون في فصل الشتاء إلى البادية انتجاعاً لمرعى أغنامهم ودفئهم، ويعودون صيفاً إلى قراهم على حدود المعمورة المؤلفة من بيوت الشَّعر أو القباب، ونادراً البيوت الحجريّة.

٣- البداوة نصف الحضريّة، وتقوم على تربية الماشية أيضاً، من غنم وماعز وقليل من الإبل، لكنهم على علاقات وثيقة مع أهالي القرى المعمورة والمدن، ومن أبنائها مَنْ أصبحوا نصفَ بُدَاة، يسهل تحضيرهم، أو إنْ شئت قُل: أنصاف حضريين، أخذوا يرون الخير في حياة الحضريين.

وفي **الفصل الثالث**، يتحدّث لنا المؤلف عن أنّ «الصحراء بيت البدويّ الفسيح»، فيقول أحد البحّاثة الغربيين في ذلك: «تستطيع أنْ تنتزع البدويَّ من الصّحراء، لكنك لا تستطيع أنْ تنتزع الصّحراء من البدويّ».

فالصّحراء بالنسبة إلى البدو تُمثّلُ له عالم الحلم والواقع معاً.

وقد ورد في «القاموس المحيط»، أنّ الصحراء جمعُها: صحارى وصحاري وصحراوات، و«في دائرة المعارف البريطانية»: هي مناطق قاحلة تختفي فيها الخُضرة، وتنخفض فيها كثافة السكان إلى حدّ كبير، وأنّ الخيط الذي يربط جميع أنواع الصّحارى هو «الجفاف».

وفي **الفصل الرابع** حديثٌ ضافٍ عن «البادية السورية»، وأنّها منذ أقدم العصور لا تزال ديار البدو ومنتجعهم، يرعون مواشيَهم في أرجائها المُتراحبة الشاسعة، ويرحلون سعياً وراء الكلأ والماء والدّفء لهم ولمواشيهم حسب تقاليدهم المعروفة.

فـ «بادية الشام»، أو «البادية السوريّة»، أو «الحَمَاد الشّاميّة»، تقعُ وسط سورية وجنوبها، يحفّها نهر

الفرات شمالاً وشرقاً، وتكثر على هوامش الصّحراء المدنُ، كدير الزّور، والرقّة، وتدمر، والفرقلس، والقريتين، والسُّخْنَة، التي تُعدّ محطات لتموين البدو، وأسواقاً لبيع منتجاتهم كالألبان ومشتقّاتها والصّوف، وتتصل مع صحراء العراق، وصحراء الأردن، ومن ثمّ مع المملكة العربية السعودية في الممرّات والأودية السّيْليّة، حتى «صحراء النّفوذ» و «الرّبع الخالي».

وفي **الفصل الخامس**، يحدّثنا المؤلّف عن حيوانات البادية ونباتاتها، وأنّ هاته الحيوانات الصّحراويّة لا تظهر إلّا في حالات نادرة في أثناء النهار، وأغلب حيوانات الصّحراء ليليّة، كما أنّ الكثير منها يعتمد على التخفّي والتّمويه، وأنّ أكثر الحيوانات وضوحاً، وأكبرها حجماً، وأكثرها توفّراً بالبادية السوريّة أعداد كبيرة من الإبل والخِراف والماعز.

ونظراً لِنُدرة المياه في البادية، فإنّ النباتات والحيوانات الصّحراوية تقتصد في الماء. ولعلّ أفضل مثال للحيوانات الصّحراوية التي تستطيع أنْ تعيش من دون الماء الموجود في النباتات، ومن دون شُربه على الإطلاق هو: «الجَمَل»، الذي هو قوام البادية، فالجمال أو الإبل، يمكن الانتفاع بها في المأكل والملبس، وكلّ ما يحتاج إليه الإنسان. ويُسمَّى الجمل «سفينة الصّحراء»، لأنّه ضرورة ملحّة لها، وهو يعيش بما يقتاتُه من ورق الشّجر والعشب الجافّ أو النّبات الذّابل الشّائك، كما يصبر على العطش إلى عدّة أيام متتاليات.

وكانت الإبل ولا تزال مجال تفاخر البدو وتكاثرهم بالأموال، ومقياس ثروتهم وغِناهم، «ولا شيء أجمل وأمتع بنظر البدويّ من قطيع الإبل، وهو ينساب منتظماً صباحاً متّجهاً نحو مَرْعاه»، يقول سبحانه وتعالى: ﴿**أفلا ينظرُونَ إلى الإبلِ كيفَ خُلِقَت**﴾ (سورة الغاشية: ١٧).

كما حظيت الخيول بمكانة خاصّة في حياة البدو، فقد شُغفوا بها، وهتفوا لها، واهتمّوا برعايتها، وها هو «عبد اللّه بن عبّاس»، رضي اللّه عنه، يقول في شأنها:

أحِبّوا الخيلَ واصطَبِروا عليها
فإنَّ العزَّ فيهـا والجَمَالا
إذا ما الخيـلُ ضَيَّعهـا أناسٌ
رَبطنَاهَا فأشرَكَت العِيَالا

ومن فرْط اهتمام البدو بالخيل، وحنوّهم عليها، أنّهم كانوا يخشون عليها أيّ مكروه، فيعلّقون عليها التّمائم والتّعاويذ والرُّقى درءاً للحسد، وأعين الحسّاد.

وهناك حيوان «المها» العربيّ، ويمتاز برشاقة الجسم، وخفّة الحركة، كما يمتاز باللون الأبيض النّاصع، ممّا جعل العرب يطلقون عليه اسم: «الوضيحي العربي».

وتغنّى به الشعراء، وضُرِبت به الأمثال، وصِيغت حوله الأساطير، لكنّ هذا الحيوان انقرض من البراري العربية نتيجة الصيد الجائر من جانب الإنسان، وتغيُّر البيئة التي كان يعيش فيها نتيجة لتوغّل الإنسان في أماكن وجود «المها».

وهناك «الغزال»، وهو من أجمل الحيوانات شكلاً، وأكثرها رشاقة، وأشهرها اكتحالَ عين، وأشهاها لحماً للبدويّ، وأبلغها إثارة لخيال الشعراء وقصائدهم.

ومن الحيوانات اللّاحمة «الضّبع»، ويسكن المغاور والكهوف والجبال المحيطة بالبادية، أو في القرى القريبة منها. والضّبع جنس حيوانات مفترسة أكبر من الكلب وأقوى، والكلمة مؤنّثة، وقد تُطلق على الذّكر والأنثى.

وهناك الذئب، والثعلب، والغريري، وهو «حيوان منقرض يشبه الهِرّ، لكنه قوي سريع الانقضاض على فريسته، يعتاش على الأرانب البريّة والقوارض الصّغيرة، ويعيش داخل جحور تحت الأرض». وهناك «اليربوع»، الذي يشبه «الكنْغر».

ومن الزّواحف «الضبّ»، وله ذنب يشبه ذنب التّمساح، وهناك الأفاعي والسّحالي والجَخَادِم ج جُخْدُم: وهو يشبه الجَراد.

وفي البادية نوعان من الطيور: جوارح، وغير جوارح.

فهناك «الصّقر»، ويسمّيه البدو «الطّير الحُرّ»، وهو أسرعُ الطيور طيراناً على الإطلاق، ويستخدمه البدو لِصيد الأرانب والحباري. ويرى الصقر لمسافات بعيدة تصل إلى مئة كلم، ويقولون إنّه يرى من الارتفاع الشاهق أُذُنَ الأرنب إذا تحرّكت وهي في مكمنها. ويستخدم البدو وسائل بسيطة وفاعلة في اصطياد الصقور منها: الحمامة، والطُّعم، والشّبكة، والعريش «كوخ صغير».

ومن الطيور غير الجوارح: النّعامة العربية، وطائر أمّ سالم، وطائر القطا، والرّاج «الكروان العسليّ»، وطائر «أبو منجل الأصلع»، والحباري.

وعدّد المؤلف أنواعاً من نباتات البادية، ومنها: الشّيح، والقيصوم، والقبّار الشّوكي، والعاقول، والشّنان، والحرمل، والنبتول، والسنيبلة، والزّعتر البرّيّ، والعرفج، والرّمث، والأرَك، والكمأة، وبعض النّباتات ذات الزهور كشقائق النّعمان، والبابونج، والنباتات البصليّة متعدّدة الأنواع.

ويحدّثنا المؤلّف في **فصله السادس**، عن تكوين المجتمع البدويّ وخصائصه. فالعشيرة: هي وحدة التنظيم الاجتماعي بالمجتمع البدويّ، وتكاد تكون المؤسسة الاجتماعية الوحيدة التي تُمارس ضغطاً اجتماعياً على الأفراد، وهذا ما تفرضه طبيعة الحياة البدويّة القائمة على التنقّل والتّرحال.

ولكلّ عشيرة شيخٌ يقودها، وتنقاد له عشيرته انقياداً كاملاً ما دام يرعى مصالح العشيرة، ويحرص عليها.

ويحدّثنا المؤلف عن العصبيّة القبليّة، وتعني أنْ يدعوَ الرجل إلى نصرة عُصْبَته، أي أقاربه من جهة الأب. وتؤدّي العصبيّة القبليّة إلى ترابط المجتمع البدويّ في وحدة كليّة.

والأسرة هي نواة التّكوين الاجتماعي عند البدو.

أمّا **بالفصل السابع**، فقد وردَ الحديث عن المرأة في المجتمع البدويّ، فإنّ نظرة البدويّ إلى المرأة تتّسم بالمُحافَظَة، وأنّ دورها ينحصر في أعمال المنزل البسيطة، ورعاية الأطفال، وقد تقوم بأعمال ثانويّة مثل رعي الإبل والأغنام، والقيام بِحَلْبِها. والمرأة البدويّة، ليست دون الرّجل شهامة ومروءة، فهي تحمل القيم الأخلاقيّة نفسها، وهي تُكرِم الأضياف عند غياب زوجها، إلخ.

وفي **فصله الثامن** المعنون بـ «خيمة البدويّ»، يبيّن لنا المؤلف، أنّ أهمّ ما يميز حياة البادية هو «بيت الشَّعْر»، والبيت المفضّل، هو المنسوج من «شَعْر الماعز»، لأنه دافىء، وعازل للحرارة بالشتاء، وإنْ تعذّر شَعْر الماعز، فَمِنَ «صوف الغنم»، أو «وَبَر الإبل».

ويتحدّث المؤلف **بالفصل التاسع** عن «أعمال البدو»، مبيّناً أنّ الرّعي أو تربية الماشية والصيد والغزو والتجارة إنّما هي أعمال جديرة بهم، أمّا الأعمال اليدوية، فيأنفون منها، كما يزدرُون الزّراعة، ويعتبرونها تجرّهم إلى الخنوع والذلّ، لذلك يطلقون على الفلاحين تسمية «الفلالِيح» تصغيراً لشأنهم. وللبدو عبارة مشهورة مفادُها: «العزّ بالإبل، والشّجاعة بالخيل»، ومن أقوالهم في ازدرَاء الزّراعة: «الذلّ بالحَرْث، والمَهانَة بالبقر»!!

ومن مهن النّساء: غزل صوف الخروف، ووَبَر الجمل، وشَعْر الماعز، المأخوذة من قطعانهنّ، أو المُشتراة من القبائل، وتسمّى هذه المهنة في سورية «النَّطْو»، بينما في بعض دول الخليج كالكويت تسمّى «السَّدْوَ».

و**بالفصل العاشر**، يتطرّق المؤلّف إلى «عادات البدو وتقاليدهم»، ويبيّن لنا أنّ من أخلاق البدو: الأنفة، والعزّة، والصّبر، والكرم، والعفّة، والوفاء، وإغاثة الملهوف، وإجارَة المُستجير، والإيثار، والجرأة في قول الحقّ، والعفو عند المقدرة، والبدو يحفظون أنسابهم، ويفاخرون بها.

ومن أبرز العادات والتقاليد لدى البدو: التكتّم، والفَراسَة، وقصّ الأثر، وتتبّع آثار الأقدام، أو

«القيافة»، وللبدويّ إلمام بالأنواء ومواقع النجوم والسيّارات، وتبدّل الطقس، ويتشابه البدو في العادات والتقاليد والأزياء. والبدويّ كغيره من المسلمين يرى الزواج والاستِيلاد واجباً، والعُقم يعدّه من بواعث المهانة.

ومن أسماء رجال البدو الصّرفة: مطر، نوّاف، جدعان، حمدان، حميدي، راكان، طراد، ثلج، فدعوس، ملحم، جراد، جدّوع.

ومن أسماء النّساء: عشبة، نجود، فضّة، شعيلة، فاطمة، عنود، جواهر، غثوة، حمدة، فطيم، صفوق، جدعة.

وفي **الفصل الحادي عشر**، يحدثنا الكتاب عن «أزياء البدو»، فلباس الرّجل: غطاء الرأس، ويتألّف من الكوفية، والشّماغ «الشّماخ»، والعِقال، والعباءة العربية، والجلّابية، والفَرْوَة التي تمنع عن الراعي حرّ الصيف، وتردّ عنه برد الشتاء.

أما لباس المرأة البدويّة، فيتألّف من «الملفع»، الذي يكون مقصّباً باللونين الأسود والأبيض، وترتدي فوق الملفع «الهبريّة»، التي تعصب الرأس، وهي من الحرير الملوّن. أمّا لباس الجسد، فيتكوّن من ثوب طويل أسود اللون، يُدْعَى «ملس»، أو «أبو ريشة»، ترتدي فوقه ثوباً آخر مزركشاً ملوّناً يُدعَى «صاية»، وتطرّز باليد في العادة. أمّا «الجوخة»، فترتديها المرأة فوق الصاية، وتسمّى أيضاً «المقطنة»، وتُصنع باليد. وتلبس المرأة البدويّة «الدَّرّاعَة»، وقد تكون حمراء أو صفراء، أو ذات ألوان مختلفة مُوَرّدة، أي مصبوغة بالزّعفران والعصفُر والوَرْس. وهذا أحد شعراء البادية الشّعبيين، يخاطب صاحبة الثوب «الدَّرّاعَة» الحمراء قائلاً:

يا راعي الثّوبْ الحَمَر لا تزرَّه
يا ويلْ طرّاد الهوى منكْ يا ويل

ومن مظاهر زينة المرأة البدويّة الدقّ بالإبر على اليدين والوجه والصّدر «الوشم».

وماذا عن الزواج عند البدو؟ هنا يحدثنا **الفصل الثاني عشر** عن ذلك، موضّحاً، أنّ للزواج عند عرب البادية الحاليين عادات وترتيبات خاصّة تعدّ امتداداً للموروث القديم، والإسلام حثّ على الزواج من ذات الدِّين بالقول: «فاظفرْ بذات الدِّين، تَربَتْ يداك».

ومن التقاليد البدويّة «ليلة الحِنّة»، والحِنّاء، كما هو معروف، شجر يطرح أوراقه التي تُطحن ثمّ تُجبَل بالماء أو الشّاي، وتُوضَع على الأكفّ والأقدام والشَّعر.

ويحدّثنا **الفصل الثالث عشر** عن «الضيافة عند البدو»، فكرمُ الضيافة طبع أصيل تميّز به العرب من غيرهم، فللضيف مكانة عظيمة في نفوس البدو، وله حقوق معروفة منها: التهلّي والتّرحيب، ربط الرّاحلة، تقديم الفراش، تقديم علف للرّاحلة، تقديم الطعام للضيف، توفير الرّاحة له، إكرامه إكراماً تامّاً، كتلبية طلباته، وقبول الاستِجارَة، والدّخالة، والطنابة، ومن ثمّ حمايته.

وفي **الفصل الرابع عشر** حديث مطوّل عن عادات تقديم القهوة العربية، والأدوات التي تُستخدَم في إعدادها، كالمحماسة، والمبرادة، والمهباج أو «المهباش»، والدِّلال، وفناجيل «فناجين» القهوة.

كما يحدّثنا المؤلّف عوّاد **بالفصل الخامس عشر** عن الغزوات والحروب في حياة البدو. وفي **الفصل السادس عشر** حديث متشعّب عن (القضاء العشائريّ)، إذ يقوم القضاء عند البدو على العُرْف والعادة، فليس ثمّة قوانين مكتوبة ولا خطط مرسومة، ويتولّى الشيوخ القضاء.

ويحدثنا الكتاب في فصوله المتبقّية عن العادات القبليّة القديمة، التي لاتزال تعيش في حياة البدو، وعن العلاج والطبابة عند البدو، وعن التعليم في البادية السورية، وعن الفنون الشعبية، وعن الشِّعر البدوي، وعن أمثال البادية، وعن مظاهر الفرجة والتسلية في حياة البدو، وعن الأساطير البدويّة.

ثمّ يختم المؤلّف كتابه بـ «المصادر والمراجع»، وبـ «فهرس الفصول».

حكاية شعبيّة عراقيّة:
لولا جرادة ما وقع عصفور

إعداد: د.ثائر زين الدين

كان ياما كان في قديم الزمان إسكافي فقير يدعى «عصفور»، يعيش في مدينة بغداد القديمة. وكانَ اسم زوجته «جرادة»، تظلُّ تذكّره كل يوم بالفقر الذي يعيشونه، وتُلحُّ عليه أن يُحسِّنَ معيشتهما، وأن يطلب الرزق. وذات يوم، بينما كانت جرادة، تتجول في السوق، رأت سيدة ترتدي رداء فاخراً، ومثقلة بالجواهر والذهب في يديها وعنقها، ومن حولها تسير ثلّة من الخادمات الجميلات. سألت جرادة: من هذه السيدة؟ فقالوا لها: «إنها زوجة رئيس منجمي السلطان». فسألت: «وماذا يفعل المنجّم؟». قالوا لها: «ينظر إلى النجوم في السماء، ثم يتنبأ بما سيحدث في المستقبل، ويقرأ أفكار الناس، ويعرف أماكن الأشياء المفقودة». قالت زوجة الإسكافي لنفسها: «ولماذا لا يكون زوجي منجماً، فأصبح غنية مثل هذه السيدة؟». وعادت إلى منزلها على عجل.

سأل الإسكافي زوجته وهو يرى وجهها المتورّد اللهوف: «ماذا حدث يا عزيزتي؟» قالت غضبى: «لماذا اخترت هذه المهنة التافهة، التي ستُبقيك طول حياتك تُصلح أحذية الناس ؟ لماذا لا تصبح منجِّماً، فتربح مالاً كثيراً، وبذلك ينتهي فقرنا وجوعنا، ونصبح من الأثرياء؟»

صـاح عصفـور: «هل جُننـت يا امـرأة ؟! كيف أصبح منجمـاً وأنـا لا أعـرف شيئاً عـن النجـوم ؟!»، قالت الزوجـة: «كفـى .. لا تحدثني ولا تقترب منـي... إذا لم تبـدأ غـداً في العملِ مُنجِّمـاً، فسأعـود إلى أهلي». حزن الإسـكافي لحالِ زوجته وقرارهـا الغريب، وحار فيمـا يفعل؛ هو يحـب زوجتـه، ولا يريـد أن يفقدها، لكن... كيف له أن يصبح منجماً بين عشيّةٍ وضُحاها ؟! الزوجـة التـي لم تنسَ منظر امـرأة رئيـس منجمي الملـك، جمعـت لزوجهـا بعض الكتـب القديمـة ، واستعـارت مـن منـزل أهلهـا سجـادة صغيـرة، وقالـت: «هـذا كل ما تحتـاجُ إليـه لتصبـحَ منجماً». وفي صبـاح اليوم التـالي، ألحّت الزوجـة على زوجها أن يمضـي إلى السـوق ويجلس بين المنجمـين ، فقال لها: «لمـاذا تجبرينني على عملٍ لا أعـرف عنه شيئاً؟ سيسخـر النـاس مني ويضحكون علـي !». لكن زوجته أصرت على ما تقول، وأخذت تهدده بالعودة إلى منزل أهلهـا إذا هو لم يفعـل. وأخيراً نفذ الرجـل ما تريد، وأخـذ السجادة والكتب القديمـة، ومضى إلى السوق، وجلس في المكان الذي اعتاد المنجمون أن يجلسوا فيه، وقلبه يخفق بعنف، خوفاً ورهبة !

وحـدثَ أن زوجـة السلطـان جـاءت إلى السـوق، لتشـتري ملابـس لطفلهـا الأول الـذي تتوقـع مولده قريبـاً، فـرأت «عصفـوراً» يجلس وحـده، وحولـه كراساتـه القديمـة، فاستغربـت هيئتـه، وطلبت إلى إحـدى جواريهـا أن تستفسـر منـه عـن صناعتـه . عـادت الجاريـة إلى سيدتهـا وقالـت: «هـذا منجـم جديـد، يقول إنه يعرف المستقبـل». فقالت السلطانة: اذهبـي إليـه، وأعطِهِ هـذا الدينـار، واسأليـه: «هل المولـود الذي أنتظره ذكرٌ أم أنثـى ؟». مضت الجارية تسـأل «عصفـوراً»، وأعطتـه الدينـار، فتنـاول منها القطعة الذهبيـة وهو لا يصدق ما يرى، هذه أول مرة في حياتـه يمسـك فيها تلـك العملة الغاليـة ! ثم أخذ يقلـب كراساته ورقة بعد ورقة، ويعض شفته صامتاً.

حدَّث عصفور نفسه: «إن أسلم الإجابات هي تلك التي قـد يخطئ نصفها ولا تخطئ كلها. إذا قلت إنها ستلد ولـداً، فقد تلـد بنتاً، وإذا قلت بنتاً فقـد تلد ولداً، أما إذا قلت إنها ستلد ولداً وبنتاً، فإن نصف إجابتي فقط ستكـون مخطئـة سواء ولدت ولداً فقـط أو بنتاً فقط، أو ولدين أو بنتـين، وستكون إجابتي صحيحة كلها إذا ولدت ولـدًا وبنتاً». لذلك رفع وجهـه إلى السماء وهز رأسه وقال: «بنتٌ وولد، ليس كمثلهما في الأرض أحد». أسرعـت الجاريـة إلى السلطانة، ونقلـت إليها إجابة «عصفـور المنجـم» وقبـل الفجـر، وضعـت السلطانة ولداً وبنتاً كما قال «عصفـور المنجم»، فامتلأ القصرُ بصيحات الفرح والابتهاج.

وفي اليوم التالي، أسرعت السلطانة فأمرت بعض خدمهـا أن يأخـذوا بغلةً وملابسَ فاخـرة وألف دينار هديـة للمنجـم عصفور، وقالـت لهم: «ابحثـوا عنه، وأعطـوه الألف دينـار، واجعلوه يرتدي هـذه الملابس الجميلة، ويركب البغلة، ثم أحضروه إلى باب القصر، لأشكره على بشراه لنا بهذا الميلاد المبارك».

أما عصفور المنجم، فما إن تركت الجارية الدينار في يـده وانصرفت، حتى جمع الكتب ولـفَّ السجادة، وانطلـق يجـري هاربـاً حتى وصـل إلى البيـت، وقال لزوجته: «أخذت اليوم ديناراً، لكنني كذبت على زوجة السلطان، غداً ينكشف كذبي، ويشنقونني، خذي هذا الدينـار، وإذا جاء أحـد يطلبني، قولي إنني لست هنا وأعطِهم دينارهم ليذهبوا عنا».

وبات عصفور مهموماً حزيناً، يهجسُ بما يمكن أن يحدث له في الغد.

فلما طلع الصباح، أقبل خدم السلطانة يسألون عند الباب: «أين بيت المنجم الجديد؟»، فسمعهم عصفور وامتلأ قلبه رعباً، وقال لامرأته: «انظري... هذه نتيجة مشورتـك ! تقولين لي اعمل منجمـاً ... اعمل منجماً، ولا تتدبريـن العواقب ؟! اذهبـي قابليهم إذن، وخذي أنـتِ الصفع والـركل !! قولي لهم إننـي رجل مجنون،

لا أدري مـا أقـول». ثـم أسـرع، واختبأ داخـل الدار. فتحت الزوجة الباب، فقالوا لها: «زوجة السلطان تطلب المنجم عصفـوراً». فأسرعت الزوجة تقول، متظاهرة بالمسكنة والمذلة: «هو يـا مولاي رجل مسكين مجنون، لم يكـن يدري مـا يقول، خـذوا الدينـار وسامحوه!». فقـال رئيس الخدم، وهو لا يفهم معنـى قولها: « إنك أنتِ المجنونة يا امرأة !! السلطانة ترسل إليه معنا ألف دينـار وبغلة وملابس غالية، دعيه يخرج ليذهب معنا» وأصـاب المرأة مسٌّ من الجنـون، فانطلقت تبحث عن زوجها في أرجاء المنزل وهي تصرخ: «الثروة وصلت يا عصفور .... السعد والسعادة يا عصفور ... السلطانة أرسلت إليك ألف دينار وبغلة يا عصفور».

قـال عصفـور مـن مخبئـه: «سأكـون أنـا البغـل إذا صدقـت هـذا الـكلام !» لكـن الزوجـة أمسكـت زوجهـا مـن ملابسـه، وجرَّتـه إلى الباب وهـي تقول لخـدم السلطانـة: «هذا هـو المنجم الشيـخ عصفور» وسرعـان مـا أخذه الخـدم إلى الحمـام ثـم ألبسوه ملابسـه الجديـدة، وأركبـوه البغلـة، وأعطـوه الألف دينـار في كيس كبير، وضعـه أمامه علـى ظهر بغلته. وسـار ومـن خلفه جمـعٌ كبـير، يغنون ويرقصـون ... وهكـذا، بين عشيَّـةٍ وضُحاها، أصبـح الشيخ عصفور أشهر منجم في المدينة !!

في اليـوم التـالي حـدث أن السلطـان أنهى تناول الطعـام في حديقـة قصـره، ونهضَ يغسـل يديه فوق بحـرةٍ صغـيرة، وقد نـزعَ خـاتم السلطنـة ذا الماسة الكبـيرة مـن إصبعه، وهي ماسـة تعادلُ ألـف دينار، ونسـيَ الخاتم علـى حافة البحرة، لفـتَ بريق الخاتم انتبـاه بطة عرجـاء في الحديقـة، فالتقطتـه وبلعته. وكان للسلطان خادم قصير القامة، رأى ما حدث، لكنه لم يذكر شيئاً عن ذلك عندما سأل السلطان عن خاتمه. كان الخادم يريد أن ينتظر بضعة أيام حتى تهدأ ضجة البحـث عن الخاتم، ثـم يذبح البطـة ويأخذ الخاتم. أمـر السلطـان بإحضـار المنجمـين، فلمـا اجتمعـوا أمامه قال لهـم: «لقد ضاع مني خاتم السلطنة، الذي ورثتـه عـن أبي وجدي. إنـه خاتم عزيز جـداً عندي، فمن يرشـدني منكم إلى مكانه، له منـي ألف دينار». وعندما مضى يوم ولم يصل المنجمون إلى معرفة مكان الخاتم ، أمرَ السلطان: «احضروا لنا منجم السلطانة». مضـى حرس السلطـان إلى بيـت الشيـخ عصفـور في بيتـه، وطلبـوا منـه أن يمضـي معهـم، فالسلطان يطلبـه. سيطر عليه الخـوف، ودخـل إلى زوجته وقد اصفـر وجهه، وهمس لهـا : «إذا كانـت المصادفة قد أنقذتنـي مـن السلطانة في المـرة السابقـة، فإنها لن تنقذني من السلطـان هذه المرة، سيشنقني إذا كشف كذبـي وخداعي، فمـاذا أفعـل؟» صاحـت زوجته به: «كن شجاعـاً يا رجل، استخدم الحيلـة والذكاء، فقد تخدمك المصادفة في هذه المرة أيضاً».

قـال عصفـور: «إذا خانتنـي الحيلـة والـذكاء، فسأقـول لهم إنـك أنتِ السبـب في تظاهري بالحكمة والمعرفـة، وسأجعلهـم يعطونكِ النصيـب الأكبر مما أستحقـه من الصفع والركل». ثـم خرج، وركب بغلته، واتجـه إلى قصر السلطان، ودخل إلى قاعة الانتظار، حتى يأذن له السلطان بالدخول.

وكان علـى بـاب القاعـة ستائـر مـن حريـر، منقوشـ عليهـا رسـوم لبعض الطيـور والحيوانات، مـن بـط وحمـام وغـزلان وأرانـب وغيرهـا. وسيطرتِ الهواجسُ والهمومُ على فكر عصفور، فأخذ يحدق في الستائر، ويهز رأسه.

في هـذه اللحظـة، تسلـل الخـادم الـذي كان قـد شاهـد البطة ليراقب الشيخ عصفـوراً، وقد سمع عن قصتـه مـع السلطانـة، وبراعتـه في معرفـة الأشياء، فشاهـد عصفـوراً يحـدق في الستائـر، فاضطـرب قلبـه، وقـال في نفسـه: «هـذا المنجـم البـارع يحدق في رسـم البطـة فـوق الستائـر ! لقد عـرف أنها هي التـي بلعت الخـاتم، وسيعـرف أيضاً أننـي شاهدتها و أخفيـت ذلـك، وسيخـبر السلطـان فيشنقنـي!»

ودفع الخوف الخادم فاقترب من عصفور وهو مضطرب، وقال: «أرجوك وأستحلفك بالله، لا تقل عني شيئاً للسلطان... لقد خشيت أن أذكر للسلطان أن البطة العرجاء هي التي ابتلعت الخاتم من فوق حافة البحرة، بعد أن غسلَ السلطان يديه في البستان». واعترت عصفور رعشة قويّة، لقد خدمته شهرته في هذه المرة، والتفت إلى الخادم وقال: «لقد عرفتُ الحقيقة كلها من النجوم، ولو لم تعترف لي الآن، لأخبرت السلطان بما أعرف، فيقتلك، لكن ما دمت قد اعترفت لي ، فلن أخبره ... وإياك أن تقول لأحد شيئاً عن هذا الموضوع، وإلا جعلت السلطان يقطع رقبتك"

دخل عصفور على السلطان، فوجد حوله كل الوزراء والمنجمين. قال له السلطان: «نريدك أن تعرف أين خاتمي». فأشار عصفور إلى المنجمين وقال: «وكيف يخفى الأمر على كل هؤلاء العباقرة الأذكياء؟» . قال السلطان: «لقد عجزوا جميعاً عن معرفة مكانه، وإذا عثرت عليه، فلك ألف دينار»، قال عصفور: «وأين كنت أيها السلطان عندما ضاع منك الخاتم؟»، أجاب السلطان: «كنت في بستان القصر». قال عصفور: «قم بنا يا مولاي إلى البستان» حين دخلوا البستان، قال عصفور: «أريد أن يمر أمامي كل من في البستان، من إنسان وطير وحيوان» وتغامز المنجمون ساخرين، لكن السلطان أمر بتنفيذ طلب عصفور. ومر من أمام السلطان وعصفور موكب فيه الخدم والغلمان الذين يعملون في البستان، ثم الغزلان والأرانب التي تعيش في الحديقة، ثم مرت أمامهم أنواع الطير من الوز والنعام والطواويس، ثم جاء دور البط في النهاية. ولمّا مرت أمامهم البطّة العرجاء، هز عصفور رأسه، ورفع ذراعيه إلى أعلى وصاح: «أمسكوا هذه البطة». وانفجرت ضحكات المنجمين وسخروا منه !

وكان السلطان قد اعتاد أن يتسلى بمنظر هذه البطة، فكان كلما رآها يضحك على طريقة سيرها، فقال لعصفور: «هذه البطة أتفاءل بها ، ولا أسمح لأحد أن يؤذيها». قال عصفور: «إن كنت تريد الخاتم، فهو في بطنها». فقال السلطان: «وإن لم نجد في بطنها شيئاً ؟!»، قال عصفور: «افعل بي ما تشاء !»، فأمر السلطان بذبح البطة، وهو يشعر بالأسف الشديد عليها، ويقول لنفسه: «والله إن لم نجد بها الخاتم، لأقتله في التو والساعة» لكنهم وجدوا الخاتم في حوصلتها !! ولمّا أخرجوه ورآه السلطان، جن فرحاً وصاح بعصفور: «والله لا يوجد

في الدنيا مثلك، إنك تستحق ألفين من الدنانير لا ألفاً» وأخذ عصفور المال، وأسرع إلى بيته وهو يكاد يطير من الفرح، و المنجمون الآخرون يوشكون أن يموتوا غيظاً وحسداً.

وما إن وصل عصفور إلى بيته، حتى أخبر زوجته بما حدث، وقال لها: «هيا نذهب إلى بلد بعيد آخر، ونكتفي بما أتانا من ذهب ودنانير. إنني أخاف أن أتعرض لتجربة ثالثة، تذهب بي إلى القبر». صاحت زوجته في عناد: «والله لا أخرج من بلد جاءنا فيه كل هذا الخير». عاش عصفور وزوجته ينفقان بسخاء من الثروة التي هبطت عليهما، والمنجمون يحسدونه ولا يجرؤون على إيذائه. لكنهم اجتمعوا يوماً وذهبوا إلى السلطان وقالوا له : «أيها السلطان العظيم، كيف تقدم علينا عصفوراً ؟! إنه جاهل لا يفهم شيئاً ؟» أجابهم السلطان: «لقد عرف ما عجزتم عن معرفته». قالوا: «لقد خدمته المصادفة». قال السلطان: «إذن أقيم تجربة لأحكم فيما بينكم، سأذهب إلى البستان وأخفي شيئاً، فإن عرفتموه حكمت لكم، وإن غلبكم، فلن أسمع منكم كلمة ضده بعد اليوم». فقالوا: «قبلنا حكمك أيها السلطان». عندئذ نهضَ السلطان، ودخل البستان، وإذ بأحد العصافير الصغيرة يطارد جرادة، والجرادة تدخل تحت ذيل ملابس السلطان، فيندفعُ العصفور وراءها. فإذا بالسلطان يمسك بالاثنين تحت ملابسه، ويخبّئهما بين يديه، ثم يسأل المنجمين: «من استطاع أن يعرف ما في يدي، حكمت بتفوقه على أقرانه، هيا استدعوا الشيخ عصفوراً». أسرع أحد الخدم ليحضر عصفوراً من منزله، وقال له: «السلطان يطلبك». دخل عصفور إلى زوجته وقد ركبه الهم وقال: «الثالثة هي القاضية. هذه المرة سيشنقني السلطان، ويأخذ منك الذهب»، قالت زوجته: «ثق بالله وتوكل عليه».

ودع عصفور زوجته وهو واثق أنه لن يعود إليها سالماً في هذه المرة. وعندما وصل إلى السلطان. وجده يضم يديه فوق ملابسه، وواحد من المنجمين يقول: «في يدك أيها السلطان زهر ريحان». ويقول آخر: «بل ورق شجر أخضر». وقال ثالث: «بل ثمار ليمون». وأخذ كل واحد يذكر شيئاً، والسلطان يقول لكل واحد منهم: «غير صحيح.. غير سليم» وأخيراً لم يبق إلا عصفور، جالساً يفكر في المأزق الذي أوقعته فيه امرأته، فقال السلطان: «لماذا لا تتكلم يا شيخ عصفور؟ لقد جاء دورك ولم يبق إلا أنت». قال عصفور، كأنما يحدث نفسه، وقد ازداد همه بسبب ما دفعته إليه امرأته: «وماذا أقول أيها الملك؟! لولا جرادة ما وقع عصفور اليوم في يد السلطان». هنا تهللت أسارير السلطان وصاح: «ليس في العالم مثلك يا شيخ عصفور.. أنت سلطان الحكمة والمعرفة !» وأخرج السلطان من يده الجرادة والعصفور، ثم قال: «أعطوه ثلاثة آلاف دينار.» فاستغرب المنجمون، وازدادت دهشتهم وقالوا: «حقاً.. لا يوجد في الدنيا مثله قط.» وانتشر خبر نجاح عصفور وانتصاره على منافسيه هذا الانتصار الكبير، لكن عصفوراً لم يسعد بهذا، بل ذهب إلى زوجته وقال: «إنك ترفضين أن تغادري هذا البلد، وأنا أخشى أن ينكشف خداع الكذب والتنجيم، لذلك إذا سأل عني أحد، قولي له إنني مت، فيكف الناس عني وينسون أمري، ونعيش بالثروة الطائلة التي هبطت علينا في أمان ونعيم».

ولأول مرة وافقته زوجته، فقد بدأت هي الأخرى تخشى ما يخبئه المستقبل لهما. وانقطع عصفور عن زيارة السلطان ثلاثة أيام، فأرسل يسأل عنه، فقالوا له: «لقد مات عصفور منذ ثلاثة أيام». ثم أسرع عصفور وزوجته يتنقلان إلى مسكن بعيد. وحدث في تلك الليلة نفسها أن خرج السلطان متنكراً، ليتعرف حال رعيته. وساقته المصادفة إلى شاطئ النهر، فاشتاق أن يأكل سمكاً مما يشويه الصيادون بعد صيده مباشرة، فجلس على الشاطئ ينتظر خروج الصيادين بالصيد.

وفجأة سمع السلطان رجلاً يجلس قريباً منه يقول: «يحسن أن نسافر من هذا البلد يا جرادة». وسمع امرأة تجيب محدثها وتقول: «قريبا ينساك الناس يا عصفور، فالكل يعتقد الآن أن المنجم عصفوراً قد مات». دهش السلطان حين سمع هذا الحوار، ودقق النظر في الرجل فعرف أنه الشيخ عصفور، فطلب من بعض خدمه أن يتعقبوه، ليعرفوا أين بيته. وفي اليوم التالي، ذهب السلطان متخفياً إلى بيت عصفور، وطرق الباب، ففتح عصفور وهو لا يتوقع أن يكون هناك من عرف بيته الجديد، وإذا به يفاجأ بمن يقول له : «أين زوجة الشيخ عصفور؟» وكاد عصفور ينكر ويقول إنه لا يوجد في البيت أقارب للشيخ عصفور، إلا أن السلطان المتخفي أضاف: «لقد أرسلنا السلطان لنقوم بواجب العزاء في وفاة زوجها، ولنقدم لها مبلغاً من المال تستعين به على الحياة». هنا خشي عصفور من شجار زوجته، إذا صرف هؤلاء الذين جاؤوا يعطونها مالاً، فأدخل الزائرين، وأسرع إلى زوجته يقص عليها الخبر. وتظاهرت الزوجة بالحزن، وخرجت تستقبل الزائرين ودموعها تتساقط من عينيها، لكنها فوجئت بالزائر يسأل: «إذا كان الشيخ عصفور قد مات فمن الذي فتح الباب؟». وسكتت المرأة، فقد أحست أن السؤال ستتلوه أسئلة أخرى، ولمّا لاحظ السلطان أن الزوجة سكتت، أسرع يلقي سؤاله الثاني: «أيتها المرأة، أجيبي عن سؤالي وقولي الصدق: أليس الشيخ عصفور هو الذي فتح لنا الباب؟» أدركت المرأة أن كل الخطط التي وضعتها مع زوجها قد انهارت، فأسرعت تخرج من الغرفة، وقد اعتزمت أن تهرب مع زوجها من باب المنزل الخلفي. هنا ارتفعت ضحكات السلطان ووقف ينادي: «يا شيخ عصفور، أنا السلطان، أعطيك الأمان» حينئذ عرف الشيخ عصفور صوت السلطان، واطمأن قلبه عندما سمعه يعطيه الأمان، فأمسك بيد زوجته، وعاد إلى حيث يجلس السلطان. وعاد السلطان يضحك ويسأله: «لماذا فعلت هذا يا شيخ عصفور؟ لماذا أذعت خبر موتك؟». قال عصفور: «ما دمت قد أعطيتني الأمان يا مولاي، سأقول لك الحقيقة، التنجيم كله كذب وادعاء، وزوجتي هي التي دفعتني إلى أن أصبح منجماً، وقد خدمتني المصادفة أحياناً والحيلة في أحيان أخرى، لكنني رفضت أن أستمر في هذا الدجل والعبث». وقهقه السلطان وضحك قائلاً: «تستحق على صراحتك مكافأة أكبر من كل ما أخذته مقابل تظاهرك بمعرفة الغيب». وأمر له بخمسة آلاف دينار. وأصبح عصفور منذ ذلك اليوم نديماً للسلطان، يحكي له أطرف النوادر والنكات، ويسليه بالقصص والحكايات.

آخر الكلام

على الوعد يا كَمُّون

مُحَمَّـد قاسـم

الكَمُّون نبات ذو ساقٍ طولُها نحوُ شبرٍ دقيقٌ عليه بضع ورقات مُشَقَّقة، وحَبُّهُ أدقُّ من السِّمْسِم، واحدتُهُ كَمُّوْنة، ومنه برّيّ وبُستانيٌّ.

جعلت العرب الكَمُّون عَلَماً لمَنْ يُخْلَفُ وَعْدُهُ، ومواعيد الكَمُّون مثل المواعيد الكاذبة، وخُلْفُ الوعد من خُلُقِ الوَغْد.

وذلك أنَّ زارعَ الكَمُّون يَراهُ أخضرَ أبداً، فيُؤَخِّرُ سقيه، يُغريه بذلك اخضرارُهُ، وأنَّهُ لا عطش فيه، فيقول: غداً أسقيك، وبعد غد أكفيك، فهو ينمو بالتَّمنية على المواعيد الكاذبات، حتَّى قال بشَّارٌ:

سقيتموني كؤوسَ المَطْلِ مُتْرَعَةً ... حتّى تململتُ والسَّكرانُ عربيدُ

لا تتركوني ككَمُّونٍ بمزرعةٍ ... إنْ خانه الغيثُ أحيتْهُ المواعيدُ

وقال آخر :

فأصبحتُ كالكَمُّوْنِ ماتتْ عروقُهُ ... وأوراقُهُ ممّا يُمَنُّوْنَهُ خُضْرُ

وقال آخر:

إذا جِئْتَهُ يوماً أحال على غد ... كما يُوْعَدُ الكَمُّونُ ما لَيْسَ يَصْدُقُ

وقد أحسن ابنُ الرُّوميِّ في الجمع بين الفُلْفُل والكَمُّون؛ قال:

كم شامخٍ باذخٍ بثروته ... أَضَلَّهُ قبليَ المُضِلُّونا

جَعَلْتُهُ بالهجاءِ فُلْفُلَةً ... إذْ جَعَلَتْني مُنَاهُ كَمُّونا

ولمّا صار إخلاف وَعْدِ سقاية الكَمُّون عَلَماً على الإخلاف أجروه مجرى المثل، فقالوا: أَخْلَفُ مِنْ شُرْبِ الكَمُّون.

وقد ذَمُّوا الإخلاف، فقالوا: الخُلْفُ ألأم من البُخْلِ؛ لأنَّ مَنْ لم يفعل المعروفَ لَزِمَهُ ذمُّ اللُّؤم وذمُّ الخُلْف وذمُّ العَجْز.

وقَوْلُ العامَّة اليوم: على الوعد يا كَمُّون، غَمْزٌ ممَّنْ يُخْلِفُ مواعيده أوْ لا يُصَدَّقُ فيما يَعِدُ فيه = مُنْتَزَعٌ من هذا المثل العربيّ الفصيح، وكثير من أمثالنا العامّيّة اليومَ لو تُفُقِّدَتْ بشيءٍ من التَّأْصيل والبحث والمراجعة لوُجدت أصولها ضاربةَ الجُذور في تراثنا الأدبيّ القديم.